بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار

في شرح جوامع الأخبار

تأليف الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

1307 – 1376 هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالكتاب

من تأمل هذا الكتاب على اختصاره ووضوحه رآه مشتملا من جميع العلوم النافعة على: علم التوحيد ، والأصول ، والعقائد ، وعلم السير والسلوك إلى الله ، وعلم الأخلاق والآداب الدينية ، والدنيوية ، والطبية وعلم الفقه والأحكام في كل أبواب الفقه : من عبادات ومعاملات ، وأنكحة ، وغيرها وبيان حكمها ، ومأخذها وأصولها وقواعدها ، وعلوم الإصلاحات المتنوعة والمواضيع النافعة، والتوجيهات إلى جلب المنافع الخاصة والعامة ، الدينية والدنيوية ، ودفع المضار .

وهي كلها مأخوذة ومستفادة من كلماته ، صلوات الله وسلامه عليه ، حيث اختير فيه شرح أجمع الأحاديث وأنفعها ، كما ستراه.

وذلك كله من فضل الله ورحمته . . والله هو المحمود وحده .

مقدمة المؤلف

الحمد لله المحمود على ما له من الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العظيمة العليا، وعلى آثارها الشاملة للأولى والأخرى.

وأصلي وأسلم على محمد أجمع الخلق لكل وصف حميد، وخلق رشيد، وقول سديد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه من جميع العبيد.

أما بعد: فليس بعد كلام الله أصدق ولا أنفع ولا أجمع لخير الدنيا والآخرة من كلام رسوله وخليله محمد ﷺ إذ هو أعلم الخلق، وأعظمهم نصحا وإرشادا وهداية، وأبلغهم بيانا وتأصيلا وتفصيلا، وأحسنهم تعليما. وقد أوتي ﷺ جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارا، بحيث كان يتكلم بالكلام القليل لفظه، الكثيرة معانيه، مع كمال الوضوح والبيان الذي هو أعلى رتب البيان.

وقد بدا لي أن أذكر جملة صالحة من أحاديثه الجوامع في المواضيع الكلية، والجوامع في جنس، أو نوع، أو باب من أبواب العلم، مع التكلم على مقاصدها وما تدل عليه على وجه يحصل به الإيضاح والبيان مع الاختصار، إذ المقام لا يقتضي البسط.

فأقول مستعينا بالله، سائلا منه التيسير والتسهيل:

حديث إنما الأعمال بالنيات...

الحديث الأول

عن عمر بن الخطاب قال: سمعت رسول الله يقول: إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه [1] متفق عليه.

حديث من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد

الحديث الثاني

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه [2] - وفي رواية: من عمل عملا ليس عليه أمرنا - فهو رد [3] متفق عليه.

هذان الحديثان العظيمان يدخل فيهما الدين كله، أصوله وفروعه، ظاهره وباطنه. فحديث عمر ميزان للأعمال الباطنة، وحديث عائشة ميزان للأعمال الظاهرة.

1 (?) البخاري بدء الوحي (1) ، مسلم الإمارة (1907) ، الترمذي فضائل الجهاد (1647) ، النسائي الطهارة (75) ، أبو داود الطلاق (2201) ، ابن ماجه الزهد (4227) ، أحمد (1/43) .

2 (?) البخاري الصلح (2550) ، مسلم الأقضية (1718) ، أبو داود السنة (4606) ، ابن ماجه المقدمة (14) ، أحمد (6/270) .

3 (?) مسلم الأقضية (1718) ، أحمد (6/146) .

ففيهما الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول اللذان هما شرط لكل قول وعمل، ظاهر وباطن. فمن أخلص أعماله لله متبعا في ذلك رسول الله فهذا الذي عمله مقبول، ومن فقد الأمرين أو أحدهما فعمله مردود، داخل في قول الله تعالى: [illegible] [1] . [الفرقان: 23]

والجامع للوصفين داخل في قوله تعالى: [illegible] [2] الآية، [النساء: 125]. [illegible] [3] [البقرة: 112].

أما النية: فهي القصد للعمل تقربا إلى الله، وطلبا لمرضاته وثوابه. فيدخل في هذا: نية العمل، ونية المعمول له.

أما نية العمل: فلا تصح الطهارة بأنواعها، ولا الصلاة والزكاة والصوم والحج وجميع العبادات إلا بقصدها ونيتها، فينوي تلك العبادة المعينة. وإذا كانت العبادة تحتوي على أجناس وأنواع، كالصلاة، منها الفرض، والنفل المعين، والنفل المطلق. فالمطلق منه يكفي فيه أن ينوي الصلاة. وأما المعين من فرض أو نفل

1 (?) سورة الفرقان آية : 23 .
2 (?) سورة النساء آية : 125 .
3 (?) سورة البقرة آية : 112 .

معين - كوتر أو راتبـة، فلا بد مع نية الصـلاة أن ينـوي ذلك المعين. وهكذا بقية العبادات.

ولا بد أيضا أن يمـــيز العـــادة عن العبـــادة. فمثلا الاغتسال يقع نظافة أو تبردا، ويقع عن الحدث الأكـبر، وعن غسل الميت وللجمعـة.. ونحوهـا، فلا بد أن ينـوي فيه رفع الحــدث، أو ذلك الغسل المســتحب. وكــذلك يخــرج الإنســان الــدراهم مثلا للزكــاة، أو للكفــارة، أو للنذر، أو للصدقة المستحبة، أو هدية. فالعبرة في ذلك كله على النية.

ومن هذا: حيل المعــاملات إذا عامل معاملة ظاهرها وصــورتها الصـحة، ولكنه يقصد بها التوسل إلى معاملة ربويـــــة، أو يقصد بها إســـــقاط واجب، أو توسلا إلى محرم، فإن العبرة بنيته وقصده، لا بظــاهر لفظه فإنما الأعمال بالنيات. وذلك بـأن يضم إلى أحد العوضـين ما ليس بمقصود، أو يضم إلى العقد عقـدا غـير مقصـود. قاله شيخ الإسلام.

وكــذلك شــرط الله في الرجعة وفي الوصـية: أن لا يقصد العبد فيهما المضارة.

ويدخل في ذلك جميع الوسائل التي يتوسل بها إلى مقاصدها، فإن الوسائل لها أحكام المقاصد، صــالحة أو فاسدة، والله يعلم المصلح من المفسد.

وأما نية المعمــول لــه: فهو الإخلاص لله في كل ما يـأتي العبد وما يـذر، وفي كل ما يقـول ويفعـل، قـال

تعالى: [illegible] [1] [البينة: 5]

وقال: [illegible] [2] [الزمر: 3].

وذلك أن على العبد أن ينـــوي نية كلية شـــاملة لأمـوره كلهـا، مقصـودا بها وجه اللـه، والتقـرب إليـه، وطلب ثوابه، واحتساب أجره، والخـوف من عقابـه. ثم يستصـحب هـذه النية في كل فـرد من أفـراد أعماله وأقوالـــه، وجميع أحوالـــه، حريصا فيه على تحقيق الإخلاص وتكميلـــه، ودفع كل ما يضـــاده: من الريـــاء والسمعة، وقصد المحمدة عند الخلق، ورجاء تعظيمهم، بل إن حصل شـــيء من ذلك فلا يجعله العبد قصـــده، وغاية مـراده، بل يكـون القصد الأصـيل منه وجه اللـه، وطلب ثوابه من غير التفـات للخلـق، ولا رجـاء لنفعهم أو مـدحهم. فـإن حصل شـيء من ذلك دون قصد من العبد لم يضـره شـيئا، بل قد يكـون من عاجل بشـرى المؤمن.

فقوله ﷺ إنما الأعمال بالنيات [3] أي: إنها لا تحصل ولا تكـون إلا بالنيـة، وأن مـدارها على النيـة. ثم قـال: وإنما لكل امـرئ ما نـوى [4] أي: إنها تكـون بحسب

---

1 (?) سورة البينة آية : 5 .

2 (?) سورة الزمر آية : 3 .

3 (?) البخـاري بـدء الـوحي (1) ، مسـلم الإمـارة (1907) ، الترمـذي فضـائل الجهـاد (1647) ، النسـائي الطهـارة (75) ، أبـو داود الطلاق (2201) ، ابن ماجه الزهد (4227) ، أحمد (1/43) .

4 (?) البخـاري بـدء الـوحي (1) ، مسـلم الإمـارة (1907) ، الترمـذي فضـائل الجهـاد (1647) ، النسـائي الطهـارة (75) ، أبـو داود الطلاق (

نية العبد صحتها أو فسادها، كمالها أو نقصانها، فمن نوى فعل الخير وقصد به المقاصد العليا - وهي ما يقرب إلى الله - فله من الثواب والجزاء الجزاء الكامل الأوفى. ومن نقصت نيته وقصده، نقص ثوابه، ومن توجهت نيته إلى غير هذا المقصد الجليل، فاته الخير، وحصل على ما نوى من المقاصد الدنيئة الناقصة.

ولهذا ضرب النبي مثالا ليقاس عليه جميع الأمور، فقال: فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله [1] أي: حصل له ما نوى، ووقع أجره على الله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه [2] خص فيه المرأة التي يتزوجها بعدما عم جميع الأمور الدنيوية لبيان أن جميع ذلك غايات دنيئة، ومقاصد غير نافعة.

وكذلك حين سئل عن الرجل يقاتل شجاعة، أو حمية، أو ليرى مقامه في صف القتال " أي ذلك في سبيل الله ؟ " فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله [3] وقال تعالى في اختلاف

2201) ، ابن ماجه الزهد (4227) ، أحمد (1/43) .

1 (?) البخاري الإيمان (54) ، مسلم الإمارة (1907) ، الترمذي فضائل الجهاد (1647) ، النسائي الطلاق (3437) ، أبو داود الطلاق (2201) ، ابن ماجه الزهد (4227) ، أحمد (1/43) .

2 (?) البخاري بدء الوحي (1) ، مسلم الإمارة (1907) ، الترمذي فضائل الجهاد (1647) ، النسائي الطهارة (75) ، أبو داود الطلاق (2201) ، ابن ماجه الزهد (4227) ، أحمد (1/43) .

3 (?) البخاري العلم (123) ، مسلم الإمارة (1904) ، الترمذي فضائل الجهاد (1646) ، النسائي الجهاد (3136) ، أبو داود الجهاد (2517) ،

الإنفـــاق بحسب النيـــات: [illegible] [1] [البقرة: 265]. وقال: [illegible] [2] . [النســـاء: 38].

وهكذا جميع الأعمال.

والأعمال إنما تتفاضل ويعظم ثوابها بحسب ما يقوم بقلب العامل من الإيمـان والإخلاص، حـتى إن صـاحب النية الصـادقة - وخصوصا إذا اقـترن بها ما يقـدر عليه من العمل - يلتحق صاحبها بالعامل، قـال تعـالى: [illegible] [3] [النساء: 100] .

وفي الصــحيح مرفوعا إذا مــرض العبد أو ســافر كتب له ما كـــــان يعمل صـــــحيحا مقيما [4] ، إن بالمدينة أقواما ما ســرتم مســيرا، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم - أي: في نياتهم وقلوبهم وثوابهم - حبسهم العذر [5] وإذا هم العبد بالخير، ثم لم يقدر له العمل، كتبت همته ونيته له حسنة كاملة.

ابن ماجه الجهاد (2783) ، أحمد (4/417) .

1 (?) سورة البقرة آية : 265 .

2 (?) سورة النساء آية : 38 .

3 (?) سورة النساء آية : 100 .

4 (?) البخاري الجهاد والسير (2834) ، أبو داود الجنائز (3091) ، أحمد (4/410) .

5 (?) البخاري المغازي (4161) ، ابن ماجه الجهاد (2764) .

والإحسان إلى الخلق بالمال والقول والفعل خير وأجر وثواب عند الله، ولكنه يعظم ثوابه بالنية. قال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ [1] [النساء: 114].

أي: فإنه خير، ثم قال: ﴿ [illegible] ﴾ [2] [النساء: 114] . فرتب الأجر العظيم على فعل ذلك ابتغاء مرضاته. وفي البخاري مرفوعا: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أداها الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله» [3] فانظر كيف جعل النية الصالحة سببا قويا للرزق وأداء الله عنه، وجعل النية السيئة سببا للتلف والإتلاف.

وكذلك تجري النية في المباحات والأمور الدنيوية، فإن من قصد بكسبه وأعماله الدنيوية والعادية الاستعانة بذلك على القيام بحق الله وقيامه بالواجبات والمستحبات، واستصحب هذه النية الصالحة في أكله وشربه ونومه وراحاته ومكاسبه: انقلبت عاداته عبادات، وبارك الله للعبد في أعماله، وفتح له من أبواب الخير والرزق أمورا لا يحتسبها ولا تخطر له على بال. ومن فاتته هذه النية الصالحة لجهله أو تهاونه، فلا يلومن إلا

---

1 (?) سورة النساء آية : 114 .

2 (?) سورة النساء آية : 114 .

3 (?) البخاري في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس (2257) ، ابن ماجه الأحكام (2411) ، أحمد (2/417) .

نفسه. وفي الصحيح عنه أنه قال: إنك لن تعمل عملا تبتغي به وجه الله إلا أجرت عليه، حتى ما تجعله في في امرأتك [1] .

فعلم بهذا: أن هذا الحديث جامع لأمور الخير كلها. فحقيق بالمؤمن الذي يريد نجاة نفسه ونفعها أن يفهم معنى هذا الحديث، وأن يكون العمل به نصب عينيه في جميع أحواله وأوقاته.

وأما حديث عائشة: فإن قوله من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد[2] - أو من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد [3] فيدل بالمنطوق وبالمفهوم.

أما منطوقه: فإنه يدل على أن كل بدعة أحدثت في الدين ليس لها أصل في الكتاب ولا في السنة، سواء كانت من البدع القولية الكلامية، كالتجهم والرفض والاعتزال وغيرها، أو من البدع العملية كالتعبد لله بعبادات لم يشرعها الله ولا رسوله، فإن ذلك كله مردود على أصحابه، وأهله مذمومون بحسب بدعهم وبعدها عن الدين. فمن أخبر بغير ما أخبر الله به ورسوله، أو تعبد بشيء لم يأذن الله به ورسوله

1 (?) البخاري الجنائز (1234) ، مسلم الوصية (1628) ، الترمذي الوصايا (2116) ، أبو داود الوصايا (2864) ، أحمد (1/176) ، مالك الأقضية (1495) ، الدارمي الوصايا (3196) .

2 (?) البخاري الصلح (2550) ، مسلم الأقضية (1718) ، أبو داود السنة (4606) ، ابن ماجه المقدمة (14) ، أحمد (6/270) .

3 (?) مسلم الأقضية (1718) ، أحمد (6/146) .

ولم يشرعه فهو مبتدع، ومن حرم المباحات، أو تعبد بغير الشرعيات فهو مبتدع.

وأما مفهوم هذا الحديث: فإن من عمل عملا، عليه أمر الله ورسوله - وهو التعبد لله بالعقائد الصحيحة، والأعمال الصالحة: من واجب ومستحب: فعمله مقبول، وسعيه مشكور.

ويستدل بهذا الحديث على أن كل عبادة فعلت على وجه منهي عنه فإنها فاسدة؛ لأنه ليس عليها أمر الشارع، وأن النهي يقتضي الفساد. وكل معاملة نهى الشارع عنها فإنها لاغية لا يعتد بها.

حديث الدين النصيحة...

الحديث الثالث

عن تميم الداري قال: قال رسول الله الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله ؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم [1] رواه مسلم.

كرر النبي هذه الكلمة اهتماما للمقام، وإرشادا للأمة أن يعلموا حق العلم أن الدين كله - ظاهره وباطنه - منحصر في النصيحة. وهي القيام التام بهذه الحقوق الخمسة.

---

1 (?) مسلم الإيمان (55) ، النسائي البيعة (4197) ، أبو داود الأدب (4944) ، أحمد (4/102) .

فالنصــيحة للــه: الاعــتراف بوحدانية اللــه، وتفــرده بصــفات الكمــال على وجه لا يشــاركه فيها مشــارك بوجه من الوجــوه، والقيــام بعبوديته ظــاهرا وباطنــا، والإنابة إليه كل وقت بالعبوديـــة، والطلب رغبة ورهبة مع التوبة والاســتغفار الــدائم؛ لأن العبد لا بد له من التقصـير في شـيء من واجبـات اللـه، أو التجـرؤ على بعض المحرمــات. وبالتوبة الملازمة والاســتغفار الــدائم ينجبر نقصه، ويتم عمله وقوله.

وأما النصــيحة لكتــاب اللــه: فبحفظه وتــدبره، وتعلم ألفاظه ومعانيه والاجتهاد في العمل به في نفسه وفي غيره.

وأما النصــيحة للرســول فهي الإيمــان به ومحبتــه. وتقديمه فيها على النفس والمــال والولــد، واتباعه في أصول الدين وفروعه، وتقديم قوله على قول كل أحد، والاجتهاد في الاهتداء بهديه، والنصر لدينه.

وأما النصـــيحة لأئمة المســـلمين - وهم ولاتهم، من الإمام الأعظم إلى الأمراء والقضـاة إلى جميع من لهم ولاية عامة أو خاصة -: فباعتقـــاد ولايتهم، والســـمع والطاعة لهم، وحث النـــاس على ذلـــك، وبـــذل ما يســتطيعه من إرشــادهم، وتنــبيههم إلى كل ما ينفعهم وينفع الناس، وإلى القيام بواجبهم.

وأما النصــيحة لعامة المســلمين: فبــأن يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكـره لنفســه، ويســعى في

ذلك بحسب الإمكان، فإن من أحب شيئا سعى له، واجتهد في تحقيقه وتكميله.

فالنبي فسر النصيحة بهذه الأمور الخمسة التي تشمل القيام بحقوق الله، وحقوق كتابه، وحقوق رسوله، وحقوق جميع المسلمين على اختلاف أحوالهم وطبقاتهم. فشمل ذلك الدين كله، ولم يبق معه شيء إلا دخل في هذا الكلام الجامع المحيط. والله أعلم.

حديث من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا

الحديث الرابع

عن أبي هريرة قال: أتى أعرابي النبي فقال: دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة " قال: تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان ". قال: والذي نفسي بيده، لا أزيد على هذا شيئا ولا أنقص منه. فلما ولى، قال النبي من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا [1] متفق عليه.

قد وردت أحاديث كثيرة في هذا الأصل الكبير الذي دل عليه الحديث، ومدلولها كلها متفق أو متقارب على أن من أدى ما فرض الله عليه بحسب الفروض المشتركة والفروض المختصة بالأسباب التي من وجدت فيه وجبت عليه. فمن أدى الفرائض واجتنب

---

[1] (?) البخاري الزكاة (1333) ، مسلم الإيمان (14) ، أحمد (2/343) .

المحرمات استحق دخول الجنة، والنجاة من النار، ومن اتصف بهذا الوصف فقد استحق اسم الإسلام والإيمان، وصار من المتقين المفلحين، وممن سلك الصراط المستقيم.

ويشبه هذا ويقاربه:

حديث...قل آمنت بالله ثم استقم

الحديث الخامس

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك. قال: قل: آمنت بالله، ثم استقم [1] . رواه مسلم.

فهذا الرجل طلب من النبي [illegible] كلاما جامعا للخير نافعا، موصلا صاحبه إلى الفلاح. فأمره النبي [illegible] بالإيمان بالله الذي يشمل ما يجب اعتقاده: من عقائد الإيمان، وأصوله، وما يتبع ذلك، من أعمال القلوب، والانقياد والاستسلام لله، باطنا وظاهرا، ثم الدوام على ذلك، والاستقامة عليه إلى الممات. وهو نظير قوله تعالى: [illegible] [2] [فصلت: 30] . فرتب على

[1] (?) مسلم الإيمان (38) ، الترمذي الزهد (2410) ، ابن ماجه الفتن (3972) ، أحمد (3/413) ، الدارمي الرقاق (2710) .

[2] (?) سورة فصلت آية : 30 .

الإيمان والاستقامة: السلامة من جميع الشرور، وحصول الجنة وجميع المحاب.

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة الكثيرة على أن الإيمان يشمل ما في القلوب من العقائد الصحيحة، وأعمال القلوب: من الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، وإرادة الخير، وكراهة الشر. ومن أعمال الجوارح [1] . ولا يتم ذلك إلا بالثبات عليه.

حديث المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده...

الحديث السادس

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه [2] متفق عليه، وزاد الترمذي والنسائي: والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم [3] وزاد البيهقي: والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله [4] .

ذكر في هذا الحديث كمال هذه الأسماء الجليلة التي رتب الله ورسوله عليها سعادة الدنيا والآخرة، وهي الإسلام والإيمان، والهجرة والجهاد. وذكر حدودها

1 (?) الأعضاء .

2 (?) البخاري الإيمان (10) ، مسلم الإيمان (40) ، النسائي الإيمان وشرائعه (4996) ، أبو داود الجهاد (2481) ، أحمد (2/191) ، الدارمي الرقاق (2716) .

3 (?) الترمذي الإيمان (2627) ، النسائي الإيمان وشرائعه (4995) ، أحمد (2/379) .

4 (?) أحمد (6/21) .

بكلام جامع شامل، وأن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

وذلك أن الإسلام الحقيقي: هو الاستسلام لله، وتكميل عبوديته والقيام بحقوقه، وحقوق المسلمين. ولا يتم الإسلام حتى يحب للمسلمين ما يحب لنفسه، ولا يتحقق ذلك إلا بسلامتهم من شر لسانه وشر يده. فإن هذا أصل هذا الفرض الذي عليه للمسلمين. فمن لم يسلم المسلمون من لسانه أو يده كيف يكون قائما بالفرض الذي عليه لإخوانه المسلمين ؟ فسلامتهم من شره القولي والفعلي عنوان على كمال إسلامه.

وفسر المؤمن بأنه الذي يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم، فإن الإيمان إذا دار في القلب وامتلأ به، أوجب لصاحبه القيام بحقوق الإيمان التي من أهمها: رعاية الأمانات، والصدق في المعاملات، والورع عن ظلم الناس في دمائهم وأموالهم. ومن كان كذلك عرف الناس هذا منه، وأمنوه على دمائهم وأموالهم، ووثقوا به، لما يعلمون منه من مراعاة الأمانات، فإن رعاية الأمانة من أخص واجبات الإيمان، كما قال لا إيمان لمن لا أمانة له [1] .

وفسره الهجرة التي هي فرض عين على كل مسلم بأنها هجرة الذنوب والمعاصي. وهذا الفرض لا

[1] (?) أحمد (3/135) .

يسقط عن كل مكلف في كل حـال من أحوالـه؛ فـإن الله حرم على عباده انتهاك المحرمات، والإقـدام على المعاصـي. والهجـرة الخاصة الـتي هي الانتقـال من بلد الكفر أو البدع إلى بلد الإسلام والسنة، جزء من هــذه الهجـــــرة، وليست واجبة على كل أحـــــد، وإنما تجب بوجود أسبابها المعروفة.

وفسر المجاهد بأنه الـــــذي جاهد نفسه على طاعة اللـــه؛ فـــإن النفس ميالة إلى الكسل عن الخـــيرات، أمارة بالسوء، سريعة التأثر عند المصائب، وتحتاج إلى صـــبر وجهـــاد في إلزامها طاعة اللـــه، وثباتها عليهـــا، ومجاهــدتها عن معاصي اللـــه، وردعها عنهـــا، وجهادها على الصبر عند المصائب. وهذه هي الطاعـات: امتثـال المأمور، واجتناب المحظور، والصبر على المقدور.

فالمجاهد حقيقة: من جاهدها على هذه الأمور لتقوم بواجبها ووظيفتها.

ومن أشرف هذا النوع وأجلّـه: مجاهـدتها على قتـال الأعـداء، ومجاهـدتهم بـالقول والفعل فـإن الجهـاد في سبيل الله ذروة سنام الدين.

فهذا الحديث من قام بما دل عليه فقد قام بالــدين كلــه: من ســلم المســلمون من لســانه ويــده، وأمنه الناس على دمائهم وأموالهم، وهجر ما نهى الله عنــه، وجاهد نفسه على طاعة اللــه، فإنه لم يبق من الخــير

الديني والدنيوي الظاهري والباطني شيئا إلا فعله، ولا من الشر إلا تركه..

والله الموفق وحده.

حديث أربع من كن فيه كان منافقا خالصا...

الحديث السابع

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر [1] [2] متفق عليه.

النفاق أساس الشر، وهو أن يظهر الخير، ويبطن الشر. هذا الحد يدخل فيه النفاق الأكبر الاعتقادي، الذي يظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر، وهذا النوع مخرج من الدين بالكلية، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار.

وقد وصف الله هؤلاء المنافقين بصفات الشر كلها: من الكفر، وعدم الإيمان، والاستهزاء بالدين وأهله، والسخرية منهم، والميل بالكلية إلى أعداء الدين، لمشاركتهم لهم في عداوة دين الإسلام. وهم

---

1 (?) البخاري الإيمان (34) ، مسلم الإيمان (58) ، الترمذي الإيمان (2632) ، النسائي الإيمان وشرائعه (5020) ، أبو داود السنة (4688) ، أحمد (2/189) .

2 (?) زاد في الخصومة على حد الشرع ، فلم يكتف بمقابلة السيئة بمثلها على سبيل المثال .

موجـودون في كل زمـان، ولا سـيما في هـذا الزمـان الذي طغت فيه المادية والإلحاد والإباحية.

والمقصود هنا: القسم الثـاني من النفـاق الـذي ذكر في هـذا الحـديث، فهـذا النفـاق العملي - وإن كـان لا يخــرج من الــدين بالكلية - فإنه دهلــيز الكفــر، ومن اجتمعت فيه هذه الخصال الأربع فقد اجتمع فيه الشر، وخلصت فيه نعـوت المنـافقين، فـإن الصـدق، والقيـام بالأمانـات، والوفـاء بـالعهود، والـورع عن حقـوق الخلق هي جمـاع الخـير، ومن أخص أوصـاف المؤمـنين. فمن فقد واحدة منها، فقد هـدم فرضا من فـروض الإسـلام والإيمان، فكيف بجميعها ؟

فالكــذب في الحــديث يشــمل الحـديث عن الله والحــديث عن رســول الله الــذي من كــذب عليه متعمدا فليتبوأ مقعده من النــار [1] [الصف: 7] .

ويشــمل الحـديث عما يخــبر به من الوقـائع الكلية والجزئية. فمن كـان هـذا شـأنه فقد شـارك المنـافقين في أخص صفاتهم، وهي الكذب الذي قال فيه النبي إياكم والكـذب، فـإن الكـذب يهـدي إلى الفجـور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكـذب حـتى يكتب عند الله كـذابا [2] ومن كـان إذا

1 (?) سورة الصف آية : 7 .

2 (?) البخاري الأدب (5743) ، مسلم البر والصـلة والآداب (2607) ، الترمـذي الـبر والصـلة (1971) ، أبـو داود الأدب (4989) ، ابن ماجـه

ائتمن على الأموال والحقوق والأسرار خانهـا، ولم يقم بأمانتـه، فـأين إيمانه ؟ وأين حقيقة إسـلامه ؟ وكـذلك من ينكث العهـود الـتي بينه وبين اللـه، والعهـود الـتي بينه وبين الخلق متصف بصـــــفة خبيثة من صـــــفات المنــافقين. وكـــذلك من لا يتـــورع عن أمـــوال الخلق وحقوقهم، ويغتنم فرصـــها، ويخاصم فيها بالباطل ليثبت باطلا، أو يدفع حقـا. فهـذه الصـفات لا تكـاد تجتمع في شـــخص ومعه من الإيمـــان ما يجـــزي أو يكفي، فإنها تنافي الإيمان أشد المنافاة.

واعلم أن من أصـول أهل السـنة والجماعـة: أنه قد يجتمع في العبد خصـال خـير وخصـال شـر، وخصـال إيمـان وخصـال كفر أو نفـاق. ويسـتحق من الثـواب والعقاب بحسب ما قـام به من موجبـات ذلك وقد دل على هـذا الأصل نصـوص كثـيرة من الكتـاب والسـنة، فيجب العمل بكل النصوص، وتصـديقها كلهـا. وعلينا أن نتبرأ من مذهب الخـوارج الـذين يـدفعون ما جـاءت به النصــوص: من بقـــاء الإيمـــان وبقـــاء الـــدين، ولو فعل الإنسان من المعاصي ما فعـل، إذا لم يفعل شـيئا من المكفرات الـتي تخـرج صـاحبها من الإيمـان. فـالخوارج يـدفعون ذلك كلـه، ويـرون من فعل شـيئا من الكبـائر ومن خصال الكفر أو خصال النفـاق خارجا من الـدين،

المقدمة (46) ، أحمد (1/405) ، الدارمي الرقاق (2715) .

مخلدا في النـار. وهـذا مـذهب باطل بالكتـاب والسـنة، وإجماع سلف الأمة.

حديث يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا...

الحديث الثامن

عن أبي هريـرة قـال: قـال رسـول الله يـأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا ؟ من خلق كـذا ؟ حتى يقول: من خلق الله ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله، ولينته [1] . وفي لفظ فليقل: آمنت بالله ورسـله [2] متفق عليه. وفي لفظ لا يزال الناس يتساءلون حـتى يقولوا: من خلق الله ؟ [3] .

احتـــوى هـــذا الحـــديث على أنه لا بد أن يلقي الشيطان هـذا الإيـراد الباطـل: إما وسوسة محضـة، أو على لسـان شـياطين الإنس وملاحـدتهم. وقد وقع كما أخبر، فإن الأمرين وقعـا، لا يـزال الشـيطان يـدفع إلى قلوب من ليست لهم بصيرة هذا السـؤال الباطـل، ولا يزال أهل الإلحاد يلقـون هـذه الشـبهة الـتي هي أبطل الشـبه، ويتكلمـون عن العلل وعن مـواد العـالم بكلام سخيف معروف.

1 (?) البخاري بدء الخلق (3102) ، مسلم الإيمان (134) .
2 (?) أحمد (6/257) .
3 (?) مسلم الإيمان (134) ، أبو داود السنة (4721) .

وقد أرشد النبي في هذا الحديث العظيم إلى دفع هذا السؤال بأمور ثلاثة: بالانتهاء، والعوذ من الشيطان، وبالإيمان.

أما الانتهــاء - وهو الأمر الأول -: فــإن الله تعــالى جعل للأفكـار والعقـول حـدا تنتهي إليـه، ولا تتجـاوزه. ويستحيل لو حاولت مجاوزته أن تسـتطيع، لأنه محـال، ومحاولة المحــــال من الباطل والســـــفه، ومن أمحل المحـــال التسلسل في المـــؤثرين والفـــاعلين، فـــإن المخلوقــات لها ابتــداء، ولها انتهــاء. وقد تتسلسل في كثــير من أمورها حــتى تنتهي إلى الله الــذي أوجــدها وأوجد ما فيها من الصــفات والمــواد والعناصر [1] [النجم: 42]. فــإذا وصـــلت العقول إلى الله تعالى وقفت وانتهت، فإنه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء. فأوليته تعالى لا مبتدأ لها مهما فرضت الأزمان والأحـوال، وهو الذي أوجد الأزمان والأحـوال والعقـول الـتي هي بعض قوى الإنسان. فكيف يحاول العقل أن يتشبث في إيراد السؤال الباطل. فالفرض عليه المحتم في هذه الحـال: الوقوف، والانتهاء.

الأمر الثاني: التعوذ بالله من الشيطان، فإن هذا من وساوسه وإلقائه في القلـــوب؛ ليشـــكك النـــاس في الإيمــان بــربهم. فعلى العبد إذا وجد ذلـك: أن يسـتعيذ

1 (?) سورة النجم آية : 42 .

بالله منـه، فمن تعـوذ بالله بصـدق وقـوة أعـاذه الله وطرد عنه الشيطان، واضمحلت وساوسه الباطلة.

الأمر الثالث: أن يدفعه بما يضـاده من الإيمـان بالله ورسله، فإن الله ورسله أخبروا بأنه تعالى الأول الـذي ليس قبله شـيء، وأنه تعـالى المتفـرد بالوحدانيـة، وبالخلق والإيجاد للموجودات السابقة اللاحقة.

فهذا الإيمان الصحيح الصادق اليقيني يـدفع جميع ما يضاده من الشبه المنافية له، فإن الحق يدفع الباطـل، والشكوك لا تعارض اليقين.

فهذه الأمور الثلاثة الـتي ذكرها النـبي تبطل هـذه الشـبه الـتي لا تـزال على ألسـنة الملاحـدة، يلقونها بعبـارات متنوعـة. فـأمر بالانتهـاء الـذي يبطل التسلسل الباطل، وبالتعوذ من الشـيطان الـذي هو الملقي لهـذه الشبهة، وبالإيمـان الصـحيح الـذي يـدفع كل ما يضـاده من الباطـل. والحمد للـه. (فبالانتهـاء): قطع الشر مباشـرة، (وبالاسـتعاذة): قطع السـبب الـداعي إلى الشر، (وبالإيمان) اللجأ والاعتصـام بالاعتقـاد الصـحيح اليقيني الذي يدفع كل معارض.

وهذه الأمور الثلاثة هي جماع الأسـباب الدافعة لكل شـبهة تعـارض الإيمـان. فينبغي العناية بها في كل ما عرض للإيمان من شبهة واشـتباه يدفعه العبد مباشـرة بالبراهين الدالة على إبطالـه، وإثبـات ضـده وهو الحق الـذي ليس بعـده إلا الضـلال، وبـالتعوذ بالله من

الشيطان الذي يدفع إلى القلوب فتن الشبهات، وفتن الشهوات، ليزلزل إيمانهم، ويوقعهم بأنواع المعاصي. فبالصبر واليقين: ينال العبد السلامة من فتن الشهوات، ومن فتن الشبهات. والله هو الموفق الحافظ.

حديث كل شيء بقدر حتى العجز والكيس

الحديث التاسع

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ ﴿كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس﴾ [1] رواه مسلم.

هذا الحديث متضمن لأصل عظيم من أصول الإيمان الستة، وهو الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، عامه وخاصه، سابقه ولاحقه، بأن يعترف العبد أن علم الله محيط بكل شيء، وأنه علم أعمال العباد خيرها وشرها، وعلم جميع أمورهم وأحوالهم، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ. كما قال تعالى: ﴿[illegible]﴾ [2] [الحج: 70]. ثم إن الله ينفذ هذه الأقدار في أوقاتها بحسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته، الشاملتان لكل ما كان وما يكون، الشاملتان للخلق والأمر وأنه مع ذلك، ومع خلقه للعباد وأفعالهم وصفاتهم، فقد أعطاهم قدرة وإرادة تقع بها أفعالهم

---

1 (?) مسلم القدر (2655) ، أحمد (2/110) ، مالك الجامع (1663) .

2 (?) سورة الحج آية : 70 .

بحسب اختيـارهم، لم يجـبرهم عليهـا، وهو الـذي خلق قدرتهم ومشيئتهم، وخالق السبب التام خالق للمسبب. فأفعــالهم وأقــوالهم تقع بقــدرتهم ومشــيئتهم اللــتين خلقهما الله فيهم، كما خلق بقية قــــواهم الظـــــاهرة والباطنة. ولكنه تعالى يسر كلا لما خلق له.

فمن وجه وجهه وقصــده لربــه: حبب إليه الإيمــان، وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسـوق والعصـيان، وجعله من الراشــــــدين، فتمت عليه نعم الله من كل وجه.

ومن وجه وجهه لغــــير اللـــــه، بل تـــولى عـــــدوه الشــيطان: لم ييســره لهــذه الأمــور، بل ولاه الله ما تـولى، وخذلـه، ووكله إلى نفسـه، فضل وغـوى، وليس له على ربه حجة، فإن الله أعطاه جميع الأسباب التي يقدر بها على الهداية، ولكنه اختار الضلالة على الهدى، فلا يلومن إلا نفسه. قال تعــالى: ﴿ [illegible] ﴾ [1] [الأعراف: 30]. وقال: ﴿ [illegible] ﴾ [2] [المائــــدة: 16].

---

1 (?) سورة الأعراف آية : 30 .

2 (?) سورة المائدة آية : 16 .

وهـذا القـدر يـأتي على جميع أحـوال العبد وأفعاله وصـــفاته، حـــتى العجز والكيس. وهما الوصـــفان المتضـادان الـذي ينـال بـالأول منهما - وهو العجز -: الخيبة والخسـران، وبالثـاني - وهو الكيس -: الجد في طاعة الـرحمن. والمـراد هنـا: العجز الـذي يلام عليه العبـد، وهو عـدم الإرادة، وهو الكسـل، لا العجز الـذي هو عدم القدرة. وهذا هو معنى الحديث الآخر اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له [1] .

أما أهل السـعادة: فييسـرون لعمل السـعادة، وذلك بكيسـهم وتـوفيقهم ولطف الله بهم. والكيس والعـاجز هما المـــذكوران في قوله الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعـاجز: من أتبع نفسه هواهـا، وتمنى على الله الأماني [2] .

حديث من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه

الحديث العاشر

عن أبي هريرة قال: قال رسـول الله من دعا إلى هـدى كـان له من الأجر مثل أجـور من تبعـه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا. ومن دعا إلى ضلالة كان

---

1 (?) البخاري تفسير القرآن (4666) ، مسلم القدر (2647) ، الترمذي القدر (2136) ، أبو داود السنة (4694) ، ابن ماجه المقدمة (78) ، أحمد (1/157) .

2 (?) الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (2459) ، ابن ماجه الزهد (4260) .

عليه من الإثم مثل آثــام من تبعــه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا [1] رواه مسلم.

هذا الحديث - وما أشبهه من الأحـاديث - فيـه: الحث على الــدعوة إلى الهــدى والخــير، وفضل الــداعي، والتحذير من الـدعاء إلى الضـلالة والغي، وعظم جـرم الداعي وعقوبته.

والهدى: هو العلم النافع، والعمل الصالح.

فكل من علم علما أو وجه المتعلمين إلى ســـلوك طريقة يحصل لهم فيها علم: فهو داع إلى الهدى.

وكل من دعا إلى عمل صــالح يتعلق بحق اللــه، أو بحقوق الخلق العامة والخاصة: فهو داع إلى الهدى.

وكل من أبـــدى نصــيحة دينية أو دنيوية يتوسل بها إلى الدين: فهو داع إلى الهدى.

وكل من اهتــدى في علمه أو عملــه، فاقتــدى به غيره: فهو داع إلى الهدى.

وكل من تقدم غيره بعمل خـيري، أو مشـروع عـام النفع: فهو داخل في هذا النص.

وعكس ذلك كله: الداعي إلى الضلالة.

فالــداعون إلى الهــدى: هم أئمة المتقين، وخيــار المؤمنين.

---

[1] (?) مسلم العلم (2674) ، الترمذي العلم (2674) ، أبو داود السنة (4609) ، أحمد (2/397) ، الدارمي المقدمة (513) .

والداعون إلى الضلالة: هم الأئمة الذين يدعون إلى النار.

وكل من عاون غيره على البر والتقوى: فهو من الداعين إلى الهدى.

وكل من أعان غيره على الإثم والعدوان: فهو من الداعين إلى الضلالة.

حديث من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين

الحديث الحادي عشر

عن معاوية قال: قال رسول الله من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين [1] متفق عليه.

هذا الحديث من أعظم فضائل العلم، وفيه: أن العلم النافع علامة على سعادة العبد، وأن الله أراد به خيرا.

والفقه في الدين يشمل الفقه في أصول الإيمان، وشرائع الإسلام والأحكام، وحقائق الإحسان. فإن الدين يشمل الثلاثة كلها، كما في حديث جبريل لما سأل النبي عن الإيمان والإسلام والإحسان، وأجابه بحدودها. ففسر الإيمان بأصوله الستة، وفسر الإسلام بقواعده الخمس، وفسر الإحسان بـ أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك [2] فيدخل

---

1 (?) البخاري العلم (71) ، مسلم الإمارة (1037) ، ابن ماجه المقدمة (221) ، أحمد (4/93) ، الدارمي المقدمة (226) .

2 (?) البخاري الإيمان (50) ، مسلم الإيمان (10) ، النسائي الإيمان وشرائعه (4991) ، ابن ماجه المقدمة (64) ، أحمد (2/426) .

في ذلك التفقه في العقائد، ومعرفة مذهب السلف فيها، والتحقق به ظاهرا وباطنا، ومعرفة مذاهب المخالفين، وبيان مخالفتها للكتاب والسنة.

ودخل في ذلك: علم الفقه، أصوله وفروعه، أحكام العبادات والمعاملات، والجنايات وغيرها.

ودخل في ذلك: التفقه بحقائق الإيمان، ومعرفة السير والسلوك إلى الله، الموافقة لما دل عليه الكتاب والسنة.

وكذلك يدخل في هذا: تعلم جميع الوسائل المعينة على الفقه في الدين كعلوم العربية بأنواعها.

فمن أراد الله به خيرا فقهه في هذه الأمور، ووفقه لها.

ودل مفهوم الحديث على أن من أعرض عن هذه العلوم بالكلية فإن الله لم يرد به خيرا، لحرمانه الأسباب التي تنال بها الخيرات وتكتسب بها السعادة.

حديث المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف

الحديث الثاني عشر

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت، كان

كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان [1] رواه مسلم.

هذا الحديث اشتمل على أصول عظيمة وكلمات جامعة.

فمنها: إثبات المحبة صفة لله، وأنها متعلقة بمحبوباته وبمن قام بها ودل على أنها تتعلق بإرادته ومشيئته، وأيضا تتفاضل. فمحبته للمؤمن القوي أعظم من محبته للمؤمن الضعيف.

ودل الحديث على أن الإيمان يشمل العقائد القلبية، والأقوال والأفعال، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ فإن الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها: قول: (لا إله إلا الله) وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة منه. وهذه الشعب التي ترجع إلى الأعمال الباطنة والظاهرة كلها من الإيمان. فمن قام بها حق القيام، وكمل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وكمل غيره بالتواصي بالحق، والتواصي بالصبر: فهو المؤمن القوي الذي حاز أعلى مراتب الإيمان، ومن لم يصل إلى هذه المرتبة: فهو المؤمن الضعيف.

وهذا من أدلة السلف على أن الإيمان يزيد وينقص، وذلك بحسب علوم الإيمان ومعارفه، وبحسب أعماله.

---

[1] (?) مسلم القدر (2664) ، ابن ماجه المقدمة (79) ، أحمد (2/370) .

وهذا الأصل قد دل عليه الكتاب والسنة في مواضع كثيرة.

ولما فاضل النبي بين المؤمنين قـويهم وضـعيفهم خشي من تـوهم القـدح في المفضـول، فقـال: وفي كل خـير وفي هـذا الاحـتراز فائـدة نفيسـة، وهي أن على من فاضل بين الأشخاص أو الأجنـاس أو الأعمـال أن يذكر وجه التفضـيل، وجهة التفضـيل. ويحـترز بـذكر الفضل المشترك بين الفاضل والمفضـول، لئلا يتطـرق القــدح إلى المفضــول وكــذلك في الجــانب الآخر إذا ذكـرت مـراتب الشر والأشـرار، وذكر التفـاوت بينهمـا. فينبغي بعد ذلك أن يـذكر القـدر المشـترك بينهما من أسباب الخير أو الشر. وهذا كثير في الكتاب والسنة.

وفي هـــذا الحـــديث: أن المؤمـــنين يتفـــاوتون في الخيريـــــة، ومحبة الله والقيـــــام بدينه وأنهم في ذلك درجات [1] [الأحقاف: 19] .

ويجمعهم ثلاثة أقسام: السابقون إلى الخـيرات، وهم الذين قاموا بالواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمـات والمكروهـات، وفضـول المباحـات، وكملـوا ما باشـروه من الأعمـــال، واتصـــفوا بجميع صـــفات الكمـــال. ثم المقتصدون الذين اقتصروا على القيام بالواجبات وترك

1 (?) سورة الأحقاف آية : 19 .

المحظـورات، ثم الظـالمون لأنفسـهم، الـذين خلطـوا عملا صالحا وآخر سيئا.

وقوله احـرص على ما ينفعك واسـتعن بالله [1] كلام جامع نافع، محتو على سعادة الدنيا والآخرة.

والأمور النافعة قسمان: أمور دينية، وأمور دنيوية.

والعبد محتـــاج إلى الدنيوية كما أنه محتـــاج إلى الدينية. فمدار سـعادته وتوفيقه على الحـرص والاجتهـاد في الأمـور النافعة منهمـا، مع الاسـتعانة بالله تعـالى، فمـتى حـرص العبد على الأمـور النافعة واجتهد فيهـا، وسـلك أسـبابها وطرقهـا، واسـتعان بربه في حصـولها وتكميلها: كـان ذلك كمالـه، وعنـوان فلاحـه. ومـتى فاته واحد من هذه الأمـور الثلاثـة: فاته من الخـير بحسـبها. فمن لم يكن حريصا على الأمـــور النافعـــة، بل كـــان كســـلانا، لم يـــدرك شـــيئا. فالكسل هو أصل الخيبة والفشل. فالكسلان لا يدرك خيرا، ولا ينال مكرمـة، ولا يحظى بـدين ولا دنيا ومـتى كـان حريصـا، ولكن على غـير الأمـور النافعـة: إما على أمـور ضـارة، أو مفوتة للكمـال كـان ثمـرة حرصه الخيبـة، وفـوات الخـير، وحصول الشر والضـرر، فكم من حـريص على سـلوك طـرق وأحـوال غـير نافعة لم يسـتفد من حرصه إلا التعب والعناء والشقاء.

---

[1] (?) مسلم القدر (2664) ، ابن ماجـه المقدمـة (79) ، أحمـد (2/370) .

ثم إذا سلك العبد الطرق النافعة، وحرص عليها، واجتهد فيها: لم تتم له إلا بصدق اللجأ إلى الله؛ والاستعانة به على إدراكها وتكميلها وأن لا يتكل على نفسه وحوله وقوته، بل يكون اعتماده التام بباطنه وظاهره على ربه. فبذلك تهون عليه المصاعب، وتتيسر له الأحوال، وتتم له النتائج والثمرات الطيبة في أمر الدين وأمر الدنيا، لكنه في هذه الأحوال محتاج - بل مضطر غاية الاضطرار - إلى معرفة الأمور التي ينبغي الحرص عليها، والجد في طلبها.

فالأمور النافعة في الدين ترجع إلى أمرين: علم نافع، وعمل صالح.

أما العلم النافع: فهو العلم المزكي للقلوب والأرواح، المثمر لسعادة الدارين. وهو ما جاء به الرسول ﷺ من حديث وتفسير وفقه، وما يعين على ذلك من علوم العربية بحسب حالة الوقت والموضع الذي فيه الإنسان، وتعيين ذلك يختلف باختلاف الأحوال. والحالة التقريبية: أن يجتهد طالب العلم في حفظ مختصر من مختصرات الفن الذي يشتغل فيه. فإن تعذر أو تعسر عليه حفظه لفظا، فليكرره كثيرا، متدبرا لمعانيه، حتى ترسخ معانيه في قلبه. ثم تكون باقي كتب هذا الفن كالتفسير والتوضيح والتفريع لذلك الأصل الذي عرفه وأدركه، فإن الإنسان إذا حفظ الأصول وصار له ملكة تامة في معرفتها هانت عليه

كتب الفن كلها: صغارها وكبارها. ومن ضيع الأصول حرم الوصول.

فمن حرص على هذا الذي ذكرناه، واستعان بالله: أعانه الله، وبارك في علمه، وطريقه الذي سلكه.

ومن سلك في طلب العلم غير هذه الطريقة النافعة: فاتت عليه الأوقات، ولم يدرك إلا العناء، كما هو معروف بالتجربة. والواقع يشهد به، فإن يسر الله له معلما يحسن طريقة التعليم، ومسالك التفهيم: تم له السبب الموصل إلى العلم.

وأما الأمر الثاني - وهو العمل الصالح (ماهيته) -: فهو الذي جمع الإخلاص لله، والمتابعة للرسول وهو التقرب إلى الله: باعتقاد ما يجب لله من صفات الكمال، وما يستحقه على عباده من العبودية، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وتصديقه وتصديق رسوله في كل خبر أخبرا به عما مضى، وعما يستقبل عن الرسل، والكتب والملائكة، وأحوال الآخرة، والجنة والنار، والثواب والعقاب وغير ذلك. ثم يسعى في أداء ما فرضه الله على عباده: من حقوق الله، وحقوق خلقه ويكمل ذلك بالنوافل والتطوعات، خصوصا المؤكدة في أوقاتها، مستعينا بالله على فعلها، وعلى تحقيقها وتكميلها، وفعلها على وجه الإخلاص الذي لا يشوبه غرض من الأغراض النفسية. وكذلك يتقرب إلى الله بترك المحرمات، وخصوصا التي تدعو إليها النفوس،

وتميل إليها. فيتقرب إلى ربه بتركها لله، كما يتقرب إليه بفعل المأمورات، فمتى وفق العبد بسلوك هذا الطريق في العمل، واستعان الله على ذلك أفلح ونجح. وكان كماله بحسب ما قام به من هذه الأمور، ونقصه بحسب ما فاته منها.

وأما الأمور النافعة في الدنيا: فالعبد لا بد له من طلب الرزق. فينبغي أن يسلك أنفع الأسباب الدنيوية اللائقة بحاله. وذلك يختلف باختلاف الناس، ويقصد بكسبه وسعيه القيام بواجب نفسه، وواجب من يعوله ومن يقوم بمؤنته، وينوي الكفاف والاستغناء بطلبه عن الخلق. وكذلك ينوي بسعيه وكسبه تحصيل ما تقوم به العبوديات المالية: من الزكاة والصدقة، والنفقات الخيرية الخاصة والعامة مما يتوقف على المال، ويقصد المكاسب الطيبة، متجنبا للمكاسب الخبيثة المحرمة. فمتى كان طلب العبد وسعيه في الدنيا لهذه المقاصد الجليلة، وسلك أنفع طريق يراه مناسبا لحاله كانت حركاته وسعيه قربة يتقرب إلى الله بها.

ومن تمام ذلك: أن لا يتكل العبد على حوله وقوته وذكائه ومعرفته، وحذقه بمعرفة الأسباب وإدارتها، بل يستعين بربه متوكلا عليه، راجيا منه أن ييسره لأيسر الأمور وأنجحها، وأقربها تحصيلا لمراده، ويسأل ربه أن يبارك له في رزقه: فأول بركة الرزق: أن يكون مؤسسا على التقوى والنية الصالحة. ومن بركة الرزق:

أن يوفق العبد لوضـــــــعه في مواضـــــــعه الواجبة والمســـــتحبة. ومن بركة الـــــرزق: أن لا ينسى العبد الفضل في المعاملـــة، كما قـــال تعـــالى: ﴿ ﴾[1] [البقــرة: 237]، بالتيســير على الموســرين، وإنظــار المعســرين، والمحابــاة عند الــبيع والشـــراء، بما تيسر من قليل أو كثـــير، فبـــذلك ينـــال العبد خيرا كثيرا.

فإن قيل: أي المكاسب أولى وأفضل ؟

قيـــل: قد اختلف أهل العلم في ذلـــك، فمنهم من فضل الزراعة والحراثـــــة، ومنهم من فضل الـــــبيع والشراء، ومنهم من فضل القيام بالصـناعات والحـرف ونحوها. وكل منهم أدلى بحجته، ولكن هذا الحـديث هو الفاصل للـــنزاع، وهو أنه ﷺ قـــال: «احـــرص على ما ينفعك، واســتعن بالله»[2] والنــافع من ذلك معلـوم أنه يختلف باختلاف الأحوال والأشـخاص، فمنهم من تكـون الحراثة والزراعة أفضل في حقـــه، ومنهم من يكـــون البيع والشراء والقيام بالصناعة التي يحسنها أفضل في حقه، فالأفضل من ذلك وغيره الأنفع.

فصلوات الله وسـلامه على من أعطي جوامع الكلم ونوافعها.

---

1 (?) سورة البقرة آية : 237 .

2 (?) مسلم القدر (2664) ، ابن ماجـه المقدمـة (79) ، أحمـد (2/370) .

ثم إنه حض على الرضى بقضاء الله وقدره، بعد بذل الجهد، واستفراغ الوسع في الحرص على النافع. فإذا أصاب العبد ما يكرهه، فلا ينسب ذلك إلى ترك بعض الأسباب التي يظن نفعها لو فعلها، بل يسكن إلى قضاء الله وقدره ليزداد إيمانه، ويسكن قلبه وتستريح نفسه؛ فإن " لو " في هذه الحال تفتح عمل الشيطان بنقص إيمانه بالقدر، واعتراضه عليه، وفتح أبواب الهم والحزن المضعف للقلب. وهذه الحال التي أرشد إليها النبي هي أعظم الطرق لراحة القلب، وأدعى لحصول القناعة والحياة الطيبة، وهو الحرص على الأمور النافعة، والاجتهاد في تحصيلها، والاستعانة بالله عليها، وشكر الله على ما يسره منها، والرضى عنه بما فات، ولم يحصل منها.

واعلم أن استعمال " لو " يختلف باختلاف ما قصد بها، فإن استعملت في هذه الحال التي لا يمكن استدراك الفائت فيها، فإنها تفتح على العبد عمل الشيطان، كما تقدم، وكذلك لو استعملت في تمني الشر والمعاصي فإنها مذمومة، وصاحبها آثم، ولو لم يباشر المعصية، فإنه تمنى حصولها.

وأما إذا استعملت في تمني الخير، أو في بيان العلم النافع، فإنها محمودة؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

وهذا الأصل الذي ذكره النـبي وهو الأمر بـالحرص على الأمور النافعة، ومن لازمه اجتناب الأمـور الضـارة مع الاســتعانة بالله يشــمل اســتعماله والأمر به في الأمــور الجزئية المختصة بالعبد ومتعلقاتــه، ويشــمل الأمـور الكلية المتعلقة بعمـوم الأمـة. فعليهم جميعا أن يحرصــوا على الأمــور النافعــة، وهي المصــالح الكلية والاستعداد لأعدائهم بكل مستطاع مما يناسب الـوقت، من القـوة المعنوية والماديـة، ويبـذلوا غاية مقـدورهم في ذلـك، مسـتعينين بالله على تحقيقه وتكميلـه، ودفع جميع ما يضــاد ذلــك. وشــرح هــذه الجملة يطــول وتفاصيلها معروفة.

وقد جمع النـبي في هــذا الحــديث بين الإيمــان بالقضــاء والقــدر، والعمل بالأســباب النافعــة، وهــذان الأصلان دل عليهما الكتاب والسـنة في مواضع كثـيرة، ولا يتم الدين إلا بهما، بل لا تتم الأمور المقصودة كلها إلا بهمــا، لأن قوله احــرص على ما ينفعك [1] أمر بكل سبب ديـني ودنيـوي، بل أمر بالجد والاجتهـاد فيه والحرص عليه، نية وهمة، فعلا وتدبيرا.

وقولـه: واسـتعن بالله [2] إيمـان بالقضـاء والقـدر، وأمر بالتوكل على الله الـذي هو الاعتمـاد التـام على

---

1 (?) مسلم القدر (2664) ، ابن ماجـه المقدمـة (79) ، أحمـد (2/370) .

2 (?) مسلم القدر (2664) ، ابن ماجـه المقدمـة (79) ، أحمـد (2/370) .

حوله وقوته تعالى في جلب المصالح ودفع المضار، مع الثقة التامة بالله في نجاح ذلك. فالمتبع للرسول يتعين عليه أن يتوكل على الله في أمر دينه ودنياه، وأن يقوم بكل سبب نافع بحسب قدرته وعلمه ومعرفته والله المستعان.

حديث المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا

الحديث الثالث عشر

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه [1] متفق عليه.

هذا حديث عظيم، فيه الخبر من النبي عن المؤمنين أنهم على هذا الوصف، ويتضمن الحث منه على مراعاة هذا الأصل، وأن يكونوا إخوانا متراحمين متحابين متعاطفين، يحب كل منهم للآخر ما يحب لنفسه، ويسعى في ذلك، وأن عليهم مراعاة المصالح الكلية الجامعة لمصالحهم كلهم، وأن يكونوا على هذا الوصف، فإن البنيان المجموع من أساسات وحيطان محيطة كلية وحيطان تحيط بالمنازل المختصة، وما تتضمنه من سقوف وأبواب ومصالح ومنافع، كل نوع من ذلك لا يقوم بمفرده حتى ينضم بعضها إلى بعض.

---

[1] (?) البخاري المظالم والغصب (2314) ، الترمذي البر والصلة (1928) ، النسائي الزكاة (2560) ، أحمد (4/405) .

كذلك المسلمون يجب أن يكونوا كذلك، فيراعوا قيام دينهم وشرائعه وما يقوّم ذلك ويقويه، ويزيل موانعه وعوارضه.

فالفروض العينية: يقوم بها كل مكلف، لا يسع مكلفا قادرا تركها أو الإخلال بها، وفروض الكفايات: يجعل في كل فرض منها من يقوم به من المسلمين، بحيث تحصل بهم الكفاية، ويتم بهم المقصود المطلوب، قال تعالى في الجهاد: ﴿ [illegible] ﴾ [1] [التوبة: 122]. وقال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ [2] [آل عمران: 104].

وأمر تعالى بالتعاون على البر والتقوى فالمسلمون قصدهم ومطلوبهم واحد، وهو قيام مصالح دينهم ودنياهم التي لا يتم الدين إلا بها، وكل طائفة تسعى في تحقيق مهمتها بحسب ما يناسبها ويناسب الوقت والحال. ولا يتم لهم ذلك إلا بعقد المشاورات والبحث عن المصالح الكلية، وبأي وسيلة تدرك، وكيفية الطرق إلى سلوكها، وإعانة كل طائفة للأخرى في رأيها وقولها وفعلها وفي دفع المعارضات والمعوقات عنها، فمنهم طائفة تتعلم، وطائفة تعلم، ومنهم طائفة تخرج

---

1 (?) سورة التوبة آية : 122 .

2 (?) سورة آل عمران آية : 104 .

إلى الجهــاد بعد تعلمها لفنــون الحــرب، ومنهم طائفة ترابط، وتحافظ على الثغور [1] ومسالك الأعداء، ومنهم طائفة تشتغل بالصـناعات المخرجة للأسـلحة المناسـبة لكل زمـــان بحســـبه، ومنهم طائفة تشـــتغل بالحراثة والزراعة والتجـارة والمكاسب المتنوعـة، والسـعي في الأســباب الاقتصــادية، ومنهم طائفة تشــتغل بــدرس السياسة وأمــور الحــرب والسـلم، وما ينبغي عمله مع الأعــداء مما يعــود إلى مصـلحة الإسـلام والمسـلمين، وترجيح أعلى المصالح على أدناها، ودفع أعلى المضــار بـــالنزول إلى أدناهـــا، والموازنة بين الأمـــور، ومعرفة حقيقة المصالح والمضار ومراتبها.

وبالجملـــة، يســـعون كلهم لتحقيق مصـــالح دينهم ودنيــاهم، متســاعدين متســاندين، يــرون الغاية واحــدة، وإن تبــاينت الطــرق، والمقصــود واحــدا، وإن تعــددت الوسائل إليه.

فما أنفع العمل بهــذا الحــديث العظيم الــذي أرشد فيه هذا النبي الكريم أمته إلى أن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضـــا، وكالجسد الواحد إذا اشـــتكى منه عضو تــداعى له ســائر الجسد بــالحمى والســهر. ولهــذا حث الشــارع على كل ما يقــوي هــذا الأمــر، وما يــوجب المحبة بين المؤمنين، وما به يتم التعاون على المنافع، ونهى عن التفـــرق والتعـــادي، وتشـــتيت الكلمة في

---

1 (?) حدود العداء لتمنع هجومهم على بلاد الإسلام .

نصـوص كثـيرة حـتى عد هـذا أصلا عظيما من أصـول الـــدين تجب مراعاته واعتبـــاره وترجيحه على غـــيره والسعي إليه بكل ممكن.

فنسأل الله تعـالى أن يحقق للمسـلمين هـذا الأصل ويؤلف بين قلـــوبهم، ويجعلهم يـــدا واحـــدة على من ناوأهم وعاداهم، إنه كريم.

حديث اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء

الحديث الرابع عشر

عن أبي موسى أن النبي كان إذا أتاه سـائل أو طالب حاجة، قال: اشفعوا تـؤجروا، ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء [1] متفق عليه.

وهذا الحديث متضـمن لأصل كبـير، وفائـدة عظيمـة، وهو أنه ينبغي للعبد أن يسعى في أمـور الخـير سـواء أثمـرت مقاصـدها ونتائجها أو حصل بعضـها، أو لم يتم منها شـيء. وذلك كالشـفاعة لأصـحاب الحاجـات عند الملوك والكبراء، ومن تعلقت حاجاتهم بهم، فإن كثـيرا من النـاس يمتنع من السـعي فيها إذا لم يعلم قبـول شـفاعته، فيفـوت على نفسه خـيرا كثـيرا من اللـه، ومعروفا عند أخيه المسلم. فلهذا أمر النـبي أصـحابه أن يسـاعدوا أصـحاب الحاجة بالشـفاعة لهم عنـده

1 (?) البخاري الزكاة (1365) ، مسلم البر والصلـة والآداب (2627) ، أبو داود الأدب (5131) ، أحمد (4/400) .

ليتعجلوا الأجر عند الله، لقوله: ﴿اشفعوا تؤجروا﴾ [1] فإن الشفاعة الحسنة محبوبة لله، ومرضية له. قال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ [2]. [النساء: 85] ، ومع تعجله للأجر الحاضر فإنه أيضا يتعجل الإحسان وفعل المعروف مع أخيه، ويكون له بذلك عنده يد.

وأيضا، فلعل شفاعته تكون سببا لتحصيل مراده من المشفوع له أو لبعضه، كما هو الواقع. فالسعي في أمور الخير والمعروف التي يحتمل أن تحصل أو لا تحصل خير عاجل، وتعويد للنفوس على الإعانة على الخير، وتمهيد للقيام بالشفاعات التي يتحقق أو يظن قبولها.

وفيه من الفوائد: السعي في كل ما يزيل اليأس، فإن الطلب والسعي عنوان على الرجاء والطمع في حصول المراد، وضده بضده، وفي الحديث دليل على الترغيب في توجيه الناس إلى فعل الخير، وأن الشفاعة لا يجب على المشفوع عنده قبولها إلا أن يشفع في إيصال الحقوق الواجبة، فإن الحق الواجب يجب أداؤه وإيصاله إلى مستحقه، ولو لم يشفع فيه، ويتأكد ذلك مع الشفاعة.

---

1 (?) البخاري الزكاة (1365) ، مسلم البر والصلة والآداب (2627) ، أبو داود الأدب (5131) ، أحمد (4/400) .

2 (?) سورة النساء آية : 85 .

وفيه أيضا: رحمة النبي ﷺ في حصول الخير لأمته بكل طريق. وهذا فرد من آلاف مؤلفة تدل على كمال رحمته ورأفته ﷺ فإن جميع الخير والمنافع العامة والخاصة لم تنلها الأمة إلا على يده وبوساطته وتعليمه وإرشاده، كما أنه أرشدهم لدفع الشرور والأضرار العامة والخاصة بكل طريق. فلقد بلغ وأدى الأمانة، ونصح الأمة صلوات الله وسلامه عليه وبركته عليه وعلى آله وصحبه.

قوله: ﴿ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء﴾ [1]

قضاؤه تعالى نوعان: قضاء قدري، يشمل الخير والشر والطاعات والمعاصي، بل يشمل جميع ما كان وما يكون، وجميع الحوادث السابقة واللاحقة، وأخص منه القضاء القدري الديني الذي يختص بما يحبه الله ويرضاه، وهذا الذي يقضي على لسان نبيه من القسم الثاني؛ إذ هو ﷺ عبد رسول، قد وفى مقام العبودية، وكمل مراتب الرسالة، فكل أقواله وأفعاله وهديه وأخلاقه عبودية لله متعلقة بمحبوبات الله تعالى. ولم يكن في حقه ﷺ شيء مباح محض لا ثواب فيه ولا أجر، فضلا عما ليس بمأمور، وهذا شأن العبد الرسول الذي اختار ﷺ هذه المرتبة التي هي أعلى المراتب حين خير بين أن يكون رسولا ملكا، أو عبدا رسولا.

---

[1] (?) البخاري الأدب (5680) ، مسلم البر والصلة والآداب (2627) ، الترمذي العلم (2672) ، النسائي الزكاة (2556) ، أبو داود الأدب (5131) ، أحمد (4/413) .

حديث أنزلوا الناس منازلهم

الحديث الخامس عشر

عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي قال: أنزلوا الناس منازلهم [1] رواه أبو داود.

يا له من حــــــــديث حكيم، فيه الحث لأمته على مراعـاة الحكمـة. فـإن الحكمة وضع الأشـياء مواضـعها، وتنزيلها منازلها، والله تعالى حكيم في خلقه وتقــديره، وحكيم في شـــرعه وأمــــره ونهيه وقد أمر عبـــاده بالحكمة ومراعاتها في كل شــــيء، وأوامر النــــبي وإرشاداته كلها تدور على الحكمة.

فمنها: هذا الحديث الجـامع، إذ أمر أن نـنزل النـاس منــــــــازلهم. وذلك في جميع المعــــــــاملات، وجميع المخاطبات، والتعلم والتعليم.

فمن ذلك: أن الناس قسمان: قسم لهم حق خــاص، كالوالــدين والأولاد والأقــارب، والجــيران والأصــحاب والعلماء، والمحسنين بحسب إحسانهم العـام والخـاص. فهذا القسم تنزيلهم منازلهم: القيام بحقوقهم المعروفة شــرعا وعرفـا، من الـبر والصـلة والإحسـان والتوقـير والوفاء والمواساة، وجميع ما لهم من الحقوق، فهـؤلاء يميزون عن غيرهم بهذه الحقوق الخاصة.

وقسم ليس لهم مزية اختصـاص بحق خـاص، وإنما لهم حق الإســـلام وحق الإنســـانية، فهــــؤلاء حقهم

---

[1] (?) أبو داود الأدب (4842) .

المشترك: أن تمنع عنهم الأذى والضرر بقـول أو فعـل، وأن تحب للمسلمين ما تحب لنفسك من الخير وتكره لهم ما تكــره لها من الشــر، بل يجب منع الأذى عن جميع نــوع الإنســان وإيصــال ما تقــدر عليه لهم من الإحسان.

ومما يــــدخل في هــــذا: أن يعاشر الخلق بحسب منازلهم، فالكبير له التوقير والاحـترام، والصـغير يعامله بالرحمة والرقة المناســبة لحالــه، والنظــير يعامله بما يجب أن يعامله به، وللأم حق خاص بهـا، وللزوجة حق آخر، ويعامل من يدل عليه ويثق بـه، ويتوسع معـه، ما لا يعامل به من لا يثق به ولا يــدل عليــه. ويتكلم مع الملــوك وأربــاب الرئاســات بــالكلام اللين المناسب لمراتبهم، ولهذا قـال تعـالى لموسى وهـارون: ﴿ [illegible] ﴾ [1] [طـه: الآيتـان 43، 44] ، ويعامل العلمــــاء بــــالتوقير والإجلال والتعلم، والتواضع لهم، وإظهــار الافتقــار والحاجة إلى علمهم النــافع، وكــثرة الــدعاء لهم، خصوصا وقت تعليمهم وفتــواهم الخاصة والعامة.

ومن ذلــك: أمر الصــغار بــالخير، ونهيهم عن الشر بــالرفق والــترغيب، وبــذل ما يناسب من الــدنيا لتنشيطهم وتوجيههم إلى الخير، واجتناب العنف القولي

---

1 (?) سورة طه الآيتان :43 ، 44 .

والفعلي، ولهـذا قـال: ﴿مـروا أولادكم بالصـلاة لسـبع سنين، واضربوهم عليها لعشر﴾ [1] وكذلك سلك رسول الله ﷺ مع المؤلفة قلوبهم - من العطاء الدنيوي الكثـير - ما يحصل به التأليف، ويترتب عليه من المصالح، ولم يفعل ذلك مع من هو معروف بالإيمـان الصـادق تـنزيلا للناس منازلهم.

وكـذلك مخاطبة الزوجة والأولاد الصـغار بالخطـاب اللائق بهم الذي فيه بسطهم، وإدخال السرور عليهم.

وكذلك من تنزيل الناس منازلهم: أن تجعل الوظائف الدينية والدنيوية والممتزجة منهما للأكفـاء المتمـيزين، الذين يفضلون غيرهم في ولاية تلك الوظيفة، فمعلـوم أن ولاية الملك: أن الـواجب فيها خصوصا - وفي غيرها عموما - مشـــــاورة أهل الحل والعقد في تولية من يصـلح لها ممن جمع بين القـوة والشـجاعة والحلم، ومعرفة السياسة الداخلية والخارجيـة، ومن له القـوة الكافية لتنفيذ العدل، وإيصال الحقوق إلى أهلهـا، وردع الظلمة والمجرمين، وغير ذلك مما يدخل في الولاية.

وكـذلك ولاية القضـاء: يختـار لها الأعلم بالشـرع وبالواقع، الأفضل في دينه وعقله وصفاته الحميدة.

وكـــذلك ولاية الإمامة في المســـاجد في الجمعة والجماعة: يختار لها الأعلم بأحكام العبـادات الأتقى، ثم الأمثل فالأمثل - وكذلك ولاية قيادة الجيوش: يختـار لها

---

[1] (?) أبو داود الصلاة (495) ، أحمد (2/187) .

أهل القوة والشجاعة والرأي والنصح، والمعرفة لفنـون الحـرب وأدواتهـا، وما يتبع ذلك مما تتوقف عليه هـذه الوظيفة المهمة التي هي من أهم الوظائف وأخطرهـا، إلى غير ذلك من الولايات الكبـار والصـغار. فإنها داخلة في قوله تعـالى: [illegible] [1] . [النسـاء: 58]. وهـذه الولايـات من أعظم الأمانات. فيتعين أن تـؤدى إلى أهلهـا، وأن يوظف فيها أهل الكفاءة بها، وكل وظيفة لها أكفاء مختصـون، وهو داخل في هذا الحديث الشريف.

وكذلك يـدخل في ذلك معاملة العصـاة والمجـرمين، فمن رتب الشـــارع على جرمه عقوبة من حد ونحـــوه تعين ما عينه الشـــارع، لأنه هو عين المصـــلحة العامة الشـاملة، ومن لم يعين له عقوبـة، عـزر بحسب حاله ومقامـــه، فمنهم من يكفيه التـــوبيخ والكلام المناسب لفعلته، ومنهم من لا يردعه إلا العقوبة البليغة.

وكـذلك في الصـدقة والهديـة، ليس عطية الطـواف الـــذي يـــدور على النـــاس فتكفيه التمـــرة والتمرتـــان واللقمة واللقمتان كعطية الفقير المتعفف الذي أصابته العيلة بعد الغنى. وفي الأثر (ارحموا عزيز قوم ذل).

وكـــذلك يمـــيز من له آثـــار وســـوابق وغنـــاء ونفع للمسلمين على من ليس كذلك.

---

[1] (?) سورة النساء آية : 58 .

فهـــذه الأمـــور وما أشـــبهها داخلة في هـــذا الكلام الجـــامع الـــذي تواطأ عليه الشـــرع والعقـــل. وما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن.

حديث من ضار ضار الله به ومن شاق شق

الحديث السادس عشر

عن أبي صـرمة [1] قـال: قـال رسـول الله من ضار ضار الله بـه. ومن شـاق شق [2] الله عليه رواه الترمذي وابن ماجه.

هذا الحديث دل على أصلين من أصول الشريعة:

أحـــدهما: أن الجـــزاء من جنس العمل في الخـــير والشـر، وهـذا من حكمة الله الـتي يحمد عليهـا، فكما أن من عمل ما يحبه الله أحبه اللــــــه، ومن عمل ما يبغضه أبغضه اللـــه، ومن يسر على مســـلم يسر الله عليه في الـدنيا والآخـرة، ومن فـرج عن مـؤمن كربة من كـرب الـدنيا فـرج الله عنه كربة من كـرب يـوم القيامـة، والله في حاجة العبد ما كـان العبد في حاجة أخيه، كذلك من ضار مسـلما ضـره اللـه، ومن مكر به مكر الله به، ومن شق عليه شق الله عليـه، إلى غـير ذلك من الأمثلة الداخلة في هذا الأصل.

---

1 (?) في الأصل " حرمة " ، والصحيح ما أثبتناه " الناشر " .

2 (?) في الأصل " شاق " ، والصحيح ما أثبتنـاه من روايـة الترمـذي " الناشر " .

الأصل الثاني: منع الضـرر والمضـارة، وأنه ﴿لا ضـرر ولا ضرار﴾ [3] وهذا يشمل أنواع الضرر كله.

والضـرر يرجع إلى أحد أمـرين: إما تفـويت مصـلحة، أو حصـول مضـرة بوجه من الوجـوه، فالضـرر غـير المسـتحق لا يحل إيصـاله وعمله مع النـاس، بل يجب على الإنسـان أن يمنع ضـرره وأذاه عنهم من جميع الوجوه.

فيـدخل في ذلـك: التـدليس والغش في المعـاملات وكتم العيـوب فيهـا، والمكر والخـداع والنجش، وتلقي الركبـان، وبيع المسـلم على بيع أخيـه، والشـراء على شـرائه. ومثله الإجـارات، وجميع المعـاملات، والخطبة على خطبة أخيه، وخطبة الوظـائف الـتي فيها أهل لها قائم بها. فكل هذا من المضارة المنهي عنها.

وكل معاملة من هذا النوع، فإن الله لا يبارك فيهـا، لأنه من ضـار مسـلما ضـاره اللـه، ومن ضـاره اللـه، ترحل عنه الخـير، وتوجه إليه الشر وذلك بما كسـبت يداه.

ويدخل في ذلـك: مضـارة الشـريك لشـريكه، والجـار لجـاره، بقـول أو فعل حـتى إنه لا يحل له أن يحـدث بملكه ما يضر بجاره، فضلا عن مباشرة الإضرار به.

ويدخل في ذلك: مضارة الغريم لغريمه، وسـعيه في المعـاملات الـتي تضر بغريمـه، حـتى إنه لا يحل له أن

---

3 (?) ابن ماجه الأحكام (2340) ، أحمد (5/327) .

يتصــدق ويــترك ما وجب عليه من الــدين إلا بــإذن غريمه، أو يرهن موجوداته أحد غرمائه دون الباقين، أو يقــف، أو يعتق ما يضر بغريمــه، أو ينفق أكــثر من اللازم بغير إذنه.

وكـذلك الضـرار في الوصـايا: كما قـال تعـالى: ﴿ [illegible] ﴾ [1] . [النســاء: 12] ، بأن يخص أحد ورثته بأكثر مما لـه، أو ينقص الوارث، أو يوصي لغير وارثه بقصد الإضرار بالورثة.

وكــذلك لا يحل إضــرار الــزوج بزوجته من وجــوه كثـيرة: إما أن يعضـلها ظلما لتفتـدي منـه، أو يراجعها لقصد الإضــرار، أو يميل إلى إحــدى زوجتيه ميلا يضر بالأخرى، ويجعلها كالمعلقة.

ومن ذلك: الحيف في الأحكام والشـهادات والقسـمة وغيرها على أحد الشخصين لنفع الآخر. فكل هذا داخل في المضارة، وفاعله مستحق للعقوبة، وأن يضــار الله به.

وأشد من ذلــك: الوقيعة في النـــاس عند الـــولاة والأمــراء، ليغــريهم بعقوبته أو أخذ مالــه، أو منعه من حق هو لـــه، فــإن من عمل هــذا العمل فإنه بـــاغ، فليتوقع العقوبة العاجلة والآجلة.

---

[1] (?) سورة النساء آية : 12 .

ومن هـذا: نهى النـبي أن يـورد ممـرض على مصح [1] لما في ذلك من الضرر.

وكـذلك نهى الجـذمى ونحـوهم عن مخالطة النـاس، وهـذا وغـيره داخل في قوله تعـالى: [2] [الأحـزاب: 58]. ونهى عن ترويع المسلم، ولو على وجه المزح.

ومن هذا السخرية بالخلق، والاستهزاء بهم، والوقيعة في أعراضـهم، والتحـريش بينهم. فكله داخل في المضارة والمشاقة الموجب للعقوبة.

وكما يـدل الحـديث بمنطوقـه: أن من ضـار وشـاق ضره الله وشق عليه، فـإن مفهومه يـدل على: أن من أزال الضرر والمشقة عن المسـلم فـإن الله يجلب له الخير، ويدفع عنه الضرر والمشاق، جزاء وفاقـا، سـواء كان متعلقا بنفسه أو بغيره.

---

1 (?) مسلم السلام (2221) ، ابن ماجه الطب (3541) ، أحمد (2/434) .

2 (?) سورة الأحزاب آية : 58 .

حديث اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها

الحديث السابع عشر

عن أبي ذر الغفاري ؓ قال: قال رسول الله ﷺ «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» [3] رواه الإمام أحمد والترمذي.

هذا حديث عظيم جمع فيه رسول الله ﷺ بين حق الله وحقوق العباد، فحق الله على عباده: أن يتقوه حق تقاته، فيتقوا سخطه وعذابه باجتناب المنهيات وأداء الواجبات.

وهذه الوصية هي وصية الله للأولين والآخرين، ووصية كل رسول لقومه أن يقول: (اعبدوا الله واتقوه).

وقد ذكر الله خصال التقوى في قوله تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ [2] . [البقرة:

[3] (?) الترمذي البر والصلة (1987) ، أحمد (5/153) ، الدارمي الرقاق (2791) .

[2] (?) سورة البقرة آية : 177 .

177]. وفي قولـــه: [illegible] (1) .

[آل عمران: 133]. ثم ذكر خصال التقوى فقال: [illegible] (2) [آل عمران: 134] .

فوصف المتقين بالإيمـان بأصـوله وعقائـده وأعماله الظـاهرة والباطنة وبـأداء العبـادات البدنية والعبـادات الماليـة، والصـبر في البأسـاء والضـراء وحين البـأس، وبالعفو عن النـاس، واحتمـال أذاهم، والإحسـان إليهم، وبمبـــادرتهم إذا فعلـــوا فاحشة أو ظلمـــوا أنفســـهم بالاســتغفار والتوبـــة، فــأمر ووصى بملازمة التقــوى حيثما كــان العبد في كل وقت وكل مكـان، وكل حالة من أحواله، لأنه مضطر إلى التقوى غاية الاضـطرار، لا يستغني عنها في كل حالة من أحواله.

ثم لما كــان العبد لا بد أن يحصل منه تقصــير في حقوق التقوى وواجباتها أمر بما يــدفع ذلك ويمحــوه، وهو أن يتبع الحسـنة السـيئة " والحسـنة " اسم جـامع لكل ما يقـــرب إلى الله تعـــالى: وأعظم الحســـنات الدافعة للسيئات التوبة النصوح والاسـتغفار والإنابة إلى الله بــذكره وحبــه، وخوفه ورجائــه، والطمع فيه وفي

1 (?) سورة آل عمران آية : 133 .
2 (?) سورة آل عمران آية : 134 .

فضــله كل وقت. ومن ذلك الكفــارات المالية والبدنية التي حددها الشارع.

ومن الحســنات الــتي تــدفع الســيئات: العفو عن النـاس، والإحسـان إلى الخلق من الآدمـيين وغـيرهم، وتفــريج الكربــات، والتيســير على المعســرين، وإزالة الضرر والمشقة عن جميع العـالمين. قـال تعـالى: ﴿ ﴾ [1] . [هود: 114] .

وقـال ﷺ ﴿الصلـوات الخمس، والجمعة إلى الجمعـة، ورمضــان إلى رمضــان مكفــرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر﴾ [2] وكم في النصوص من ترتيب المغفرة على كثير من الطاعات.

ومما يكفر الله به الخطايا: المصائب، فإنه لا يصـيب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله عنه بها خطاياه. وهي إما فـوات محبـوب، أو حصول مكروه، بدني، أو قلبي، أو مــالي، داخلي أو خارجي، لكن المصائب بغير فعل العبد. فلهذا أمره بما هو من فعله، وهو أن يتبع الحسنة السيئة.

ثم لما ذكر حق الله - وهو الوصية بــالتقوى الجامعة لعقائد الدين وأعماله الباطنة والظاهرة - قال: ﴿وخـالق الناس بخلق حسن﴾ [3] .

---

1 (?) سورة هود آية : 114 .

2 (?) مسلم الطهارة (233) ، الترمذي الصلاة (214) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (1086) ، أحمد (2/400) .

3 (?) الترمذي البر والصلة (1987) ، أحمد (5/177) ، الدارمي الرقاق (2791) .

وأول الخلق الحسن: أن تكف عنهم أذاك من كل وجه، وتعفو عن مساوئهم وأذيتهم لك، ثم تعاملهم بالإحسان القولي والإحسان الفعلي وأخص ما يكون بالخلق الحسن: سعة الحلم على الناس، والصبر عليهم، وعدم الضجر منهم، وبشاشة الوجه، ولطف الكلام والقول الجميل المؤنس للجليس، المدخل عليه السرور، المزيل لوحشته ومشقة حشمته. وقد يحسن المزح أحيانا إذا كان فيه مصلحة، لكن لا ينبغي الإكثار منه، وإنما المزح في الكلام كالملح في الطعام، إن عدم أو زاد على الحد فهو مذموم.

ومن الخلق الحسن: أن تعامل كل أحد بما يليق به، ويناسب حاله من صغير وكبير، وعاقل وأحمق، وعالم وجاهل.

فمن اتقى الله، وحقق تقواه، وخالق الناس على اختلاف طبقاتهم بالخلق الحسن، فقد حاز الخير كله؛ لأنه قام بحق الله وحقوق العباد. ولأنه كان من المحسنين في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله.

حديث الظلم ظلمات يوم القيامة

الحديث الثامن عشر

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ «الظلم ظلمات يوم القيامة» [1] متفق عليه.

هذا الحديث فيه التحذير من الظلم، والحث على ضده، وهو العدل. والشريعة كلها عدل، آمرة بالعدل، ناهية عن الظلم. قال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ [2] . [الأعراف: 29]، ﴿ [illegible] ﴾ [3] . [النحل: 90]. ﴿ [illegible] ﴾ [4] . [الأنعام: 82]

فإن الإيمان أصوله وفروعه، باطنه وظاهره - كله عدل، وضده ظلم. فأعدل العدل وأصله: الاعتراف وإخلاص التوحيد لله، والإيمان بصفاته وأسمائه الحسنى، وإخلاص الدين والعبادة له، وأعظم الظلم، وأشده الشرك بالله، كما قال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ [5] . [لقمان: 13] ، وذلك أن العدل وضع الشيء في موضعه، والقيام بالحقوق الواجبة، والظلم عكسه، فأعظم الحقوق وأوجبها: حق الله على عباده:

---

1 (?) البخاري المظالم والغصب (2315) ، مسلم البر والصلة والآداب (2579) ، الترمذي البر والصلة (2030) ، أحمد (2/106) .

2 (?) سورة الأعراف آية : 29 .

3 (?) سورة النحل آية : 90 .

4 (?) سورة الأنعام آية : 82 .

5 (?) سورة لقمان آية : 13 .

أن يعرفـوه ويعبـدوه، ولا يشـركوا به شـيئا، ثم القيـام بأصول الإيمان، وشرائع الإسلام من إقام الصلاة وإيتـاء الزكاة وصيام رمضان، وحج البيت الحرام، والجهاد في سـبيل الله قـولا وفعلا، والتواصي بـالحق، والتواصي بالصبر.

ومن الظلم: الإخلال بشـيء من ذلـك، كما أن من العدل: القيام بحقـوق النـبي من الإيمـان به ومحبتـه، وتقـديمها على محبة الخلق كلهم، وطاعته وتوقـيره وتبجيله، وتقديم أمره وقوله على أمر غيره وقوله.

ومن الظلم العظيم: أن يخل العبد بشيء من حقوق النبي الذي هو أولى بـالمؤمنين من أنفسـهم، وأرحم بهم وأرأف بهم من كل أحد من الخلق، وهو الـذي لم يصل إلى أحد خير إلا على يديه.

ومن العدل: بر الوالدين، وصلة الأرحام، وأداء حقوق الأصحاب والمعاملين. ومن الظلم: الإخلال بذلك.

ومن العدل: قيام كل من الزوجين بحق الآخـر، ومن أخل بذلك منهما فهو ظالم.

وظلم النـاس أنـواع كثـيرة، يجمعها قوله في خطبته في حجة الـوداع: إن دمـاءكم وأمـوالكم وأعراضـكم عليكم حـرام كحرمة يـومكم هـذا في شهركم هذا في بلدكم هذا [1] .

---

[1] (?) البخاري الحج (1652) ، أحمد (1/230) .

فالظلم كله بأنواعه ظلمات يوم القيامة، يعاقب أهلها على قدر ظلمهم، ويجازى المظلومون من حسنات الظالمين، فإن لم يكن لهم حسنات أو فنيت أخذ من سيئاتهم فطرحت على الظالمين.

والعدل كله نور يوم القيامة: ﴿ [illegible] ﴾ [1] [الحديد: 12].

والله تعالى حرم الظلم على نفسه، وجعله بين عباده محرما. فالله تعالى على صراط مستقيم في أقواله وأفعاله وجزائه، وهو العدل. وقد نصب لعباده الصراط المستقيم الذي يرجع إلى العدل، ومن عدل عنه عدل إلى الظلم والجور الموصل إلى الجحيم.

والظلم ثلاثة أنواع: نوع لا يغفره الله، وهو الشرك بالله: ﴿ [illegible] ﴾ [2] [النساء: 48].

ونوع لا يترك الله منه شيئا، وهو ظلم العباد بعضهم لبعض، فمن كمال عدله: أن يقص الخلق بعضهم من بعض بقدر مظالمهم.

ونوع تحت مشيئة الله: إن شاء عاقب عليه، وإن شاء عفا عن أهله، وهو الذنوب التي بين العباد وبين ربهم فيما دون الشرك.

---

1 (?) سورة الحديد آية : 12 .

2 (?) سورة النساء آية : 48 .

حديث انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم

الحديث التاسع عشر

عن أبي هريرة قال: قـال رسـول الله انظـروا إلى من هو أســـفل منكم، ولا تنظـــروا إلى من هو فـوقكم، فهو أجـدر أن لا تـزدروا نعمة الله عليكم[1] متفق عليه.

يا لها من وصـية نافعـة، وكلمة شـافية وافيـة، فهـذا يــدل على الحث على شــكر الله بــالاعتراف بنعمــه، والتحدث بها، والاســتعانة بها على طاعة المنعم، وفعل جميع الأسباب المعينة على الشكر. فإن الشكر لله هو رأس العبادة، وأصل الخير، وأوجبه على العباد، فإنه ما بالعباد من نعمة ظــاهرة ولا باطنــة، خاصة أو عامة إلا من اللــه. وهو الــذي يــأتي بــالخير والحســنات، ويــدفع الســوء والســيئات. فيســتحق أن يبــذل له العبــاد من الشــكر ما تصل إليه قــواهم، وعلى العبد أن يســعى بكل وسيلة توصله وتعينه على الشكر.

وقد أرشد إلى هــذا الــدواء العجيب، والســبب القــوي لشــكر نعم اللــه. وهو أن يلحظ العبد في كل وقت من هو دونه في العقل والنسب والمال وأصناف النعم. فمتى استدام هذا النظر اضطره إلى كثرة شكر

---

1 (?) مسلم الزهد والرقائق (2963) ، الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (2513) ، ابن ماجه الزهد (4142) ، أحمد (2/254) .

ربه والثناء عليه، فإنه لا يزال يرى خلقا كثيرا دونه بدرجات في هذه الأوصاف، ويتمنى كثير منهم أن يصل إلى قريب مما أوتيه من عافية ومال ورزق، وخلق وخلق، فيحمد الله على ذلك حمدا كثيرا، ويقول: الحمد لله الذي أنعم علي وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا.

ينظر إلى خلق كثير ممن سلبوا عقولهم، فيحمد ربه على كمال العقل، ويشاهد عالما كثيرا ليس لهم قوت مدخر، ولا مساكن يأوون إليها، وهو مطمئن في مسكنه، موسع عليه رزقه.

ويرى خلقا كثيرا قد ابتلوا بأنواع الأمراض، وأصناف الأسقام وهو معافى من ذلك، مسربل بالعافية. ويشاهد خلقا كثيرا قد ابتلوا ببلاء أفظع من ذلك، بانحراف الدين، والوقوع في قاذورات المعاصي، والله قد حفظه منها أو من كثير منها.

ويتأمل أناسا كثيرين قد استولى عليهم الهم، وملكهم الحزن والوساوس، وضيق الصدر، ثم ينظر إلى عافيته من هذا الداء، ومنة الله عليه براحة القلب، حتى ربما كان فقيرا يفوق بهذه النعمة - نعمة القناعة وراحة القلب - كثيرا من الأغنياء.

ثم من ابتلي بشيء من هذه الأمور يجد عالما كثيرا أعظم منه وأشد مصيبة، فيحمد الله على وجود

العافية وعلى تخفيف البلاء، فإنه ما من مكـــــروه إلا ويوجد مكروه أعظم منه.

فمن وفق للاهتداء بهذا الهدي الذي أرشد إليه النبي ﷺ لم يـزل شـكره في قـوة ونمـو، ولم تـزل نعم الله عليه تترى وتتوالى. ومن عكس القضـية فـارتفع نظـره وصــــار ينظر إلى من هو فوقه في العافية والمـــال والـرزق وتوابع ذلـك، فإنه لا بد أن يـزدري نعمة اللـه، ويفقد شـكره. ومـتى فقد الشـكر تـرحلت عنه النعم، وتسـابقت إليه النقم، وامتحن بـالغم الملازم، والحـزن الدائم، والتسخط لما هو فيه من الخير، وعـدم الرضى بالله ربا ومدبرا. وذلك ضرر في الدين والدنيا وخسران مبين.

واعلم أن من تفكر في كثرة نعم الله، وتفطن لآلاء [1] الله الظاهرة والباطنة، وأنه لا وسيلة إليها إلا محض فضل الله وإحســانه، وأن جنسا من نعم الله لا يقــدر العبد على إحصائه وتعـداده، فضلا عن جميع الأجنـاس، فضلا عن شــكرها، فإنه يضــطر إلى الاعــتراف التــام بـالنعم، وكـثرة الثنـاء على اللـه، ويسـتحي من ربه أن يســتعين بشـــيء من نعمه على ما لا يحبه ويرضـــاه، وأوجب له الحيـاء من ربه الـذي هو من أفضل شـعب الإيمان، فاستحيا من ربه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

---

1 (?) نعمه .

ولما كان على الشكر مدار الخير وعنوانه قال عنه لمعاذ بن جبل: إني أحبك، فلا تدعن أن تقول دبر كل صلاة مكتوبة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك [1] وكان يقول: اللهم اجعلني لك شكارا، لك ذكارا. اللهم اجعلني أعظم شكرك، وأكثر ذكرك، وأتبع نصحك، وأحفظ وصيتك [2] .

وقد اعترف أعظم الشاكرين بالعجز عن شكر نعم الله، فقال لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك [3] والله أعلم.

حديث لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ

الحديث العشرون

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله لا يقبل الله صلاة أحدكم - إذا أحدث - حتى يتوضأ [4] متفق عليه.

يدل الحديث بمنطوقه: أن من لم يتوضأ إذا أحدث فصلاته غير مقبولة: أي غير صحيحة، ولا مجزئة، وبمفهومه: أن من توضأ قبلت صلاته: أي مع بقية ما يجب ويشترط للصلاة؛ لأن الشارع يعلق كثيرا من

---

1 (?) النسائي السهو (1303) ، أبو داود الصلاة (1522) .

2 (?) الترمذي الدعوات (3967) ، أحمد (2/311) .

3 (?) مسلم الصلاة (486) ، الترمذي الدعوات (3493) ، النسائي التطبيق (1130) ، أبو داود الصلاة (879) ، ابن ماجه الدعاء (3841) ، أحمد (6/58) ، مالك النداء للصلاة (497) .

4 (?) البخاري الحيل (6554) ، مسلم الطهارة (225) ، الترمذي الطهارة (76) ، أبو داود الطهارة (60) ، أحمد (2/308) .

الأحكام على أمور معينة لا تكفي وحدها لترتب الحكم، حتى ينضم إليها بقية الشـروط، وحـتى تنتفي الموانـع. وهـذا الأصل الشـرعي متفق عليه بين أهل العلم؛ لأن العبادة التي تحتوي على أمور كثيرة - كالصلاة مثلا - لا يشترط أن تجمع أحكامها في كلام الشـارع في موضع واحد، بل يجمع جميع ما ورد فيها من الأحكـام، فيؤخذ مجمـوع أحكامها من نصـوص متعـددة. وهـذا من أكـبر الأسباب لوضع الفقهـاء علـوم الفقه والأحكـام، وترتيبها وتبويبها، وضم الأجناس والأنواع بعضـها لبعض للتقـريب على غـيرهم. فلهم في ذلك اليد البيضـاء فجـزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وهـذا الأصل ينبغي أن تعتـبره في كل موضـع. وهو أن الأحكـــام لا تتم إلا باجتمـــاع شـــروطها ولوازمهـــا، وانتفاء موانعها.

والحـدث يشـمل جميع نـواقض الوضـوء فيـدخل فيه الخارج من السبيلين، والنوم الناقض للوضوء، والخــارج الفــاحش من بقية البــدن إذا كــان نجســا، وأكل لحم الإبل، ولمس المرأة لشهوة، ولمس الفرج باليــد، وفي بعضها خلاف.

فكل من وجد منه شيء من هذه النواقض لم تصح صلاته، حتى يتوضأ الوضوء الشـرعي، فيغسل الأعضـاء الـتي نص الله عليها في سـورة المائـدة، مع الـترتيب والمــوالاة، أو يتطهر بــالتراب بــدل المــاء عند تعــذر

اســتعمال المــاء: إما لعدمــه، وإما لخوفه باســتعماله الضرر.

وفي هــذا دليل على أنه لو صــلى ناســيا أو جــاهلا حدثه فعليه الإعـادة لعمـوم الحـديث، وهو متفق عليـه. فهو وإن كـان مثابا على فعله صـورة الصلاة وما فيها من العبــادات، لكن عليه الإعــادة لإبــراء ذمتــه. وهــذا بخلاف من تطهر ونسي ما على بدنه أو ثوبه من النجاســـة، فإنه لا إعـــادة عليه على الصــــحيح؛ لأن الطهـارة من بـاب فعل الأمـور الـتي لا تـبرأ الذمة إلا بفعلهــا. وأما اجتنــاب النجاسة فإنه من بــاب اجتنــاب المحظـور الـذي إذا فعل والإنسـان معـذور، فلا إعـادة عليه.

حديث عشر من الفطرة قص الشارب وإعفاء اللحية...

الحديث الحادي والعشرون

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله عشر من الفطــرة: قص الشــارب، وإعفــاء اللحيــة، والســواك، واستنشــاق المــاء، وقص الأظــافر، وغسل الـبراجم، ونتف الإبـط، وحلق العانـة، وانتقـاص المـاء، يعني الاستنجاء [1] قـال الـراوي: ونسـيت العاشـرة إلا أن تكون المضمضة. رواه مسلم.

---

[1] (?) مسلم الطهارة (261) ، الترمذي الأدب (2757) ، النسائي الزينة (5040) ، أبو داود الطهارة (53) ، ابن ماجه الطهارة وسننها (293) ، أحمد (6/137) .

" الفطرة " هي الخلقة التي خلق الله عباده عليها، وجعلهم مفطورين عليها: على محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر ودفعه، وفطرهم حنفاء مستعدين، لقبول الخير والإخلاص لله، والتقرب إليه، وجعل تعالى شرائع الفطرة نوعين.

أحدهما: يطهر القلب والروح، وهو الإيمان بالله وتوابعه: من خوفه ورجائه، ومحبته والإنابة إليه. قال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ (1)

[الروم: الآيتان 30، 31]. فهذه تزكي النفس، وتطهر القلب وتنميه، وتذهب عنه الآفات الرذيلة، وتحليه بالأخلاق الجميلة، وهي كلها ترجع إلى أصول الإيمان وأعمال القلوب.

والنوع الثاني: ما يعود إلى تطهير الظاهر ونظافته، ودفع الأوساخ والأقذار عنه، وهي هذه العشرة، وهي من محاسن الدين الإسلامي؛ إذ هي كلها تنظيف للأعضاء، وتكميل لها، لتتم صحتها وتكون مستعدة لكل ما يراد (2) منها.

---

1 (?) سورة الروم آية : 30 ، 31 .
2 (?) في الأصل " يراه " والصحيح ما أثبتناه .

فأما المضمضة والاستنشـاق: فإنها مشـروعان في طهارة الحدث الأصغر والأكبر بالاتفاق، وهما فرضان فيهما من تطهير الفم والأنف وتنظيفهما، لأن الفم والأنف يتوارد عليهما كثير من الأوساخ والأبخرة ونحوها، وهو مضطر إلى ذلك وإزالته، وكذلك السواك يطهر الفم. فهو " مطهرة للفم مرضاة للرب " ولهذا يشرع كل وقت ويتأكد عند الوضوء والصلاة والانتباه من النوم، وتغير الفم، وصفرة الأسنان، ونحوها.

وأما قص الشارب أو حفه حتى تبدو الشفة، فلما في ذلك من النظافة، والتحرز مما يخرج من الأنف، فإن شعر الشارب إذا تدلى على الشفة باشر به ما يتناوله من مأكول ومشروب، مع تشويه الخلقة بوفرته، وإن استحسنه من لا يعبأ به. وهذا بخلاف اللحية، فإن الله جعلها وقارا للرجل وجمالا له. ولهذا يبقى جماله في حال كبره بوجود شعر اللحية. واعتبر ذلك بمن يعصي الرسول فيحلقها، كيف يبقى وجهه مشوها قد ذهبت محاسنه وخصوصا وقت الكبر، فيكون كالمرأة العجوز إذا وصلت إلى هذه السن ذهبت محاسنها، ولو كانت في صباها من أجمل النساء وهذا محسوس، ولكن العوائد والتقليد الأعمى يوجب استحسان القبيح واستقباح الحسن.

وأما قص الأظفار ونتف الإبط، وغسل البراجم، وهي مطاوي البدن التي تجتمع فيها الأوساخ - فلها

من التنظيف وإزالة المؤذيـــات ما لا يمكن جحـــده، وكذلك حلق العانة.

وأما الاستنجاء - وهو إزالة الخارج من السبيلين بماء أو حجر - فهو لازم وشرط من شروط الطهارة.

فعلمت أن هـذه الأشـياء كلها تكمل ظـاهر الإنسـان وتطهـــره وتنظفـــه، وتـــدفع عنه الأشـــياء الضـــارة والمستقبحة والنظافة من الإيمان.

والمقصـود: أن الفطـرة هي شـاملة لجميع الشـريعة باطنها وظاهرهـــا؛ لأنها تنقي البـــاطن من الأخلاق الرذيلة، وتحليه بالأخلاق الجميلة الـتي ترجع إلى عقائد الإيمـــان والتوحيـــد، والإخلاص لله والإنابة إليه وتنفي الظــاهر من الأنجــاس والأوســاخ وأســبابها، وتطهــره الطهــارة الحســية والطهــارة المعنويــة، ولهــذا قــال [illegible] «الطهور شطر الإيمـان» [1] وقـال تعـالى: ﴿[illegible]﴾ [2] [البقرة: 222] .

فالشريعة كلها طهـارة وزكـاء وتنمية وتكميـل، وحث على معالي الأمور، ونهي عن سفسافها، والله أعلم.

---

1 (?) مسلم الطهارة (223) ، الترمذي الـدعوات (3517) ، ابن ماجـه الطهارة وسننها (280) ، أحمد (5/342) ، الدارمي الطهارة (653) .

2 (?) سورة البقرة آية : 222 .

حديث الماء طهور لا ينجسه شيء

الحديث الثاني والعشرون

عن أبي سعيد الخدري، ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ ﴿الماء طهور لا ينجسه شيء﴾ [1]. رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي.

هذا الحديث الصحيح يدل على أصل جامع، وهو أن الماء - أي جميع المياه النابعة من الأرض طاهرة، والنازلة من السماء الباقية على خلقتها، أو المتغيرة بمقرها أو ممرها، أو بما يلقى فيها من الطاهرات ولو تغيرا كثيرا - طاهرة تستعمل في الطهارة وغيرها. ولا يستثنى من هذا الكلام الجامع إلا الماء المتغير لونه أو طعمه أو ريحه بالنجاسة، كما في بعض ألفاظ هذا الحديث.

وقد اتفق العلماء على نجاسة الماء المتغير بالنجاسة، واستدل عليه الإمام أحمد وغيره بقوله تعالى: ﴿[illegible]﴾ [2] إلى آخر الآية [المائدة: 3]. يعني: ومتى ظهرت أوصاف هذه الأشياء المحرمة في الماء صار نجسا خبيثا.

وهذا الحديث وغيره يدل على أن الماء المتغير بالطاهرات طهور، وعلى أن ما خلت به المرأة لا يمنع

---

1 (?) الترمذي الطهارة (66) ، أبو داود الطهارة (66) .

2 (?) سورة المائدة آية : 3 .

منه مطلقـا، وعلى طهورية ما انغمست فيه يد القـائم من نوم الليل، وإنما ينهى القائم من النوم عن غمسها حـتى يغسـلها ثلاثـا. وأما المنع من المـاء، فلا يـدل الحديث عليه.

والمقصـود: أن هـذا الحـديث يـدل على أن المـاء قسـمان: نجس، وهو ما تغـير أحد أوصـافه بالنجاسـة، قليلا كـان أو كثـيرا. وطهـور، وهو ما ليس كـذلك، وأن إثبات نـوع ثـالث - لا طهـور ولا نجس، بل طـاهر غـير مطهـــر، ليس عليه دليل شـــرعي، فيبقى على أصل الطهورية.

ويؤيد هـــذا العمـــوم قوله تعـــالى: ﴿ [illegible] ﴾ [1] [المائدة: 6] ، وهذا عام في كل ماء، لأنه نكرة في سياق النفي، فيشـمل كل مـاء خرج منه الماء النجس للإجماع عليه.

ودل هـــذا الحـــديث أيضـــا: أن الأصل في الميـــاه الطهـــارة.وكـــذلك في غيرهـــا، فمـــتى حصل الشك في شـــيء منهـــا: هل وجد فيه ســـبب التنجيس أم لا ؟ فالأصل الطهارة.

---

[1] (?) سورة المائدة آية : 6 .

حديث إنها ليست بنجس إنها من الطوافين عليكم والطوافات

الحديث الثالث والعشرون

عن أبي قتادة قال: قال رسول الله في الهـرة: إنها ليست بنجس، إنها من الطـــــــــوافين عليكم والطوافات [1] رواه مالك وأحمد وأهل السنن الأربع.

هذا الحديث محتو على أصلين:

أحدهما: أن المشقة تجلب التيسير، وذلك أصل كبـير من أصول الشريعة، من جملته: أن هـذه الأشـياء الـتي يشق التحــرز منها طــاهرة، لا يجب غسل ما باشــرت بفيها أو يدها أو رجلها، لأنه علل ذلك بقولـه: إنها من الطـوافين عليكم والطوافـات [2] كما أبـاح الاسـتجمار في محل الخـــارج من الســـبيلين، ومسح ما أصـــابته النجاسة من النعلين والخفين، وأســـفل الثـــوب، وعفا عن يســير طين الشــوارع النجس، وأبيح الـدم البـاقي في اللحم والعروق بعد الدم المسفوح، وأبيح ما أصابه فم الكلب من الصـيد، وما أشــبه ذلك مما يجمعه علة واحدة، وهي المشقة.

1 (?) الترمـذي الطهـارة (92) ، النسـائي الطهـارة (68) ، أبـو داود الطهارة (75) ، ابن ماجه الطهـارة وسـننها (367) ، أحمـد (5/303) ، مالك الطهارة (44) ، الدارمي الطهارة (736) .

2 (?) الترمـذي الطهـارة (92) ، النسـائي الطهـارة (68) ، أبـو داود الطهارة (75) ، ابن ماجه الطهـارة وسـننها (367) ، أحمـد (5/303) ، مالك الطهارة (44) ، الدارمي الطهارة (736) .

الثـــاني: أن الهـــرة وما دونها في الخلقة كالفـــأرة ونحوها طـــاهرة في الحيـــاة لا ينجس ما باشـــرته من طعـام وشـراب وثيـاب وغيرهـا، ولـذلك قـال أصـحابنا: الحيوانات أقسام خمسة: من حيث الطهارة، النجاسة.

أولهـــا: نجس حيا وميتا في ذاته وأجزائه وفضـــلاته، وذلك كالكلاب والسباع كلها، والخنزير ونحوها.

الثاني: ما كان طاهرا في الحياة نجسا بعد الممـات، وذلك كالهرة وما دونها في الخلقة، ولا تحله الذكاة ولا غيرها.

الثـالث: ما كـان طـاهرا في الحيـاة وبعد الممـات، ولكنه لا يحل أكلـه، وذلك كالحشـرات الـتي لا دم لها سائل.

الرابع: ما كان طاهرا في الحياة وبعد الـذكاة، وذلك كالحيوانات المباح أكلها، كبهيمة الأنعام ونحوها.

الخامس: ما كـان طـاهرا في الحيـاة وبعد الممـات، ذُكِّيَ أو لم يذك وهو حلال، وذلك كحيوانات البحر كلها والجراد.

واســـتدل كثـــير من أهل العلم بقوله إنها من الطـــوافين عليكم والطوافـــات[1] بطهـــارة الصـــبيان، وطهارة أفواههم، ولو بعد ما أصابتها النجاسـة، وكـذلك

1 (?) الترمـذي الطهـارة (92) ، النسـائي الطهـارة (68) ، أبـو داود الطهارة (75) ، ابن ماجه الطهـارة وسـننها (367) ، أحمـد (5/303) ، مالك الطهارة (44) ، الدارمي الطهارة (736) .

طهارة ريق الحمار والبغل وعرقه وشعره. وأين مشقة الهر من مشقة الحمار والبغل ؟

ويدل عليه: أنه كان يركبها هو وأصحابه، ولم يكونوا يتوقون منها ما ذكرنا، وهذا هو الصواب.

وأما قوله في لحوم الحمر يوم خيبر: إنها رجس [1] أي: لحمها رجس نجس حرام أكله، وأما ريقها وعرقها وشعرها: فلم ينه عنه، ولم يتوقه .

وأما الكلاب: فإنه أمر بغسل ما ولغت فيه سبع مرات إحداهن بالتراب.

حديث الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن...

الحديث الرابع والعشرون

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر [2] رواه مسلم.

هذا الحديث يدل على عظيم فضل الله وكرمه بتفضيله هذه العبادات الثلاث العظيمة، وأن لها عند الله المنزلة العالية، وثمراتها لا تعد ولا تحصى.

---

1 (?) البخاري المغازي (3962) ، النسائي الصيد والذبائح (4340) ، أحمد (3/115) .

2 (?) مسلم الطهارة (233) ، الترمذي الصلاة (214) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (1086) ، أحمد (2/400) .

فمن ثمراتها: أن الله جعلها مكملة لدين العبد وإسلامه، وأنها منمية للإيمان، مسقية لشجرته. فإن الله غرس شجرة الإيمان في قلوب المؤمنين بحسب إيمانهم، وقدر من ألطافه وفضله من الواجبات والسنن ما يسقي هذه الشجرة وينميها، ويدفع عنها الآفات حتى تكمل وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وجعلها تنفي عنها الآفات.

فالذنوب ضررها عظيم، وتنقيصها للإيمان معلوم.

فهذه الفرائض الثلاث الصلاة والجمعة والصوم مكفرات للذنوب إذا تجنب العبد كبائر الذنوب غفر الله بها الصغائر والخطيئات، وهي من أعظم ما يدخل في قوله تعالى: [illegible] [1] [هود: 114]. كما أن الله جعل من لطفه تجنب الكبائر سببا لتكفير الصغائر، قال تعالى: [illegible] [2] [النساء: 31]

أما الكبائر، فلا بد لها من توبة.

وعلم من هذا الحديث: أن كل نص جاء فيه تكفير بعض الأعمال الصالحة للسيئات، فإنما المراد به الصغائر؛ لأن هذه العبادات الكبار إذا كانت لا تكفر بها الكبائر فكيف بما دونها ؟

---

1 (?) سورة هود آية : 114 .

2 (?) سورة النساء آية : 31 .

والحديث صريح في أن الذنوب قسمان: كبائر، وصغائر.

وقد كثر كلام الناس في الفرق بين الصغائر والكبائر، وأحسن ما قيل: إن الكبيرة ما رتب عليه حد في الدنيا، أو توعد عليه بالآخرة أو لعن صاحبه، أو رتب عليه غضب ونحوه، والصغائر ما عدا ذلك.

أو يقال: الكبائر: ما كان تحريمه تحريم المقاصد، والصغائر: ما حرم تحريم الوسائل، فالوسائل: كالنظرة المحرمة مع الخلوة بالأجنبية، والكبيرة: نفس الزنا، وكربا الفضل مع ربا النسيئة، ونحو ذلك.. والله أعلم.

حديث صلوا كما رأيتموني أصلي

الحديث الخامس والعشرون

عن مالك بن الحويرث قال: قال رسول الله صلوا كما رأيتموني أصلي، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، وليؤمكم أكبركم [1] متفق عليه.

هذا الحديث احتوى على ثلاث جمل، أولها أعظمها:

الجملة الأولى: قوله: إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم [2] فيه مشروعية الأذان ووجوبه للأمر به، وكونه بعد دخول الوقت. ويستثنى من ذلك صلاة الفجر فإنه قال: إن بلالا يؤذن بليل، فكلوا واشربوا

[1] (?) البخاري الأذان (605) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (674) ، النسائي الأذان (635) ، الدارمي الصلاة (1253) .

[2] (?) البخاري الأذان (602) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (674) ، النسائي الأذان (635) ، أحمد (5/53) ، الدارمي الصلاة (1253) .

حتى يؤذن ابن أم مكتوم فإنه لا ينادي حتى يقال له: أصبحت، أصبحت [1] وإن الأذان فرض كفاية، لا فرض عين، لأن الأمر من الشارع إن خوطب به كل شخص مكلف وطلب حصوله منه، فهو فرض عين. وإن طلب حصوله فقط، بقطع النظر عن الأعيان، فهو فرض كفاية. وهنا قال: فليؤذن لكم أحدكم [2] وألفاظ الأذان معروفة.

وينبغي أن يكون المؤذن: صيتا أمينا، عالما بالوقت، متحريا له؛ لأنه أعظم لحصول المقصود، ويكفي من يحصل به الإعلام غالبا.

والحديث يدل على وجوب الأذان في الحضر والسفر، والإقامة من تمام الأذان، لأن الأذان: الإعلام بدخول الوقت للصلاة، والإقامة: الإعلام بالقيام إليها.

وقد وردت النصوص الكثيرة بفضله، وكثرة ثوابه، واستحباب إجابة المؤذن، وأن يقول المجيب مثل ما يقول المؤذن إلا إذا قال: " حي على الصلاة، حي على الفلاح " فيقول كلمة الاستعانة بالله على ما دعا إليه من الصلاة والفلاح الذي هو الخير كله: " لا حول ولا قوة إلا بالله " ثم يصلي على النبي ويقول: " اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا

[1] (?) البخاري الأذان (592) ، مسلم الصيام (1092) ، الترمذي الصلاة (203) ، النسائي الأذان (638) ، أحمد (2/73) ، مالك النداء للصلاة (164) ، الدارمي الصلاة (1190) .

[2] (?) البخاري الأذان (602) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (674) ، النسائي الأذان (635) ، أحمد (5/53) ، الدارمي الصلاة (1253) .

الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته " ثم يدعو لنفسه؛ لأنه من مواطن الإجابة التي ينبغي للداعي قصدها.

الجملة الثانية: ولیؤمكم أكبركم [1] فيه: وجوب صلاة الجماعة وأن أقلها إمام ومأموم، وأن الأولى بالإمامة أقومهم بمقصود الإمامة، كما ثبت في الصحيح: يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء، فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة أو إسلاما [2] فإذا كانوا متقاربين - كما في هذا الحديث - كان الأولى منهما أكبرهما؛ فإن تقديم الأكبر مشروع في كل أمر طلب فيه الترتيب، إذا لم يكن للصغير مزيد فضل، لقوله كبر كبر [3] .

وإذا ترتبت الصلاة بإمام ومأموم، فإنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر: كبر من وراءه، وإذا ركع، وسجد، ورفع: تبعه من بعده وينهى عن موافقته في أفعال الصلاة. وأما مسابقته الإمام، والتقدم عليه في ركوع أو سجود، أو خفض أو رفع، فإن ذلك حرام، مبطل

---

1 (?) البخاري الأذان (602) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (674) ، النسائي الأذان (635) ، أحمد (5/53) ، الدارمي الصلاة (1253) .

2 (?) مسلم المساجد ومواضع الصلاة (673) ، الترمذي الصلاة (235) ، النسائي الإمامة (780) ، أبو داود الصلاة (582) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (980) ، أحمد (4/121) .

3 (?) البخاري الجزية (3002) ، مسلم القسامة والمحاربين والقصاص والديات (1669) ، الترمذي الديات (1422) ، النسائي القسامة (4715) ، أبو داود الديات (4521) ، ابن ماجه الديات (2677) .

للصلاة، فيؤمر المأمومون بالاقتداء بإمامهم، وينهون عن الموافقة والمسابقة والتخلف الكثير، فإن كانوا اثنين فأكثر فالأفضل: أن يصفوا خلفه، ويجوز عن يمينه، أو عن جانبيه، والرجل الواحد يصف عن يمين الإمام، والمرأة خلف الرجل، أو الرجال، وتقف وحدها، إلا إذا كان معها نساء فيكن كالرجال في وجوب المصافة، وإن وقف الرجل الواحد خلف الإمام أو خلف الصف لغير عذر بطلت صلاته.

وعلى الإمام تحصيل مقصود الإمامة من الجهر بالتكبير في الانتقالات والتسميع، ومن الجهر في القراءة الجهرية، وعليه مراعاة المأمومين في التقدم والتأخر، والتخفيف مع الإتمام.

الجملة الثالثة: - وهي الأولى في هذا الحديث - قوله: صلوا كما رأيتموني أصلي [1] وهذا تعليم منه بالقول والفعل، كما فعل ذلك في الحج، حيث كان يقوم بأداء المناسك ويقول للناس: خذوا عني مناسككم [2] وهذه الجملة تأتي على جميع ما كان يفعله ويقوله ويأمر به في الصلاة، وذلك بأن يستكمل العبد جميع شروط الصلاة (كيفيتها)، ثم يقوم إلى صلاته ويستقبل القبلة، ناويا الصلاة المعينة بقلبه، ويقول " الله أكبر " ثم يستفتح، ويتعوذ بما ثبت

1 (?) البخاري الأذان (605) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (674) ، النسائي الأذان (635) ، الدارمي الصلاة (1253) .

2 (?) النسائي مناسك الحج (3062) .

عن النبي من أنواع الاستفتاحات والتعوذات، ويقرأ " بسم الله الرحمن الرحيم " ثم يقـرأ الفاتحـة، وسـورة طويلة في صلاة الفجـر، وقصـيرة في صـلاة المغـرب، وبين ذلك في بقية الصـــلوات، ثم يركع مكـــبرا رافعا يديه حـــــذو منكبيه في ركوعه وفي رفعه منه في كل ركعة، وعند تكبيرة الإحرام، وإذا قام من التشهد الأول على الصـحيح في الصـلاة الرباعية والثلاثيـة، ويقـول " سبحان ربي العظيم " مرة واجبـة، وأقل الكمـال: ثلاث مرات، فأكثر، وكذلك تسـبيح السـجود قـول: " سـبحان ربي الأعلى " ثم يرفع رأسه قائلا - إماما ومنفـردا -: " سـمع الله لمن حمـده، ربنا ولك الحمـد، حمـدا كثـيرا طيبا مباركا فيه " وكـذلك المـأموم، إلا أنه لا يقـول: " سـمع الله لمن حمـده " ثم يكـبر ويسـجد على سـبعة أعضـــاء: القـــدمين، والركبـــتين، والكفين، والجبهـــة، مع الأنف، ويمكنها من الأرض، ويجافيهـا، ولا يبسط ذراعيه انبساط الكلب، ثم يرفع مكبرا، ويجلس مفترشا جالسا على رجله اليسرى، ناصبا رجله اليمنى، موجها أصابعها إلى القبلـــة، والصـــلاة جلوســـها كله افـــتراش، إلا في التشـــهد الأخـــير، فإنه ينبغي له أن يتـــورك فيقعد على الأرض، ويخـــرج رجله اليســـرى عن يمينـــه، ويقـــول بين السجدتين: " رب اغفر لي وارحمـني واهـدني وارزقـني واجبرني " ثم يسـجد الثانية كـالأولى، وهكـذا يفعل في كل ركعـــــــة، وعليه أن يطمئن في كل رفع وخفض،

وركـوع وسـجود وقيـام وقعـود، ثم يتشـهد فيقـول: " التحيات للـه، والصـلوات والطيبـات، السـلام عليك أيها النـبي ورحمة الله وبركاتـه، السـلام علينا وعلى عبـاد الله الصـالحين، أشـهد أن لا إله إلا اللـه، وأشـهد أن محمدا عبـده ورسـوله " هـذا التشـهد الأول، ثم يقـوم، إن كـــانت رباعية أو ثلاثيـــة، ويصـــلي بقيتها بالفاتحة وحدها، وإن كان في التشهد الذي يليه السلام قــال: " اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صـــــليت على آل إبـراهيم، إنك حميد مجيـد، وبـارك على محمد وعلى آل محمد كما بـــاركت على آل إبـــراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عــذاب القــبر، ومن فتنة المحيا والممــات، ومن فتنة المسـيح الـدجال " ويـدعو بما أحب، ثم يسـلم، ويـذكر الله بما ورد، فجميع الــوارد عن النــبي في الصــلاة من فعله وقوله وتعليمه وإرشـــاده داخل في قولـــه: صـلوا كما رأيتمـوني أصـلي [1] وهو مـأمور بـه، أمر إيجاب أو استحباب بحسب الدلالة.

فما كـان من أجزائها لا يسـقط سـهوا ولا جهلا، ولا عمدا قيل له: ركن، كتكبيرة الإحرام، وقـراءة الفاتحـة، والتشهد الأخير، والسلام، وكالقيام، والركوع، والسجود، والاعتدال عنها.

---

[1] (?) البخاري الأذان (605) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (674) ، النسائي الأذان (635) ، الدارمي الصلاة (1253) .

وما كان يسقط سهوا ويجبره سجود السهو قيل له: واجب، كالتشهد الأول، والجلوس لـه، والتكبـيرات غـير تكبيرة الإحرام، وقول " سمع الله لمن حمده " للإمـام والمنفـــرد، وقـــول: " ربنا ولك الحمد " لكل مصـــل، وقول: " سـبحان ربي العظيم " مـرة في الركـوع، و " سبحان ربي الأعلى " مـرة في السـجود، وقـول: " رب اغفر لي " بين السجدتين.

وما ســوى ذلــك، فإنه من مكملاتها ومســتحباتها، وخصوصا روح الصـلاة ولبهـا، وهو حضـور القلب فيهـا، وتدبر ما يقوله من قراءة، وذكر ودعاء، وما يفعله من قيام وقعود، وركوع وسجود، والخضـوع للـه، والخشـوع فيها لله.

ومما يدخل في ذلـك: تجنب ما نهى عنه الرسـول في الصلاة، كالضحك، والكلام، وكـثرة الحركة المتتابعة لغير ضـرورة، فـإن الصـلاة لا تتم إلا بوجـود شـروطها وأركانها وواجباتهـا، وانتفــاء مبطلاتها الــتي ترجع إلى أمـرين: إما إخلال بلازم، أو فعل ممنـوع فيهـا، كـالكلام ونحوه.

حديث أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي...

الحديث السادس والعشرون

عن جــابر بن عبد الله قــال: قـال رسـول الله

أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبيــــــاء قبلي:

نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض كلها مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة [1] متفق عليه.

فضل نبينا محمد بفضائل كثيرة فاق بها جميع الأنبياء، فكل خصلة حميدة ترجع إلى العلوم النافعة، والمعارف الصحيحة، والعمل الصالح، فلنبينا منها أعلاها وأفضلها وأكملها، ولهذا لما ذكر الله أعيان الأنبياء الكرام قال لنبيه: [2] . [الأنعام: 90] ، وهداهم: هو ما كانوا عليه من الفضائل الظاهرة والباطنة.

وقد تم ما أمر به، وفاق جميع الخلق، ولذلك خص الله نبينا بخصائص لم يشاركه فيها أحد من الأنبياء، منها: هذه الخمس التي عادت على أمته بكل خير وبركة ونفع.

إحداها أنه نصر بالرعب مسيرة شهر، وهذا نصر رباني وجند من السماء يعين الله به رسوله وأمته المتبعين لهديه، فمتى كان عدوه عنه مسافة شهر فأقل، فإنه مرعوب منه، وإذا أراد الله نصر أحد ألقى

---

1 (?) البخاري الصلاة (427) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (521) ، النسائي الغسل والتيمم (432) ، أحمد (3/304) ، الدارمي الصلاة (1389) .

2 (?) سورة الأنعام آية : 90 .

في قلوب أعدائه الرعب، قال تعالى:

[1] [آل عمران: 151] ، وألقى في قلوب المؤمنين من القوة والثبات، والسكينة والطمأنينة ما هو أعظم أسباب النصر، فالله تعالى وعد نبينا وأمته بالنصر العظيم، وأن يعينهم بأسباب أرشدهم إليها، كالاجتماع والائتلاف، والصبر والاستعداد للأعداء بكل مستطاع من القوة إلى غير ذلك من الإرشادات الحكيمة، وساعدهم بهذا النصر، وقد فعل تبارك وتعالى، كما هو معروف من حال نبينا والمتبعين له من خلفائه الراشدين والملوك الصالحين، تم لهم من النصر والعز العظيم في أسرع وقت ما لم يتم لغيرهم.

الثانية: قوله: وجعلت لي الأرض كلها مسجدا وطهورا [2] وحقق ذلك بقوله: فأينما أدركت أحدا من أمتي الصلاة فعنده مسجده وطهوره [3] فجميع بقاع الأرض مسجد يصلى فيها من غير استثناء إلا ما نص الشارع على المنع منه، وقد ثبت النهي عن الصلاة في المقبرة والحمام، وأعطان الإبل، وكذلك الموضع

---

1 (?) سورة آل عمران آية : 151 .

2 (?) البخاري التيمم (328) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (521) ، النسائي الغسل والتيمم (432) ، أحمد (3/304) ، الدارمي الصلاة (1389) .

3 (?) أحمد (5/248) .

المغصوب والنجس لاشتراط الطهارة لبدن المصلي وثوبه وبقعته.

وكذلك من عدم الماء أو ضره استعماله فله العدول إلى التيمم بجميع ما تصاعد على وجه الأرض، سواء التراب الذي له غبار أو غيره، كما هو صريح هذا الحديث مع قوله تعالى: ﴿ ﴾ [1] . [المائدة: 6] ، فإن الصعيد: كل ما تصاعد على وجه الأرض من جميع أجزائها.

ويدل على أن التيمم على الوجه واليدين ينوب مناب طهارة الماء، ويفعل به من الصلاة والطواف ومس المصحف وغير ذلك ما يفعل بطهارة الماء. والشارع أناب التراب مناب الماء عند تعذر استعماله، فيدل ذلك على أنه إذا تطهر بالتراب ولم ينتقض وضوءه لم يبطل تيممه بخروج الوقت ولا بدخوله، وأنه إذا نوى التيمم للنفل استباح الفرض كطهارة الماء، وأن حكمه حكم الماء في كل الأحكام في حالة التعذر.

الثالثة: قوله: «وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي» [2] وذلك لكرامته على ربه، وكرامة أمته وفضلهم، وكمال إخلاصهم، فأحلها لهم، ولم ينقص من

---

1 (?) سورة المائدة آية : 6 .

2 (?) البخاري التيمم (328) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (521) ، أحمد (3/304) ، الدارمي الصلاة (1389) .

أجر جهادهم شيئا، وحصل بها لهذه الأمة من سعة الأرزاق، وكثرة الخيرات، والاستعانة على أمور الدين والدنيا شيء لا يمكن عده، ولهذا قال وجعل رزقي تحت ظل رمحي [1] أما من قبلنا من الأمم، فإن جهادهم قليل بالنسبة لهذه الأمة، وهم دون هذه الأمة بقوة الإيمان والإخلاص، فمن رحمته بهم أنه منعهم من الغنائم؛ لئلا يخل بإخلاصهم، والله أعلم.

الرابعة: قوله: وأعطيت الشفاعة [2] وهي الشفاعة العظمى التي يعتذر عنها كبار الرسل، وينتدب لها خاتمهم محمد فيشفعه الله في الخلق، ويحصل له المقام المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، وأهل السماوات والأرض، وتنال أمته من هذه الشفاعة الحظ الأوفر، والنصيب الأكمل، ويشفع لهم شفاعة خاصة، فيشفعه الله تعالى، وقد قال لكل نبي دعوة قد تعجلها، وقد خبأت دعوتي شفاعة لأمتي فهي نائلة - إن شاء الله - من مات لا يشرك بالله شيئا [3] ، وقال: أسعد الناس بشفاعتي: من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه [4] .

---

1 (?) أحمد (2/50) .

2 (?) البخاري التيمم (328) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (521) ، النسائي الغسل والتيمم (432) ، الدارمي الصلاة (1389) .

3 (?) البخاري الدعوات (5945) ، مسلم الإيمان (199) ، الترمذي الدعوات (3602) ، ابن ماجه الزهد (4307) ، أحمد (2/426) ، مالك النداء للصلاة (492) ، الدارمي الرقاق (2805) .

4 (?) البخاري العلم (99) ، أحمد (2/373) .

الخامسة: قوله: وكان النبي [1] أي: جنس الأنبياء يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة [2] وذلك لكمال شريعته وعمومها وسعتها، واشتمالها على الصلاح المطلق، وأنها صالحة لكل زمان ومكان، ولا يتم الصلاح إلا بها، وقد أسست للبشر أصولا عظيمة، متى اعتبروها صلحت لهم دنياهم كما صلح لهم دينهم.

حديث أوصاني خليلي بثلاث صيام ثلاثة أيام من كل شهر...

الحديث السابع والعشرون

عن أبي هريرة قال: أوصاني خليلي بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام [3] متفق عليه.

وصيته وخطابه لواحد من أمته خطاب للأمة كلها، ما لم يدل دليل على الخصوصية.

فهذه الوصايا الثلاث، من آكد نوافل الصلاة والصيام.

---

1 (?) البخاري التيمم (328) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (521) ، النسائي الغسل والتيمم (432) ، أحمد (3/304) ، الدارمي الصلاة (1389) .

2 (?) البخاري التيمم (328) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (521) ، النسائي الغسل والتيمم (432) ، أحمد (3/304) ، الدارمي الصلاة (1389) .

3 (?) البخاري الصوم (1880) ، مسلم صلاة المسافرين وقصرها (721) ، الترمذي الصوم (760) ، النسائي قيام الليل وتطوع النهار (1678) ، أبو داود الصلاة (1432) ، أحمد (2/505) ، الدارمي الصوم (1745) .

أما صيام ثلاثة أيام من كل شهر، فإنه يعـدل صـيام السـنة؛ لأن الحسـنة بعشر أمثالهـا، وصـيام الثلاث من كل شهر يعدل صيام الشهر كله. والشريعة مبناها على اليسر والسـهولة، وجـانب الفضل فيها غـالب، وهـذا العمل يسـير على من يسـره الله عليـه، لا يشق على الإنسان ولا يمنعه القيام بشيء من مهماتـه، ومع ذلك ففيه هـذا الفضل العظيم؛ لأن العمل كلما كـان أطـوع للـرب وأنفع للعبـد، كـان أفضل مما ليس كـذلك، وقد ثبت الحث على تخصيص ستة من شوال، وصـيام يـوم عرفـــة، والتاسع والعاشر من المحـــرم، والاثـــنين والخميس.

وأما صـــلاة الضـــحى: فإنه قد تكـــاثرت الأحـــاديث الصـحيحة في فضـلها، واختلف العلمـاء في اسـتحباب مـــداومتها، أو أن يغب بها الإنســـان، والصـــحيح: أنه تستحب المداومة عليها لهذا الحديث وغيره إلا لمن له عادة من صلاة الليل، فـإذا تركها أحيانا فلا بـأس، وقد أخبر رسول الله أنه يصبح على كل آدمي كل يـوم ثلاثمائة وسـتون صـدقة، فكل تسـبيحة صـدقة، وكل تحميـدة صـدقة، وكل تكبـيرة صـدقة، وأمر بـالمعروف صـــدقة، ونهي عن المنكر صـــدقة، ويجـــزئ من ذلك ركعتـان يركعهما من الضـحى [1] قـال العلمـاء: أقل

[1] (?) مسـلم صـلاة المسـافرين وقصـرها (720) ، أبـو داود الصـلاة (1286) .

صلاة الضحى ركعتان، وأكثرها ثمان، ووقتها (صلاة الضحى) من ارتفاع الشمس قيد رمح إلى قبيل الزوال.

وأما الوتر (حكمه وعدد ركعاته): فإنه سنة مؤكدة، حث عليه رسول الله وداوم عليه حضرا وسفرا.

وأقله ركعة واحدة، وإن شاء بثلاث، أو خمس، أو سبع، أو تسع، أو إحدى عشرة ركعة، وله أن يسردها بسلام واحد، وأن يسلم من كل ركعتين.

ووقت الوتر من صلاة العشاء الآخرة إلى طلوع الفجر والأفضل آخر الليل لمن طمع أن يقوم آخره، وإلا أوتر أوله كما في هذا الحديث.

حديث إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه...

الحديث الثامن والعشرون

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله إن الدين يسر. ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة [1] متفق عليه. وفي لفظ والقصد القصد تبلغوا [2] .

ما أعظم هذا الحديث، وأجمعه للخير والوصايا النافعة، والأصول الجامعة، فقد أسس في أوله هذا

1 (?) البخاري الإيمان (39) ، النسائي الإيمان وشرائعه (5034) .
2 (?) البخاري الرقاق (6098) ، أحمد (2/514) .

الأصل الكبـير، فقـال: إن الـدين يسر [3] أي ميسر مسـهل في عقائـده وأخلاقه وأعمالـه، وفي أفعاله وتروكـه، فـإن عقائـده الـتي ترجع إلى الإيمـان بالله وملائكته وكتبه ورسـله واليـوم الآخر والقـدر خـيره وشره: هي العقائد الصحيحة الـتي تطمئن لها القلـوب، وتوصل مقتـديها إلى أجل غاية وأفضل مطلـوب، وأخلاقه وأعماله أكمل الأخلاق، وأصـلح الأعمـال، بها صـلاح الـدين والـدنيا والآخـرة، وبفواتها يفـوت الصـلاح كله، وهي كلها ميسرة مسـهلة، كل مكلف يـرى نفسه قادرا عليها لا تشق عليه، ولا تكلفـه، عقائـده صـحيحة بسـيطة، تقبلها العقـول السـليمة، والفطر المسـتقيمة، وفرائضه أسهل شيء.

أما الصـلوات الخمس: فإنها تتكـرر كل يـوم وليلة خمس مـرات في أوقـات مناسـبة لهـا. وتمم اللطيف الخبـير سـهولتها بإيجـاب الجماعة والاجتمـاع لهـا، فـإن الاجتماع في العبادات من المنشطات والمسهلات لهـا، ورتب عليها من خير الدين وصلاح الإيمان، وثـواب الله العاجل والآجل ما يوجب للمؤمن أن يسـتحليها، ويحمد الله على فرضه لها على العباد، إذ لا غنى لهم عنها.

وأما الزكـاة: فإنها لا تجب على فقـير ليس عنـده نصـاب زكـوي. وإنما تجب على الأغنيـاء تتميما لـدينهم وإسـلامهم، وتنمية لأمـوالهم وأخلاقهم، ودفعا للآفـات

---

[3] (?) البخاري الإيمان (39) ، النسائي الإيمان وشرائعه (5034) .

عنهم وعن أمـــوالهم، وتطهـــيرا لهم من الســـيئات، ومواساة لمحاويجهم، وقياما لمصالحهم الكلية. وهي مع ذلك جزء يسير جدا بالنسـبة إلى ما أعطـاهم الله من المال والرزق.

وأما الصـيام: فـإن المفـروض شـهر واحد من كل عـــام، يجتمع فيه المســـلمون كلهم، فيـــتركون فيه شـهواتهم الأصـلية - من طعـام وشـراب ونكـاح - في النهـار، ويعوضـهم الله عن ذلك من فضـله وإحسـانه تتميم دينهم وإيمانهم، وزيـادة كمـالهم، وأجـره العظيم، وبـره العميم، وغـير ذلك مما رتبه على الصـيام من الخير الكثير، ويكون سببا لحصـول التقـوى الـتي ترجع إلى فعل الخيرات كلها، وترك المنكرات.

وأما الحج: فـإن الله لم يفرضه إلا على المسـتطيع، وفي العمر مـرة واحـدة، وفيه من المنـافع الكثـيرة الدينية والدنيوية ما لا يمكن تعداده وقد فصلنا مصـالح الحج ومنافعه في محل آخـر. قـال تعـالى: [illegible] (1) [الحج: 28] ، أي: دينية ودنيوية.

ثم بعد ذلك بقية شرائع الإسـلام الـتي هي في غاية السهولة الراجعة لأداء حق الله وحق عبـاده، فهي في نفسها ميسـرة. قـال تعـالى: [illegible] (2) [البقرة: 185] .

---

1 (?) سورة الحج آية : 28 .
2 (?) سورة البقرة آية : 185 .

ومع ذلك إذا عرض للعبد عارض مـرض أو سـفر أو غيرهما، رتب على ذلك من التخفيفات، وسـقوط بعض الواجبات، أو صفاتها وهيئتها ما هو معروف.

ثم إذا نظر العبد إلى الأعمـال الموظفة على العبـاد في اليـوم والليلة المتنوعة من فـرض ونفـل، وصـلاة وصـيام وصـدقة وغيرهـا، وأراد أن يقتـدي فيها بأكمل الخلق وإمامهم محمد رأى ذلك غير شـاق عليـه، ولا مـانع له عن مصـالح دنيـاه، بل يتمكن معه من أداء الحقـوق كلهـا: حق الله وحق النفس، وحق الأهل والأصـحاب، وحق كل من له حق على الإنسـان برفق وسـهولة، وأما من شـدد على نفسه فلم يكتف بما اكتفى به النـبي ولا بما علمه للأمة وأرشـدهم إليـه، بل غلا، وأوغل في العبـادات: فـإن الـدين يغلبـه، وآخر أمره العجز والانقطاع، ولهـذا قـال: ولن يشـاد الـدين أحد إلا غلبه [1] فمن قـاوم هـذا الـدين بشـدة وغلـو، ولم يقتصـد: غلبه الـدين، واستحسر ورجع القهقـرى. ولهـذا أمر بالقصـد، وحث عليـه. فقـال: والقصد القصد تبلغوا [2] .

ثم وصى بالتسـديد والمقاربـة، وتقوية النفـوس بالبشـارة بـالخير، وعـدم اليـأس. فالتسـديد: أن يقـول الإنسان القول السديد، ويعمل العمل السـديد، ويسـلك

1 (?) البخاري الإيمان (39) ، النسائي الإيمان وشرائعه (5034) .
2 (?) البخاري الرقاق (6098) ، أحمد (2/514) .

الطريق الرشـيد، وهو الإصـابة في أقواله وأفعاله من كل وجـه. فـإن لم يـدرك السـداد من كل وجه فليتق الله ما اسـتطاع، وليقـارب الغـرض، فمن لم يـدرك الصـواب كله فليكتف بالمقاربـة، ومن عجز عن العمل كله فليعمل منه ما يستطيعه.

ويؤخذ من هـذا أصل نـافع دل عليه أيضا قوله تعـالى: ﴿ ﴾[1] [التغـابن: 16] ، وقوله ﷺ: ﴿إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم﴾[2] والمسـائل المبنية على هـذا الأصل لا تنحصـر. وفي حديث آخر ﴿يسروا، ولا تعسـروا، وبشـروا ولا تنفـروا﴾[3].

ثم ختم الحـديث بوصـية خفيفة على النفـوس، وهي في غاية النفـع. فقـال: ﴿واسـتعينوا بالغـدوة والروحـة، وشـيء من الدلجة﴾[4] وهـذه الأوقـات الثلاثة كما أنها السـبب الوحيد لقطع المسـافات القريبة والبعيـدة في الأسـفار الحسـية، مع راحة المسـافر، وراحة راحلتـه، ووصـوله براحة وسـهولة، فهي السـبب الوحيد لقطع السفر الأخروي، وسـلوك الصـراط المستقيم، والسـير

---

1 (?) سورة التغابن آية : 16 .

2 (?) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة (6858) ، مسلم الحج (1337) ، النسائي مناسك الحج (2619) ، ابن ماجه المقدمة (2) ، أحمـد (2/5 08) .

3 (?) البخاري العلم (69) ، مسلم الجهاد والسير (1734) ، أحمد (3/2 09) .

4 (?) البخاري الإيمان (39) ، النسائي الإيمان وشرائعه (5034) ، أحمد (2/514) .

إلى الله سيرا جميلا. فمتى أخذ العامل نفسه، وشغلها بالخير والأعمال الصالحة المناسبة لوقته - أول نهاره وآخر نهاره وشيئا من ليله، وخصوصا آخر الليل - حصل له من الخير ومن الباقيات الصالحات أكمل حظ، وأوفر نصيب. ونال السعادة والفوز والفلاح، وتم له النجاح في راحة وطمأنينة، مع حصول مقاصده الدنيوية، وأغراضه النفسية. وهذا من أكبر الأدلة على رحمة الله بعباده بهذا الدين الذي هو مادة السعادة الأبدية، إذ نصبه لعباده، وأوضحه على ألسنة رسله، وجعله ميسرا سهلا، وأعان عليه من كل وجه، ولطف بالعاملين، وحفظهم من القواطع والعوائق.

فعلمت بهذا: أنه يؤخذ من هذا الحديث العظيم عدة قواعد.

القاعدة الأولى: التيسير الشامل للشريعة على وجه العموم.

القاعدة الثانية: المشقة تجلب التيسير وقت حصولها.

القاعدة الثالثة: إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم.

القاعدة الرابعة: تنشيط أهل الأعمال، وتبشيرهم بالخير والثواب المرتب على الأعمال.

القاعدة الخامسة: الوصية الجامعة في كيفية السير والسلوك إلى الله، التي تغني عن كل شيء ولا يغني عنها شيء.

فصلوات الله وسلامه على من أوتي جوامع الكلم ونوافعها.

حديث حق المسلم على المسلم ست

الحديث التاسع والعشرون

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله حق المسلم على المسلم ست: قيل: ما هن يا رسول الله ؟ قال إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه [1] رواه مسلم.

هذه الحقوق الستة من قام بها في حق المسلمين كان قيامه بغيرها أولى، وحصل له أداء هذه الواجبات والحقوق التي فيها الخير الكثير والأجر العظيم من الله.

الأولى: إذا لقيته فسلم عليه [2] فإن السلام سبب للمحبة التي توجب الإيمان الذي يوجب دخول الجنة، كما قال والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أدلكم على شيء

---

1 (?) مسلم السلام (2162) ، الترمذي الأدب (2737) ، النسائي الجنائز (1938) ، أحمد (2/412) .

2 (?) مسلم السلام (2162) ، الترمذي الأدب (2737) ، النسائي الجنائز (1938) ، أحمد (2/372) .

إذا فعلتموه تحاببتم؛ أفشوا السلام بينكم (1) والسلام من محاسن الإسلام، فإن كل واحد من المتلاقين يدعو للآخر بالسلامة من الشرور، وبالرحمة والبركة الجالبة لكل خير، ويتبع ذلك من البشاشة وألفاظ التحية المناسبة ما يوجب التآلف والمحبة، ويزيل الوحشة والتقاطع.

فالسلام حق للمسلم، وعلى المسلم عليه رد التحية بمثلها أو أحسن منها، وخير الناس من بدأهم بالسلام.

الثانية: إذا دعاك فأجبه (2) أي: دعاك لدعوة طعام أو شراب فاجبر خاطر أخيك الذي أدلى إليك وأكرمك بالدعوة، وأجبه لذلك إلا أن يكون لك عذر.

الثالثة قوله: وإذا استنصحك فانصح له (3) أي: إذا استشارك في عمل من الأعمال: هل يعمله أم لا ؟ فانصح له بما تحبه لنفسك، فإن كان العمل نافعا من كل وجه فحثه على فعله، وإن كان مضرا فحذره منه، وإن احتوى على نفع وضرر فاشرح له ذلك ووازن بين المصالح والمفاسد، وكذلك إذا شاورك على معاملة أحد من الناس أو تزويجه أو التزوج منه فابذل له محض نصيحتك، واعمل له من الرأي ما تعمله

---

1 (?) مسلم الإيمان (54) ، الترمذي الاستئذان والآداب (2688) ، أبو داود الأدب (5193) ، ابن ماجه المقدمة (68) ، أحمد (2/391) .

2 (?) مسلم السلام (2162) ، الترمذي الأدب (2737) ، النسائي الجنائز (1938) ، أحمد (2/412) .

3 (?) مسلم السلام (2162) ، الترمذي الأدب (2737) ، النسائي الجنائز (1938) ، أحمد (2/412) .

لنفسك، وإياك أن تغشه في شيء من ذلك، فمن غش المسلمين فليس منهم، وقد ترك واجب النصيحة.

وهذه النصيحة واجبة مطلقا، ولكنها تتأكد إذا استنصحك وطلب منك الرأي النافع، ولهذا قيده في هذه الحالة التي تتأكد، وقد تقدم شرح الحديث الدين النصيحة [1] بما يغني عن إعادة الكلام.

الرابعة قوله: وإذا عطس فحمد الله فشمته [2] وذلك أن العطاس نعمة من الله، لخروج هذه الريح المحتقنة في أجزاء بدن الإنسان، يسر الله لها منفذا تخرج منه فيستريح العاطس، فشرع له أن يحمد الله على هذه النعمة، وشرع لأخيه أن يقول له: " يرحمك الله وأمره أن يجيبه بقوله: " يهديكم الله ويصلح بالكم " فمن لم يحمد الله لم يستحق التشميت، ولا يلومن إلا نفسه، فهو الذي فوت على نفسه النعمتين: نعمة الحمد لله، ونعمة دعاء أخيه له المرتب على الحمد.

الخامسة قوله: وإذا مرض فعده [3] عيادة المريض من حقوق المسلم، وخصوصا من له حق عليك متأكد، كالقريب والصاحب ونحوهما، وهي من أفضل الأعمال الصالحة، ومن عاد أخاه المسلم لم

---

1 (?) مسلم الإيمان (55) ، النسائي البيعة (4197) ، أبو داود الأدب (4944) ، أحمد (4/102) .

2 (?) مسلم السلام (2162) ، الترمذي الأدب (2737) ، النسائي الجنائز (1938) ، أحمد (2/372) .

3 (?) البخاري الجنائز (1183) ، مسلم السلام (2162) ، الترمذي الأدب (2737) ، النسائي الجنائز (1938) ، أبو داود الأدب (5030) ، ابن ماجه ما جاء في الجنائز (1435) ، أحمد (2/412) .

يزل يخوض الرحمة، فإذا جلس عنده غمرته الرحمة، ومن عاده أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي، ومن عاده آخر النهار صلت عليه الملائكة حتى يصبح، وينبغي للعائد أن يدعو له بالشفاء، وينفس له، ويشرح خاطره بالبشارة بالعافية، ويذكره التوبة والإنابة إلى الله والوصية النافعة، ولا يطيل عنده الجلوس، بل بمقدار العيادة، إلا أن يؤثر المريض كثرة تردده وكثرة جلوسه عنده، فلكل مقام مقال.

. السادسة قوله: وإذا مات فاتبعه [1] فإن من تبع جنازة حتى يصلي عليها فله قيراط من الأجر [2] فإن تبعها حتى تدفن فله قيراطان، واتباع الجنازة فيه حق لله، وحق للميت، وحق لأقاربه الأحياء.

حديث إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحا مقيما

الحديث الثلاثون

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحا مقيما [3] رواه البخاري.

---

1 (?) البخاري الجنائز (1183) ، مسلم السلام (2162) ، الترمذي الأدب (2737) ، النسائي الجنائز (1938) ، أبو داود الأدب (5030) ، ابن ماجه ما جاء في الجنائز (1435) ، أحمد (2/372) .

2 (?) أي: نصيب .

3 (?) البخاري الجهاد والسير (2834) ، أبو داود الجنائز (3091) ، أحمد (4/410) .

هــذا من أكــبر منن الله على عبــاده المؤمــنين: أن أعمالهم المستمرة المعتادة إذا قطعهم عنها مــرض أو ســـفر كتبت لهم كلها كاملـــة؛ لأن الله يعلم منهم أنه لولا ذلك المانع لفعلوهـا، فيعطيهم تعـالى بنيـاتهم مثل أجور العاملين مع أجر المرض الخــاص، ومع ما يحصل به من القيام بوظيفة الصــبر، أو ما هو أكمل من ذلك من الرضى والشكر، ومن الخضـوع لله والانكسـار لـه، ومع ما يفعله المســافر من أعمــال ربما لا يفعلها في الحضـر: من تعليم، أو نصـيحة، أو إرشـاد إلى مصـلحة دينية أو دنيويـــــة، وخصوصا في الأســــفار الخيريــــة، كالجهاد، والحج والعمرة، ونحوها.

ويدخل في هـذا الحـديث: أن من فعل العبـادة على وجه نـــاقص وهو يعجز عن فعلها على الوجه الأكمـــل، فــإن الله يكمل له بنيته ما كــان يفعله لو قــدر عليــه، فــإن العجز عن مكملات العبــادات نــوع مــرض، والله أعلم.

ومن كــان من نيته عمل خــير، ولكنه اشــتغل بعمل آخر أفضل منــــه، ولا يمكنه الجمع بين الأمـــرين: فهو أولى أن يكتب له ذلك العمل الــــــذي منعه منه عمل أفضل منــه، بل لو اشــتغل بنظــيره، وفضل الله تعـالى عظيم.

حديث أسرعوا بالجنازة...

الحديث الحادي والثلاثون

عن أبي هريرة قال: قال رسـول الله أسـرعوا بالجنازة، فإن تك صالحة فخير تقـدمونها إليـه، وإن تك غير ذلك، فشر تضعونه عن رقابكم [1] متفق عليه.

هذا الحديث محتو على مسائل أصولية وفروعية.

فقوله أسـرعوا بالجنـازة [2] ، يشـمل الإسـراع بتغســيلها وتكفينها وحملها ودفنها) وجميع متعلقــات التجهيز، ولهذا كانت هـذه الأمـور من فـروض الكفايـة، ويستثنى من هذا الإسراع إذا كان التأخير فيه مصـلحة راجحة، كأن يمـوت بغتـة، فيتعين تـأخيره حـتى يتحقق موته؛ لئلا يكون قد أصابته سكتة، وينبغي أيضا تـأخيره لكـثرة الجمـع، أو لحضـور من له حق عليه من قـريب ونحــوه، وقد علل ذلك بمنفعة الميت لتقديمه لما هو خــير له من النعيم، أو لمصــلحة الحي بالســرعة في الإبعاد عن الشر.

1 (?) البخاري الجنائز (1252) ، مسلم الجنائز (944) ، الترمذي الجنائز (1015) ، النسـائي الجنـائز (1910) ، أبـو داود الجنـائز (3181) ، ابن ماجه مـا جـاء في الجنـائز (1477) ، أحمـد (2/240) ، مالـك الجنـائز (574) .

2 (?) البخاري الجنائز (1252) ، مسلم الجنائز (944) ، الترمذي الجنائز (1015) ، النسـائي الجنـائز (1910) ، أبـو داود الجنـائز (3181) ، ابن ماجه مـا جـاء في الجنـائز (1477) ، أحمـد (2/240) ، مالـك الجنـائز (574) .

وإذا كان هذا مأمورا به في أمور تجهيزه، فمن باب أولى الإسراع في إبراء ذمته من ديون وحقـوق عليـه، فإنه إلى ذلك أحوج.

وفيه: الحث على الاهتمام بشـأن أخيك المسـلم حيا وميتا، وبالإسـراع إلى ما فيه خـير له في دينه ودنيـاه، كما أن فيــه: الحث على البعد عن أســباب الشـــر، ومباعـــدة المجـــرمين، حـــتى في الحالة الـــتي يبتلى الإنسان فيها بمباشرتهم.

وفي هذا الحديث: إثبات نعيم البرزخ [1] وعذابه، وقد تـواترت بـذلك الأحـاديث عن النـبي وأن مبتـدأ ذلك وضـعه في قـبره إذا تم دفنـه، ولهـذا يشـرع في هـذه الحـال الوقـوف على قـبره والـدعاء لـه، والاسـتغفار، وسؤال الله له الثبات.

وفي هــذا أيضــا: التنبيه على أســباب نعيم الــبرزخ وعذابه، وأن أسباب النعيم الصلاح، لقوله: فـإن كـانت صالحة [2] والصـلاح كلمة جامعة تحتـوي على تصـديق الله ورسوله، وطاعة الله ورسوله، فهو تصديق الخـبر، وامتثــال الأمــر، واجتنــاب النهي، وأن العــذاب ســببه الإخلال بالصـلاح: إما لشك في الـدين، أو اجـتراء على المحــارم، أو لــترك شــيء من الواجبــات والفــرائض، وجميع الأسـباب المفصـلة في الأحـاديث والآثـار ترجع

---

1 (?) البرزخ: هو ما بين موت الإنسان وبعثه .

2 (?) البخاري الجنائز (1251) ، النسائي الجنائز (1909) ، أحمد (3/41) .

إلى ذلك، ولذلك قال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ [1] . [الليل: 15، 16]. كذب الخبر، وتولى عن الأمر.

حديث ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة

الحديث الثاني والثلاثون

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله «ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة، وليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة، وليس فيما دون خمس ذود صدقة» [2] متفق عليه.

اشتمل هذا الحديث على تحديد أنصبة الأموال الزكوية الغالبة، والتي تجب فيها الزكاة: الحبوب، والثمار والمواشي من الأنعام الثلاثة والنقود، وما يتفرع عنها من عروض التجارة.

أما زكاة الحبوب والثمار: فإن نص هذا الحديث أن نصابها خمسة أوسق، فما دون ذلك لا زكاة فيه، والوسق: ستون صاعا بصاع النبي فتكون الخمسة الأوسق ثلاثمائة صاع، فمن بلغت حبوب زرعه أو مغل ثمره هذا المقدار فأكثر: فعليه زكاته فيما سقي بمؤونة نصف العشر، وفيما سقي بغير مؤونة العشر.

---

1 (?) سورة الليل آية : 15 ، 16 .

2 (?) البخاري الزكاة (1390) ، مسلم الزكاة (979) ، الترمذي الزكاة (626) ، النسائي الزكاة (2476) ، أبو داود الزكاة (1558) ، ابن ماجه الزكاة (1793) ، أحمد (3/60) ، مالك الزكاة (576) ، الدارمي الزكاة (1633) .

وأما زكـــاة المواشـــي، فليس فيما دون خمس من الإبل شيء. فإذا بلغت خمسـا: ففيها شـاة، ثم في كل خمس شـــاة، إلى خمس وعشـــرين: فتجب فيها بنت مخــاض، وهي الــتي تم لها ســنة، وفي ست وثلاثين: بنت لبــون، لها ســنتان، وفي ست وأربعين: حقــة، لها ثلاث سنين، وفي إحدى وستين جذعة، لها أربع سـنين، وفي ست وسـبعين: بنتا لبـون، وفي إحـدى وتسـعين: حقتـان، فـإذا زادت على عشـــرين ومائـــة: ففي كل أربعين بنت لبون، وفي كل خمسين حقة.

وأما نصاب البقـر، فـالثلاثون فيها تـبيع أو تبيعـة، له سنة، وفي أربعين مسنة، لها سنتان، ثم في كل ثلاثين تبيع، وفي كل أربعين مسنة.

وأما نصـاب الغنم، فأقله أربعـون، وفيها شـاة، وفي إحدى وعشـرين ومائـة: شـاتان، وفي مـائتين وواحـدة: ثلاث شياه، ثم في كل مائـة: شـاة، وما بين الفرضـين يقال له: " وقص " في المواشي خاصة، لا شـيء فيـه، بل هو عفو.

وأما بقية الحيوانـــات، كالخيل والبغـــال والحمـــير وغيرها، فليس فيه زكاة، إلا إذا أعد للبيع والشراء.

وأما نصـاب النقـود من الفضـة، فأقله خمس أواق، والأوقية أربعون درهما، فمتى بلغت عنده مائتي درهم، ففيه ربع العشر وكـــذلك ما تفـــرع عن النقـــدين من عروض التجـارة، وهو كل ما أعد للـبيع والشـراء لأجل

المكسب والربح فيقوم إذا حـال الحـول بقيمة النقـود، ويخـرج عنه ربع العشـر، ولا بد في جميعها من تمـام الحـول، إلا الحبـوب والثمـار، فإنها تخـرج زكاتها وقت الحصاد والجذاذ [1] قال تعـالى: ﴿ ﴾ [2] . [الأنعام: 141] .

فهذه أصناف الأموال التي تجب فيها الزكاة.

وأما مصـــرفها: فللأصـــناف الثمانية المـــذكورين في قوله تعــــــــــالى: ﴿ ﴾ [3] [التوبة: 60].

حديث ومن يستعفف يعفه الله

الحديث الثالث والثلاثون

عن أبي سـعيد قـال: قـال رسـول الله ﴿ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصـبره اللـه، وما أعطي أحد عطـاء خـيرا وأوسع من الصبر﴾ [4] متفق عليه.

هذا الحديث اشتمل على أربع جمل جامعة نافعة.

إحداها: قوله: ﴿ومن يستعفف يعفه الله﴾ [5] .

---

1 (?) الحصاد للزرع وجذاذ الثمر .

2 (?) سورة الأنعام آية : 141 .

3 (?) سورة التوبة آية : 60 .

4 (?) البخاري الزكاة (1400) ، مسلم الزكاة (1053) ، الترمـذي الـبر والصلة (2024) ، النسائي الزكاة (2588) ، أبو داود الزكاة (1644) ، أحمد (3/12) ، مالك الجامع (1880) ، الدارمي الزكاة (1646) .

5 (?) البخاري الزكاة (1361) ، أحمد (3/403) .

والثانية: قوله: ﴿ومن يستغن يغنه الله﴾ [1] .

وهاتان الجملتان متلازمتان، فإن كمال العبد في إخلاصه لله رغبة ورهبة وتعلقا به دون المخلوقين. فعليه أن يسعى لتحقيق هذا الكمال، ويعمل كل سبب يوصله إلى ذلك، حتى يكون عبدا لله حقا حرا من رق المخلوقين، وذلك بأن يجاهد نفسه على أمرين: انصرافها عن التعلق بالمخلوقين بالاستعفاف عما في أيديهم، فلا يطلبه بمقاله ولا بلسان حاله، ولهذا قال ﷺ لعمر: ﴿ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك﴾ [2] فقطع الإشراف في القلب والسؤال باللسان، تعففا وترفعا عن منن الخلق، وعن تعلق القلب بهم، سبب قوي لحصول العفة.

وتمام ذلك: أن يجاهد نفسه على الأمر الثاني: وهو الاستغناء بالله والثقة بكفايته، فإنه من يتوكل على الله فهو حسبه، وهذا هو المقصود، والأول وسيلة إلى هذا، فإن من استعف عما في أيدي الناس وعما يناله منهم، أوجب له ذلك أن يقوى تعلقه بالله، ورجاؤه وطمعه في فضل الله وإحسانه، ويحسن ظنه وثقته بربه، والله تعالى عند حسن ظن عبده به، إن ظن

---

1 (?) البخاري الزكاة (1361) .

2 (?) البخاري الزكاة (1404) ، مسلم الزكاة (1045) ، النسائي الزكاة (2607) ، أبو داود الزكاة (1647) ، أحمد (1/17) ، الدارمي الزكاة (1647) .

خيرا فله، وإن ظن غيره فلـه، وكل واحد من الأمـرين يمد الآخر فيقويه، فكلما قوي تعلقه بالله ضـعف تعلقه بالمخلوقين وبالعكس.

ومن دعـــاء النـــبي اللهم إني أســـألك الهـــدى والتقى، والعفاف والغنى [1] فجمع الخير كله في هـذا الـــدعاء، فالهـــدى: هو العلم النــافع، والتقى: هو العمل الصالح، وترك المحرمات كلها، هذا صلاح الدين.

وتمــام ذلك بصــلاح القلب، وطمأنينته بالعفــاف عن الخلـق، والغـنى باللـه، ومن كـان غنيا بالله فهو الغـني حقـــا، وإن قلت حواصـــله، فليس الغـــنى عن كـــثرة العرض، إنما الغنى غنى القلب، وبالعفـاف والغـنى يتم للعبد الحياة الطيبة، والنعيم الدنيوي، والقناعة بما آتـاه الله.

والثالثة قوله: ومن يتصبر يصبره الله [2] .

ثم ذكر في الجملة الرابعــة: أن الصــبر إذا أعطــاه الله العبد فهو أفضل العطـاء وأوسـعه وأعظمـه، إعانة على الأمور، قال تعالى: [3] . [البقرة: 45]. أي: على أموركم كلها.

---

[1] (?) مسـلم الـذكر والـدعاء والتوبـة والاسـتغفار (2721) ، الترمـذي الدعوات (3489) ، ابن ماجه الدعاء (3832) ، أحمد (1/416) .

[2] (?) البخاري الزكاة (1400) ، مسلم الزكاة (1053) ، الترمـذي الـبر والصلة (2024) ، النسائي الزكاة (2588) ، أبو داود الزكاة (1644) ، أحمد (3/94) ، مالك الجامع (1880) ، الدارمي الزكاة (1646) .

[3] (?) سورة البقرة آية : 45 .

والصبر كسائر الأخلاق يحتاج إلى مجاهدة للنفس وتمرينها، فلهذا قال: ﴿ومن يتصبر﴾ [1] أي: يجاهد نفسه على الصبر ﴿يصبره الله﴾ [2] ويعينه، وإنما كان الصبر أعظم العطايا، لأنه يتعلق بجميع أمور العبد وكمالاته، وكل حالة من أحواله تحتاج إلى صبر، فإنه يحتاج إلى الصبر على طاعة الله، حتى يقوم بها ويؤديها، وإلى صبر عن معصية الله حتى يتركها لله، وإلى صبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يتسخطها، بل إلى صبر على نعم الله ومحبوبات النفس، فلا يدع النفس تمرح وتفرح الفرح المذموم، بل يشتغل بشكر الله، فهو في كل أحواله يحتاج إلى الصبر وبالصبر ينال الفلاح، ولهذا ذكر الله أهل الجنة فقال: ﴿[illegible]﴾ [3] [الرعد: 23، 24]. وكذلك قوله: ﴿[illegible]﴾ [4] [الفرقان: 75] .

فهم نالوا الجنة بنعيمها، وأدركوا المنازل بالصبر، ولكن العبد يسأل الله العافية من الابتلاء الذي لا

---

1 (?) البخاري الزكاة (1400) ، مسلم الزكاة (1053) ، الترمذي البر والصلة (2024) ، النسائي الزكاة (2588) ، أبو داود الزكاة (1644) ، أحمد (3/94) ، مالك الجامع (1880) ، الدارمي الزكاة (1646) .

2 (?) البخاري الزكاة (1400) ، مسلم الزكاة (1053) ، الترمذي البر والصلة (2024) ، النسائي الزكاة (2588) ، أبو داود الزكاة (1644) ، أحمد (3/94) ، مالك الجامع (1880) ، الدارمي الزكاة (1646) .

3 (?) سورة الرعد آية : 23 ، 24 .

4 (?) سورة الفرقان آية : 75 .

يـــدري ما عاقبتـــه، ثم إذا ورد عليه فوظيفته الصـــبر. فالعافية هي المطلوبة بالأصــــــالة في أمـــــور الابتلاء والامتحـــان، والصـــبر يـــؤمر به عند وجـــود أســـبابه ومتعلقاته، والله هو المعين.

وقد وعد الله الصـابرين في كتابه وعلى لسـان رسـوله أمورا عالية جليلة، وعـدهم بالإعانة في كل أمـورهم. وأنه معهم بالعناية والتوفيق والتســـــــديد، وأنه يحبهم ويثبت قلـــوبهم وأقـــدامهم، ويلقي عليهم الســكينة والطمأنينــة، ويسهل لهم الطاعات، ويحفظهم من المخالفات، ويتفضل عليهم بالصــلوات والرحمة والبداية عند المصــيبات، والله يرفعهم إلى أعلى المقامـات في الـدنيا والآخـرة، وعـدهم النصر، وأن ييسرهم لليسرى ويجنبهم العسـرى، ووعـدهم بالســعادة والفلاح والنجـــاح، وأن يـــوفيهم أجـــرهم بغـــير حســاب، وأن يخلف عليهم في الـدنيا أكـثر مما أخذ منهم من محبوباتهم، وأحسن، يعوضـهم عن وقـوع المكروهـات عوضا عـــاجلا يقابل أضــعاف أضــعاف ما وقع عليهم من كريهة ومصـيبة وهو في ابتدائه صـعب شـديد وفي انتهائه سهل حميد العواقب، كما قيل:

والصبر مثل اسمه مر لكن عواقبه أحلى من

حديث ما نقصت صدقة من مال

الحديث الرابع والثلاثون

عن أبي هريـــرة قـــال: قـــال رســـول الله ما نقصت صـــدقة من مـــال، وما زاد الله عبـــدا بعفو إلا

عـــــــزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله [1] رواه مسلم.

هــذا الحــديث احتــوى على فضل الصــدقة، والعفو والتواضــع، وبيــان ثمراتها العاجلة والآجلــة، وأن كل ما يتوهمه المتــوهم من نقص الصــدقة للمــال، ومنافــاة العفو للعز، والتواضع للرفعة: وهم غالط، وظن كاذب.

فالصــدقة لا تنقص المــال، لأنه لو فــرض أنه نقص من جهة، فقد زاد من جهات أخر، فإن الصدقة تبــارك المال، وتدفع عنه الآفات وتنميــه، وتفتح للمتصــدق من أبواب الرزق وأسباب الزيادة أمورا ما تفتح على غيره فهل يقابل ذلك النقص بعض هذه الثمرات الجليلة ؟

فالصــدقة لله الــتي في محلها لا تنفد المــال قطعــا، ولا تنقصه بنص النـــبي وبالمشـــاهدات والتجربـــات المعلومــة، هــذا كله ســوى ما لصــاحبها عند اللــه: من الثواب الجزيل، والخير والرفعة.

وأما العفو عن جنايات المسيئين بأقوالهم وأفعــالهم: فلا يتوهم منه الذل، بل هــذا عين العــز، فــإن العز هو الرفعة عند الله وعند خلقـــه، مع القـــدرة على قهر الخصوم والأعداء.

ومعلــوم ما يحصل للعــافي من الخــير والثنــاء عند الخلــق، وانقلاب العــدو صــديقا، وانقلاب النــاس مع

[1] (?) مسـلم الـبر والصـلة والآداب (2588) ، الترمـذي الـبر والصـلة (2029) ، أحمد (2/386) ، مالـك الجـامع (1885) ، الـدارمي الزكـاة (1676) .

العافي، ونصرتهم له بالقول والفعل على خصمه، ومعاملة الله له من جنس عمله، فإن من عفا عن عباد الله عفا الله عنه. وكذلك المتواضع لله ولعباده يرفعه الله درجات؛ فإن الله ذكر الرفعة في قوله:

[1] . [المجادلة: 11] .

فمن أجل ثمرات العلم والإيمان: التواضع، فإنه الانقياد الكامل للحق، والخضوع لأمر الله ورسوله، امتثالا للأمر، واجتنابا للنهي، مع التواضع لعباد الله، وخفض الجناح لهم، ومراعاة الصغير والكبير، والشريف، والوضيع، وضد ذلك التكبر؛ فهو غمط الحق، واحتقار الناس.

وهذه الثلاث المذكورات في هذا الحديث: مقدمات صفات المحسنين، فهذا محسن في ماله، ودفع حاجة المحتاجين، وهذا محسن بالعفو عن جنايات المسيئين، وهذا محسن إليهم بحلمه وتواضعه، وحسن خلقه مع الناس أجمعين، وهؤلاء قد وسعوا الناس بأخلاقهم وإحسانهم ورفعهم الله فصار لهم المحل الأشرف بين العباد، مع ما يدخر الله لهم من الثواب.

1 (?) سورة المجادلة آية : 11 .

وفي قوله وما تواضع أحد لله [1] تنبيه على حسن القصد والإخلاص لله في تواضعه، لأن كثيرا من الناس قد يظهر التواضع للأغنياء ليصيب من دنياهم، أو للرؤساء لينال بسببهم مطلوبه، وقد يظهر التواضع رياء وسمعة، وكل هذه أغراض فاسدة، لا ينفع العبد إلا التواضع لله تقربا إليه، وطلبا لثوابه، وإحسانا إلى الخلق، فكمال الإحسان وروحه الإخلاص لله.

حديث كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله تعالى إلا الصوم...

الحديث الخامس والثلاثون

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصوم ، فإنه لي، وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه. ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، والصوم جنة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم [2] متفق عليه.

---

1 (?) مسلم البر والصلة والآداب (2588) ، الترمذي البر والصلة (2029) ، أحمد (2/386) ، مالك الجامع (1885) ، الدارمي الزكاة (1676) .

2 (?) البخاري الصوم (1805) ، مسلم الصيام (1151) ، الترمذي الصوم (764) ، النسائي الصيام (2216) ، أبو داود الصوم (2363) ،

ما أعظم هذا الحديث، فإنه ذكر الأعمال عموما، ثم الصيام خصوصا، وذكر فضله وخواصه، وثوابه العاجل والآجل، وبيان حكمته، والمقصود منه، وما ينبغي فيه من الآداب الفاضلة، كلها احتوى عليها هذا الحديث، فبين هذا الأصل الجامع.

وأن جميع الأعمال الصالحة - من أقوال وأفعال، ظاهرة أو باطنة، سواء تعلقت بحق الله، أو بحقوق العباد - مضاعفة من عشر إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

وهذا من أعظم ما يدل على سعة فضل الله، وإحسانه على عباده المؤمنين، إذ جعل جناياتهم ومخالفاتهم الواحدة بجزاء واحد، ومغفرة الله تعالى فوق ذلك.

وأما الحسنة، فأقل التضعيف أن الواحدة بعشر، وقد تزيد على ذلك بأسباب، منها: قوة إيمان العامل، وكمال إخلاصه، فكلما قوي الإيمان والإخلاص تضاعف ثواب العمل.

ومنها: أن يكون للعمل موقع كبير، كالنفقة في الجهاد والعلم، والمشاريع الدينية العامة، وكالعمل الذي قوي بحسنه وقوته ودفعه المعارضات كما ذكره ﷺ في قصة أصحاب الغار، وقصة البغيّ التي سقت الكلب،

ابن ماجه الصيام (1638) ، أحمد (2/273) ، مالك الصيام (690) ، الدارمي الصوم (1770) .

فشـــكر الله لها وغفر لهـــا، ومثل العمل الـــذي يثمر أعمالا أخر: ويقتدي به غيره، أو يشـاركه فيه مشـارك، وكدفع الضرورات العظيمة، وحصول المـبرات الكبـيرة، وكالمضاعفة لفضل الزمـان أو المكـان، أو العامل عند الله.

فهذه المضاعفات كلها شاملة لكل عمل.

واستثنى في هذا الحديث الصيام، وأضافه إليه، وأنه الذي يجزي به بمحض فضـله وكرمـه، من غـير مقابلة للعمل بالتضعيف المـذكور الـذي تشـترك فيه الأعمـال، وهـذا شـيء لا يمكن التعبـير عنـه، بل يجـازيهم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وفي الحـديث كالتنبيه على حكمة هـذا التخصـيص، وأن الصـائم لما تـرك محبوبـات النفس الـتي طبعت على محبتهـا، وتقـديمها على غيرهـا، وأنها من الأمـور الضـرورية، فقـدم الصـائم عليها محبة ربـه، فتركها لله في حالة لا يطلع عليها إلا اللـــه، وصـــارت محبته لله مقدمة وقاهرة لكل محبة نفسية، وطلب رضـاه وثوابه مقـدما على تحصـيل الأغـراض النفسـية، فلهـذا اختصه الله لنفسه، وجعل ثواب الصائم عنده، فما ظنك بـأجر وجزاء تكفل به الرحمن الرحيم الكـريم المنـان، الـذي عمت مواهبه جميع الموجـــودات، وخص أوليـــاءه منها بالحظ الأوفـــر، والنصـــيب الأكمـــل، وقـــدر لهم من الأسباب والألطاف التي ينالون بها ما عنده على أمـور

لا تخطر له بالبـال، ولا تـدور في الخيـال ؟ فما ظنك أن يفعل الله بهؤلاء الصائمين المخلصين ؟

وهنا يقف القلم، ويسـيح قلب الصـائم فرحا وطربا بعمل اختصه الله لنفسـه، وجعل جــزاءه من فضـله المحض، وإحسـانه الصـرف، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ودل الحديث على أن الصيام الكامل هو الـذي يـدع العبد فيه شـيئين: المفطـرات الحسـية، من طعـام وشراب ونكاح وتوابعها، والمنقصات العملية، فلا يرفث ولا يصـخب، ولا يعمل عملا محرمـا، ولا يتكلم بكلام محرم، بل يجتنب جميع المعاصـي، وجميع المخاصـمات والمنازعات المحدثة للشحناء، ولهذا قال: فلا يـرفث[1] أي: لا يتكلم بكلام قـبيح ولا يصـخب[2] بـالكلام المحـدث للفتن والمخاصـمات، كما قـال في الحـديث الآخر: من لم يـدع قـول الـزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه[3] .

فمن حقق الأمـرين: تـرك المفطـرات، وتـرك المنهيات، تم له أجر الصائمين، ومن لم يفعل ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

---

1 (?) البخـاري الصـوم (1795) ، مسـلم الصـيام (1151) ، النسـائي الصـيام (2216) ، أبـو داود الصـوم (2363) ، ابن ماجـه الصـيام (1691) ، أحمد (2/273) ، مالك الصيام (689) .

2 (?) البخـاري الصـوم (1805) ، مسـلم الصـيام (1151) ، النسـائي الصيام (2216) ، أحمد (2/273) .

3 (?) البخـاري الصـوم (1804) ، الترمـذي الصـوم (707) ، أبـو داود الصوم (2362) ، ابن ماجه الصيام (1689) ، أحمد (2/505) .

ثم أرشد الصائم إذا عرض له أحد يريد مخاصمته ومشاتمته أن يقول له بلسانه: «إني صائم» [1] .

وفائدة ذلك: أن يريد كأنه يقول: اعلم أنه ليس بي عجز عن مقابلتك على ما تقول، ولكني صائم، أحترم صيامي وأراعي كماله، وأمر الله ورسوله، واعلم أن الصيام يدعوني إلى ترك المقابلة، ويحثني على الصبر، فما عملته أنا خير وأعلى مما عملته معي أيها المخاصم.

وفيه: العناية بالأعمال كلها من صيام وغيره، ومراعاة تكميلها، والبعد عن جميع المنقصات لها، وتذكر مقتضيات العمل، وما يوجبه على العامل وقت حصول الأسباب الجارحة للعمل.

وقوله: «الصوم جنة» [2] أي: وقاية يتقي بها العبد الذنوب في الدنيا ويتمرن به على الخير، ووقاية من العذاب.

فهذا من أعظم حكم الشارع من فوائد الصيام، وذلك لقوله تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ [3] [البقرة: 183] . فكون الصوم جنة، وسببا لحصول

---

[1] (?) البخاري الصوم (1795) ، مسلم الصيام (1151) ، الترمذي الصوم (764) ، النسائي الصيام (2216) ، أبو داود الصوم (2363) ، أحمد (2/462) ، مالك الصيام (689) .

[2] (?) البخاري الصوم (1805) ، مسلم الصيام (1151) ، الترمذي الصوم (764) ، النسائي الصيام (2216) ، أبو داود الصوم (2363) ، أحمد (2/480) ، الدارمي الصوم (1771) .

[3] (?) سورة البقرة آية : 183 .

التقـوى: هو مجمـوع الحكم الـتي فصـلت في حكمة الصيام وفوائـده، فإنه يمنع من المحرمـات أو يخففهـا، ويحث على كثير من الطاعات.

وقوله للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه [1] . هذان ثوابان: عاجل، وآجل.

فالعاجـل: مشـاهد إذا أفطر الصـائم فـرح بنعمة الله عليه بتكميل الصيام، وفرح بنيل شهواته التي منع منها في النهار.

والآجل: فرحة عند لقاء ربه برضوانه وكرامته، وهـذا الفـرح المعجل نمـوذج ذلك الفـرح المؤجـل، وأن الله سيجمعهما للصائم.

وفيـه: الإشـارة إلى أن الصـائم إذا قـارب فطـره، وحصلت له هـذه الفرحـة، فإنها تقابل ما مر عليها في نهـاره من مشـقة تـرك الشـهوات، فهي من بـاب التنشيط، وإنهاض الهمم على الخير.

وقولـه: ولخلـوف فم الصـائم أطيب عند الله من ريح المسك [2] .

الخلـوف: هو الأثر الـذي يكـون في الفم من رائحة الجـوف عند خلـوه من الطعـام وتصـاعد الأبخـرة، فهو

[1] (?) البخـاري الصـوم (1805) ، مسـلم الصـيام (1151) ، النسـائي الصـيام (2215) ، ابن ماجـه الصـيام (1638) ، أحمـد (2/443)ـ ، الدارمي الصوم (1769) .

[2] (?) البخـاري اللبـاس (5583) ، مسـلم الصـيام (1151) ، الترمـذي الصوم (764) ، النسائي الصيام (2215) ، ابن ماجه الصيام (1638) ، أحمد (2/516) .

وإن كـان كريها للنفـوس، فلا تحـزن أيها الصـائم، فإنه أطيب عند الله من ريح المسك، فإنه متأثر عن عبادته والتقرب إليه، وكل ما تأثر عن العبادات من المشقات والكريهات فهو محبوب لله، ومحبوب الله عند المؤمن مقدم على كل شيء.

حديث إن الله قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب

الحديث السادس والثلاثون

عن أبي هريرة قال: قـال رسـول الله إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بـالحرب، وما تقـرب إلي عبد بشـــيء أحب إلي مما افترضت عليـــه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الـذي يسـمع بـه، وبصـره الـذي يبصر بـه، ويـده الـتي يبطش بهـا، ورجله الـتي يمشي بهـا، ولئن سـألني لأعطينـه، ولئن اسـتعاذني لأعيذنـه. وما تـرددت عن شـيء أنا فاعله تـرددي عن قبض نفس المـؤمن، يكره المـوت، وأكـره مسـاءته، ولا بد له منه [1] رواه البخاري.

هذا حديث جليل، أشرف حديث في أوصاف الأولياء، وفضلهم ومقاماتهم.

فأخبر أن معاداة أوليائه معاداة له ومحاربة له. ومن كـان متصـديا لعـداوة الـرب ومحاربة مالك الملك فهو

[1] (?) البخاري الرقاق (6137) .

مخذول، ومن تكفل الله بالذب عنه فهو منصور، وذلك لكمال موافقة أولياء الله لله في محابه، فأحبهم وقـام بكفايتهم، وكفاهم ما أهمهم.

ثم ذكر صفة الأولياء الصفة الكاملة، وأن أولياء الله هم الذين تقربوا إلى الله بأداء الفرائض والنوافل أولا: من صـلاة وصـيام وزكـاة وحج، وأمر بـالمعروف ونهى عن المنكـر، وجهـاد، وقيـام بحقوقه وحقـوق عبـاده الواجبة.

ثم انتقلـوا من هـذه الدرجة إلى التقـرب إليه بالنوافل، فإن كل جنس من العبـادات الواجبة مشـروع من جنسه نوافل فيها فضـائل عظيمة تكمل الفـرائض، وتكمل ثوابها.

فأوليـاء الله قـاموا بـالفرائض والنوافـل، فتـولاهم وأحبهم وسـهل لهم كل طريق يوصـلهم إلى رضـاه، ووفقهم وسـددهم في جميع حركـاتهم، فـإن سـمعوا سمعوا بالله، وإن أبصروا فلله، وإن بطشـوا أو مشـوا ففي طاعة الله.

ومع تسـديده لهم في حركـاتهم جعلهم مجـابي الدعوة: إن سألوه أعطاهم مصالح دينهم ودنيـاهم، وإن استعاذوه من الشرور أعاذهم.

ومع ذلك لطف بهم في كل أحـوالهم، ولـولا أنه قضى على عبـاده بـالموت لسـلم منه أوليـاؤه، لأنهم

يكرهونه لمشقته وعظمته، والله يكره مساءتهم، ولكن لما كان القضاء نافذا كان لا بد لهم منه.

فبين في هذا الحديث صفة الأولياء، وفضائلهم المتنوعة، وحصول محبة الله لهم التي هي أعظم ما تنافس فيه المتنافسون، وأنه معهم وناصرهم، ومؤيدهم ومسددهم، ومجيب دعواتهم.

ويدل هذا الحديث على: إثبات محبة الله، وتفاوتها لأوليائه بحسب مقاماتهم.

ووصف النبي لأولياء الله بأداء الفرائض والإكثار من النوافل، مطابق لوصف الله لهم بالإيمان والتقوى في قوله:

[illegible] . [1] [يونس: 62، 63] .

فكل من كان مؤمنا تقيا كان لله وليا؛ لأن الإيمان يشمل العقائد، وأعمال القلوب والجوارح، والتقوى ترك جميع المحرمات.

ويدل على أصل عظيم: وهو أن الفرائض مقدمة على النوافل. وأحب إلى الله وأكثر أجرا وثوابا، لقوله: وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه [2] ، وأنه عند التزاحم يتعين تقديم الفروض على النوافل.

1 (?) سورة يونس آية : 62 ، 63 .
2 (?) البخاري الرقاق (6137) .

حديث البيعان بالخيار ما لم يتفرقا

الحديث السابع والثلاثون

عن حكيم بن حـــزام قـــال: قـــال رســـول الله البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صـدقا وبينـا: بـورك لهما في بيعهمـا، وإن كـذبا وكتما محقت بركة بيعهما [1] متفق عليه.

هــذا الحــديث أصل في بيــان المعــاملات النافعــة، والمعاملات الضارة، وأن الفاصل بين النـوعين: الصـدق والبيان.

فمن صدق في معاملته، وبين جميع ما تتوقف عليه المعاملة من الأوصـــاف المقصـــودة، ومن العيـــوب والنقص، فهــذه معاملة نافعة في العاجل بامتثــال أمر الله ورسـوله، والسـلامة من الإثم، وبـنزول البركة في معاملتــه، وفي الآجلة بحصـول الثـواب، والسـلامة من العقاب.

ومن كـذب وكتم العيـوب، وما في العقـود عليه من الصفات فهو مع إثمه، معاملته ممحوقة البركـة. ومـتى نزعت البركة من المعاملة خسر صاحبها دنياه وأخراه.

ويستدل بهـذا الأصل على تحـريم التـدليس، وإخفـاء العيـــوب، وتحـــريم الغش، والبخس في المـــوازين والمكاييل والذرع وغيرهـا؛ فإنها من الكـذب والكتمـان.

---

1 (?) البخاري البيوع (2004) ، مسلم البيوع (1532) ، الترمذي البيوع (1246) ، النسائي البيوع (4464) ، أبو داود البيوع (3459) ، أحمد (3/402) ، الدارمي البيوع (2547) .

وكذلك تحريم النجش [2] والخداع في المعاملات وتلقي الجلب ليبيعهم، أو يشتري منهم.

ويدخل فيه: الكذب في مقـدار الثمن والمثمن، وفي وصف المعقود عليه، وغير ذلك.

وضـابط ذلـك: أن كل شـيء تكـره أن يعاملك فيه أخوك المسلم أو غـيره ولا يخـبرك بـه، فإنه من بـاب الكذب والإخفاء والغش.

ويـــدخل في هـــذا: الـــبيع بأنواعـــه، والإجـــارات، والمشاركات وجميع المعاوضات، وآجالها ووثائقها. فكلها يتعين على العبد فيها الصـــدق والبيـــان، ولا يحل له الكذب والكتمان.

وفي هـذا الحـديث: إثبـات خيـار المجلس في الـبيع، وأن لكل واحد من المتبـايعين الخيـار بين الإمضـاء أو الفسخ، ما داما في محل التبايع، فإذا تفرقا ثبت الـبيع ووجب، وليس لواحد منهما بعد ذلك الخيـار إلا بسـبب يوجب الفسخ، كخيـار شـرط، أو عيب يجـده قد أخفي عليه، أو تدليس أو تعذر معرفة ثمن، أو مثمن.

والحكم في إثبات خيار المجلس: أن البيع يقع كثـيرا جـدا، وكثـيرا ما ينـدم الإنسـان على بيعه أو شـرائه، فجعل له الشارع الخيـار؛ كي يـتروى وينظر حالـه: هل يمضي، أو يفسخ ؟ والله أعلم.

---

2 (?) هو نحو زيادة الثمن على قيمة الحاجة من غير رغبـة في الشـراء ليخدع المزاودين الآخرين .

حديث نهى رسول الله عن بيع الحصاة وعن بيع الغرر

الحديث الثامن والثلاثون

عن أبي هريرة قال: نهى رسول الله عن بيع الحصاة، وعن بيع الغرر [1] رواه مسلم.

وهذا كلام جامع لكل غرر، والمراد بالغرر: المخاطرة والجهالة. وذلك داخل في الميسر، فإن الميسر كما يدخل في المغالبات والرهان - إلا رهان سباق الخيل والإبل والسهام - فكذلك يدخل في أمور المعاملات.

فكل بيع فيه خطر: هل يحصل المبيع، أو لا يحصل ؟ - كبيع الآبق والشارد والمغصوب من غير غاصبه، أو غير القادر على أخذه، وكبيع ما في ذمم الناس - وخصوصا المماطلين والمعسرين - فإنه داخل في الغرر.

وكذلك كل بيع فيه جهالة ظاهرة يتفاوت فيها المقصود؛ فإنها داخلة في بيع الغرر، كبيعه ما في بيته من المتاع، أو ما في دكانه، أو ما في هذا الموضع، وهو لا يدري به ولا يعلمه، أو بيع الحصاة التي هي مثال من أمثلة الغرر، كأن يقول: ارم هذه الحصاة، فعلى أيّ متاع وقعت، فهو عليك بكذا، أو ارمها في الأرض فما بلغته من المدى، فهو لك بكذا، أو بيع

---

[1] (?) مسلم البيوع (1513) ، الترمذي البيوع (1230) ، النسائي البيوع (4518) ، أبو داود البيوع (3376) ، ابن ماجه التجارات (2194) ، أحمد (2/439) ، الدارمي البيوع (2563) .

المنابذة أو الملامسة، أو بيع ما في بطون الأنعام، وما أشبه ذلك: فكل ذلك غرر واضح.

ومن حكمة الشارع: تحـريم هـذا النـوع، لما فيه من المخـاطرات، وإحـداث العـداوات الـتي قد يغبن فيها أحدهما الآخر غبنا فاحشا مضرا.

ولهـذا اشـترط العلمـاء للـبيع: العلم بـالمبيع، والعلم بالثمن.

واشترطوا أيضا: أن يكون العاقد جائز التصرف، بـأن يكون بالغا عاقلا رشيدا؛ لأن العقد مع الصـغير أو غـير الرشـــيد لا بد أن يحصل به غبن مضـــر، وذلك من الغرر.

وكـذلك اشـترطوا: العلم بالأجـل، إذا كـان الثمن أو بعضـه، أو المـبيع في السـلم مـؤجلا؛ لأن جهالة الأجل تصير العقد غررا.

وكما يـدخل في النهي عن بيع الغـرر الغـرر الـذي يتفقـان عليـه، فمن بـاب أولى أن يـدخل فيه التغريـر، وتدليس أحـدهما على الآخر شـيئا من أمـور المعاملـة: من معقود به، أو عليه، أو شيء من صفاته.

والغش كله داخل في التغريـــــر. وأفـــــراد الغش وتفاصيله، لا يمكن ضبطها، وهي معروفة بين الناس.

وحاصل بيع الغـــرر يرجع إلى بيع المعـــدوم، كحبل الحبلة، والسنين، أو بيع المعجوز عنـه، كـالآبق ونحـوه،

أو بيع المجهـــول المطلق في ذاتـــه، أو جنســـه، أو صفاته.

حديث الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرم حلالا أو أحل حراما...

الحديث التاسع والثلاثون

عن عمـرو بن عـوف المـزني عن النـبي قـال: الصلح جائز بين المسـلمين، إلا صـلحا حـرم حلالا، أو أحل حرامـا. والمسـلمون على شـروطهم، إلا شـرطا حـــرم حلالا، أو أحل حراما [1] رواه أهل الســـنن إلا النسائي.

جمع في هـذا الحـديث الشـريف بين أنـواع الصـلح والشروط - صحيحها وفاسدها - بكلام يشمل من أنـواع العلم وأفراده ما لا يحصى بحد واضح بين.

فأخبر أن الأصل في الصلح: أنه جائز لا بأس به، إلا إذا حـرم الحلال، أو أحل الحـرام. وهـذا كلام محيـط، يدخل فيه جميع أقسـام الصـلح. والصـلح خـير، لما فيه من حسم النزاع، وسلامة القلوب، وبراءة الذمم.

فيدخل فيه: الصلح في الأموال في الإقرار، بأن يقر له بـــدين، أو عين، أو حـــق، فيصـــالحه عنه ببعضه أو بغيره.

---

[1] (?) الترمذي الأحكام (1352) ، ابن ماجه الأحكام (2353) .

وصــلح الإنكــار، بــأن يــدعي عليه حقا من دين، أو عين، فينكر. ثم يتفقـان على المصـالحة عن هـذا بعين أو دين، أو منفعة أو إبراء، أو غيره: فكل ذلك جائز.

وكذلك الصلح عن الحقوق المجهولة، كأن يكون بين اثــنين معاملة طويلــة، اشــتبه فيها ثبــوت الحق على أحدهما أو عليهما، أو اشـتبه مقـداره، فيتصـالحان على ما يتفقان عليه، ويتحريان العدل.

وتمام ذلك: أن يحلل كل منهما الآخر، أو يكــون بين اثنين مشاركة في مـيراث أو وقـف، أو وصـية أو مـال آخـر: من ديـون، أو أعيـان، ثم يتصـالحان عن ذلك بما يريانه أقرب إلى العدل والصواب.

وكذلك يدخل في ذلك: المصـالحة بين الـزوجين في حق من حقوق الزوجية: من نفقة أو كسوة أو مسـكن أو غيرهـا، ماضـية أو حاضـرة، وإن اقتضت الحـال أن يغض أحدهما عن بعض حقه، لاستيفاء بقيتـه، أو لبقـاء الزوجية، أو لزوال الفضل، أو لغـير ذلك من المقاصـد، فكل ذلك حسن. كما قال تعالى في حقهمـا: [illegible] [1] .

[النساء: 128] .

وكـــذلك الصـــلح عن القصـــاص في النفـــوس، أو الأطـراف بمـال يتفقـان عليـه، أو المعاوضة عن ديـات النفـوس والأطـراف والجـروح، أو يصـلح الحـاكم بين

---

[1] (?) سورة النساء آية : 128 .

الخصوم بما تقتضيه الحال، متحريا في ذلك مصلحتهما جميعا.

فكل هذا داخل في قوله ﷺ ﴿الصلح جائز بين المسلمين﴾ [1] .

فإن تضمن الصلح تحريم الحلال، أو تحليل الحرام، فهو فاسد بنص هذا الحديث، كالصلح على رق الأحرار، أو إباحة الفروج المحرمة، أو الصلح الذي فيه ظلم. ولهذا قيده الله بقوله تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ [2] [الحجرات: 9] .

أو صلح اضطرار كالمكره، وكالمرأة إذا عضلها زوجها ظلما لتفتدي منه، وكالصلح على حق الغير بغير إذنه وما أشبه ذلك، فهذا النوع صلح محرم غير صحيح.

وأما الشروط: فأخبر في هذا الحديث أن المسلمين على شروطهم، إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا، وهذا أصل كبير، فإن الشروط هي التي يشترطها أحد المتعاقدين على الآخر مما له فيه حظ ومصلحة، فذلك جائز، وهو لازم إذا وافقه الآخر عليه، واعترف به.

---

1 (?) الترمذي الأحكام (1352) ، ابن ماجه الأحكام (2353) .

2 (?) سورة الحجرات آية : 9 .

وذلك مثل إذا اشترط المشتري في المبيع وصفا مقصودا، كشرط العبد كاتبا، أو يحسن العمل الفلاني، أو الدابة هملاجة أو لبونا، أو الجارح صيودا، أو الجارية بكرا أو جميلة أو فيها الوصف الفلاني المقصود.

ومثل أن يشترط المشتري: أن الثمن أو بعضه مؤجل بأجل مسمى، أو يبيع الشيء ويشترط البائع: أن ينتفع به مدة معلومة، كما باع جابر بن عبد الله الأنصاري للنبي جمله، واشترط ظهره إلى المدينة.

ومثل أن يشترط سكنى البيت، أو الدكان مدة معلومة، أو يستعمل الإناء مدة معلومة، وما أشبه ذلك.

وكذلك شروط الرهن والضمان والكفالة هي من الشروط الصحيحة اللازمة.

ومثل الشروط التي يشترطها المتشاركان في مضاربة، أو شركة عنان، أو وجوه، أو أبدان، أو مساقاة، أو مزارعة: فكلها صحيحة، إلا شروطا تحلل الحرام، وعكسه كالتي تعود إلى الجهالة والغرر.

ومثل شروط الواقفين والموصين في أوقافهم ووصاياهم من الشروط المقصودة: فكلها صحيحة، ما لم تدخل في محرم.

وكذلك الشروط بين الزوجين، كأن تشترط دارها أو بلدها، أو نفقة معينة أو نحوها، فإن أحق الشروط أن يوفى به هذا النوع.

حديث مطل الغني ظلم

الحديث الأربعون

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله مطل الغني ظلم. وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع [1] . متفق عليه.

تضمن هذا الحديث الأمر بحسن الوفاء، وحسن الاستيفاء، والنهي عما يضاد الأمرين أو أحدهما.

فقوله: مطل الغني ظلم [2] أي: المعاسرة في أداء الحق الواجب ظلم؛ لأنه ترك لواجب العدل، إذ على القادر المبادرة إلى أداء ما عليه، من غير أن يحوج صاحب الحق إلى طلب وإلحاح، أو شكاية. فمن فعل ذلك مع قدرته على الوفاء، فهو ظالم.

" والغني " هو الذي عنده موجودات مالية يقدر بها على الوفاء.

ومفهوم الحديث: أن المعسر لا حرج عليه في التأخير. وقد أوجب الله على صاحب الحق إنظاره إلى الميسرة.

---

1 (?) البخاري الحوالات (2166) ، مسلم المساقاة (1564) ، الترمذي البيوع (1308) ، النسائي البيوع (4691) ، أبو داود البيوع (3345) ، ابن ماجه الأحكام (2403) ، أحمد (2/380) ، مالك البيوع (1379) ، الدارمي البيوع (2586) .

2 (?) البخاري الحوالات (2166) ، مسلم المساقاة (1564) ، الترمذي البيوع (1308) ، النسائي البيوع (4691) ، أبو داود البيوع (3345) ، ابن ماجه الأحكام (2403) ، أحمد (2/380) ، مالك البيوع (1379) ، الدارمي البيوع (2586) .

ونفهم من هذا الحـديث: أن الظلم المـالي لا يختص بأخذ مـال الغـير بغـير حـق، بل يـدخل فيه كل اعتـداء على مال الغير، أو على حقه بأي وجه يكون.

فمن غصب مال الغير، أو سرقه، أو جحد حقا عنده للغـير، أو بعضـه، أو ادعى عليه ما ليس له من أصل الحق أو وصفه، أو ماطله بحقه من وقت إلى آخر، أو أدى إليه أقل مما وجب له في ذمته - وصـفا أو قـدرا - فكل هؤلاء ظالمون بحسب أحوالهم. والظلم ظلمـات يوم القيامة على أهله.

ثم ذكر في الجملة الأخـــرى حسن الاســـتيفاء، وأن من له الحق عليه أن يتبع صاحبه بمعروف وتيســير، لا بإزعــاج ولا تعســير، ولا يرهقه من أمــره عســرا، ولا يمتنع عليه إذا وجهه إلى جهة ليس عليه فيها مضــــرة ولا نقص. فـإذا أحاله بحقه على مليء - أي: قـادر على الوفاء غير مماطل ولا ممانع - فليحتل عليه، فـإن هـذا من حسن الاستيفاء والسماحة.

ولهذا ذكر الله تعالى الأمــرين في قولــه: [illegible] [1]. [البقــرة: 178]. فـأمر صــاحب الحق أن يتبع من عليه الحق بـــالمعروف، والمستحسن عرفا وعقلا، وأن يؤدي من عليه الحق بإحسان.

---

1 (?) سورة البقرة آية : 178 .

وقد دعا ﷺ لمن اتصف بهذ الوصف الجميل، فقال: ﴿رحم الله عبدا سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا إذ قضى، سمحا إذا اقتضى﴾ [2] .

فالسماحة في مباشرة المعاملة، وفي القضاء، والاقتضاء، يرجى لصاحبها كل خير: ديني ودنيوي، لدخوله تحت هذه الدعوة المباركة التي لا بد من قبولها.

وقد شوهد ذلك عيانا. فإنك لا تجد تاجرا بهذا الوصف إلا رأيت الله قد صب عليه الرزق صبا، وأنزل عليه البركة. وعكسه صاحب المعاسرة والتعسير، وإرهاق المعاملين، والجزاء من جنس العمل، فجزاء التيسير التيسير.

وإذا كان مطل الغني ظلما: وجب إلزامه بأداء الحق إذا شكاه غريمه، فإن أدى وإلا عزر حتى يؤدي، أو يسمح غريمه. ومتى تسبب في تغريم غريمه بسبب شكايته: فعليه الغرم لما أخذ من ماله، لأنه هو السبب، وذلك بغير حق. وكذلك كل من تسبب لتغريم غيره ظلما فعليه الضمان.

وهذا الحديث أصل في باب الحوالة، وأن من حول بحقه على مليء، فعليه أن يتحول، وليس له أن يمتنع.

---

2 (?) البخاري البيوع (1970) ، الترمذي البيوع (1320) ، ابن ماجه التجارات (2203) .

ومفهومه: أنه إذا أحيل على غير مليء فليس عليه التحول، لما فيه من الضرر عليه.

والحق الذي يتحول به: هي الديون الثابتة بالذمم، من قرض أو ثمن مبيع، أو غيرهما.

[illegible]

حديث على اليد ما أخذت حتى تؤديه

الحديث الحادي والأربعون

عن سمرة بن جندب □ قال: قال رسول الله □ □على اليد ما أخذت، حتى تؤديه□ [1] . رواه أهل السنن إلا النسائي.

وهذا شامل لما أخذته من أموال الناس بغير حق، كالغصب ونحوه، وما أخذته بحق، كرهن وإجارة.

أما القسم الأول: فهو الغصب، وهو أخذ مال الغير بغير حق بغير رضاه، وهو من أعظم الظلم والمحرمات؛ فإن رسول الله □ يقول: □من غصب قيد شبر من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين□ [2] .

وعلى الغاصب أن يرد ما أخذه، ولو غرم على رده أضعاف قيمته ولو صار عليه ضرر في رده، لأنه هو

---

1 (?) الترمذي البيوع (1266) ، أبو داود البيوع (3561) ، ابن ماجه الأحكام (2400) ، أحمد (5/13) ، الدارمي البيوع (2596) .

2 (?) البخاري المظالم والغصب (2321) ، مسلم المساقاة (1612) ، أحمد (6/252) .

الـذي أدخل الضـرر على نفسـه. فـإن نقص رده مع أرش نقصـه. وعليه أجرته مـدة بقائه بيـده، وإن تلف ضمنه.

وأما إذا كانت اليد أخذت مال الغـير برضى صـاحبه، بإجارة، أو رهن أو مضاربة، أو مساقاة، أو مزارعة، أو غيرها: فصاحب اليد أمين، لأن صاحب العين قد ائتمنه، فإن تلفت وهي بيـده بغـير تعد ولا تفريـط: فلا ضـمان عليـه، وإن تلفت بتفريط في حفظها أو تعد عليهـا: ضمنها ومتى انقضى الغرض منها ردها إلى صاحبها.

ودخل في هـذا الحـديث على اليد ما أخـذت حـتى تؤديه [1] .

وكذلك العارية على المستعير أن يردها إلى صـاحبها بانقضاء الغـرض منهـا، أو طلب ربهـا، لأن العارية عقد جائز لا لازم.

فإن تلفت العارية بغير تعد ولا تفريط، فمن العلمـاء من ضمنه، كما هو المشهور من مذهب الإمـام أحمـد، ومنهم من لم يضمنه كسائر الأمناء.

ومنهم من فصـل: فـإن شـرط ضـمانها ضـمنها، وإلا فلا، وهو أحسن الأقوال الثلاثة.

---

1 (?) الترمـذي الـبيوع (1266) ، أبـو داود الـبيوع (3561) ، ابن ماجـه الأحكام (2400) ، أحمد (5/13) ، الدارمي البيوع (2596) .

ولكن لو وجد المال بيد مجنون، أو سفيه، أو صغير، فأخذه ليحفظه، فتلف بيده بغير تعد ولا تفريط: فإنه محسن، وما على المحسنين من سبيل.

ولو أخذ اللقطة التي يجوز التقاطها، فعليه تعريفها عاما كاملا. فإن لم تعرف: فهي لواجدها، فإن وجد صاحبها بعد ذلك ووصفها: سلمها إليه إن كانت موجودة، وضمنها إن كان قد أتلفها باستعمال أو غيره. وإن تلفت في حول التعريف بغير تفريط ولا تعد: فلا ضمان على الملتقط، لأنه من جملة الأمناء، وهي حينئذ لم تدخل في ملكه، والله أعلم.

حديث قضى رسول الله ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم

الحديث الثاني والأربعون

عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: ﴿قضى رسول الله ﷺ بالشفعة في كل ما لم يقسم. فإذا وقعت الحدود، وصرفت الطرق، فلا شفعة﴾ [1] رواه البخاري.

يؤخذ من هذا الحديث: أحكام الشفعة كلها، وما فيه شفعة، وما لا شفعة فيه.

والشفعة إنما هي في الأموال المشتركة. وهي قسمان: عقار وغيره. فأثبت في هذا الحديث الشفعة في العقار، ودل على أن غير العقار لا شفعة فيه،

---

[1] (?) البخاري الشفعة (2138) ، مسلم المساقاة (1608) ، النسائي البيوع (4701) ، أبو داود البيوع (3514) ، ابن ماجه الأحكام (2499) ، أحمد (3/399) ، الدارمي البيوع (2628) .

فالشــركة في الحيوانــات، والأثاثــات، والعقــود، وجميع المنقولات لا شفعة فيها، إذا باع أحدهما نصيبه منها.

وأما العقارات: فإذا أفرزت وحددت الحدود، وصرفت الطـرق واختـار كل من الشـريكين نصـيبه، فلا شـفعة فيهــا، كما هو نص الحــديث، لأنه يصــير حينئذ جــارا، والجار لا شفعة له على جاره.

وأما إذا لم تحد الحدود ولم تصرف الطرق، ثم بـاع أحدهم نصيبه: فللشـريك أو الشـركاء البـاقين الشـفعة، بـأن يأخـذوه بـالثمن الـذي وقع عليه العقـد، كل على قدر ملكه.

وظاهر الحديث: أنه لا فـرق بين العقـار الـذي تمكن قسمته. وهـذا هو الصـحيح، لأن الحكمة في الشـفعة - وهي إزالة الضرر عن الشريك - موجودة في النـوعين. والحديث عام.

وأما ما اســـــتدل به على التفريق بين النـــــوعين: فضعيف.

واختلف العلمــاء في شــفعة الجــار على جــاره، إذا كـان بينهما حق من حقـوق الملكين، كطريق مشـترك، أو بئر أو نحوهما.

فمنهم: من أوجب الشفعة في هذا النوع، وقــال: إن هذا الاشتراك في هذا الحق نظير الاشـتراك في جميع الملك، والضرر في هذا كالضرر هناك، وهو الـذي تـدل عليه الأدلة.

ومنهم: من لم يثبت فيه شفعة، كما هو المشهور من مذهب الإمام أحمد.

ومنهم من أثبت الشفعة للجار مطلقا، وهذه الصورة عنده من باب أولى، كما هو مذهب الإمام أبي حنيفة.

والنبي أثبت للشريك الشفعة: إن شاء أخذ، وإن شاء لم يأخذ، وهو من جملة الحقوق، التي لا تسقط إلا بإسقاطها صريحا، أو بما يدل على الإسقاط.

وأما اشتراط المبادرة جدا إلى الأخذ بها، من غير أن يكون له فرصة في هذا الحق المتفق عليه: فهذا قول لا دليل عليه.

وما استدلوا به من الحديثين اللذين أوردوهما: الشفعة كحل العقال [1] ، الشفعة لمن واثبها [2] فلم يصح منهما عن النبي شيء.

فالصحيح: أن هذا الحق كغيره من الحقوق من خيار الشرط، أو العيب أو نحوها الحق ثابت إلا إن أسقطه صاحبه بقول أو فعل والله أعلم.

---

1 (?) ابن ماجه الأحكام (2500) .

2 (?) طلبها حين علم بالبيع ولم يتراخ في طلبها .

حديث يقول الله تعالى أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه

الحديث الثالث والأربعون

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله يقول الله تعالى: أنا ثالث الشريكين، ما لم يخن أحدهما صاحبه، فإن خانه خرجت من بينهما [3] . رواه أبو داود.

يدل هذا الحديث بعمومه على جواز أنواع الشركات كلها: شركة العنان، والأبدان، والوجوه، والمضاربة، والمفاوضة وغيرها من أنواع الشركات التي يتفق عليها المتشاركان.

ومن منع شيئا منها فعليه الدليل الدال على المنع، وإلا فالأصل الجواز، لهذا الحديث، وشموله. ولأن الأصل الجواز في كل المعاملات.

ويدل الحديث على فضل الشركات وبركتها، إذا بنيت على الصدق والأمانة. فإن من كان الله معه بارك له في رزقه، ويسر له الأسباب التي ينال بها الرزق، ورزقه من حيث لا يحتسب، وأعانه وسدده.

وذلك: لأن الشركات يحصل فيها التعاون بين الشركاء في رأيهم وفي أعمالهم. وقد تكون أعمالا لا يقدر عليها كل واحد بمفرده، وباجتماع الأعمال والأموال يمكن إدراكها.

---

3 (?) أبو داود البيوع (3383) .

والشركات أيضا يمكن تفريعها وتوسيعها في المكان والأعمال وغيرها.

وأيضا، فإن الغالب أنها يحصل بها من الراحة ما لا يحصل بتفرد الإنسان بعلمه. وقد يجري ويدير أحدهما العمل مع راحة الآخر، أو ذهابه لبعض مهماته، أو وقت مرضه.

وهذا كله مع الصدق والأمانة، فإذا دخلتها الخيانة، ونوى أحدهما أو كلاهما خيانة الآخر، وإخفاء ما يتمكن منه، خرج الله من بينهما. وذهبت البركة. ولم تتيسر الأسباب. والتجربة والمشاهدة تشهد لهذا الحديث. والله أعلم.

حديث إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية...

الحديث الرابع والأربعون

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له [1] . رواه مسلم.

دار الدنيا جعلها الله دار عمل، يتزود منها العباد من الخير، أو الشر، للدار الأخرى، وهي دار الجزاء. وسيندم المفرطون إذا انتقلوا من هذه الدار، ولم يتزودوا لآخرتهم ما يسعدهم، وحينئذ لا يمكن

[1] (?) مسلم الوصية (1631) ، الترمذي الأحكام (1376) ، النسائي الوصايا (3651) ، أبو داود الوصايا (2880) ، أحمد (2/372) ، الدارمي المقدمة (559) .

الاستدراك. ولا يتمكن العبد أن يزيد حسناته مثقال ذرة، ولا يمحو من سيئاته كذلك. وانقطع عمل العبد عنه إلا هذه الأعمال الثلاثة التي هي من آثار عمله.

الأول: الصدقة الجارية، أي: المستمر نفعها. وذلك كالوقف للعقارات التي ينتفع بمغلها، أو الأواني التي ينتفع باستعمالها، أو الحيوانات التي ينتفع بركوبها ومنافعها، أو الكتب والمصاحف التي ينتفع باستعمالها والانتفاع بها، أو المساجد والمدارس والبيوت وغيرها التي ينتفع بها.

فكلها أجرها جار على العبد ما دام ينتفع بشيء منها. وهذا من أعظم فضائل الوقف. وخصوصا الأوقاف التي فيها الإعانة على الأمور الدينية، كالعلم والجهاد، والتفرغ للعبادة، ونحو ذلك.

ولهذا اشترط العلماء في الوقف: أن يكون مصرفه على وجهة بر وقربة.

الثاني: العلم الذي ينتفع به من بعده، كالعلم الذي علمه الطلبة المستعدين للعلم، والعلم الذي نشره بين الناس، والكتب التي صنفها في أصناف العلوم النافعة.

وهكذا كل ما تسلسل الانتفاع بتعليمه مباشرة، أو كتابة، فإن أجره جار عليه. فكم من علماء هداة ماتوا من مئات من السنين، وكتبهم مستعملة، وتلاميذهم قد تسلسل خيرهم. وذلك فضل الله.

الثـالث: الولد الصـالح - ولد صـلب، أو ولد ابن، أو بنت، ذكر أو أنـثى - ينتفع والـده بصـلاحه ودعائـه. فهو في كل وقت يـدعو لوالديه بـالمغفرة والرحمـة، ورفع الدرجات، وحصول المثوبات.

وهذه المذكورة في هذا الحديث هي مضمون: ﴿ [illegible] ﴾ [1] [يس: 12] .

فما قـدموا: هو ما باشـروه من الأعمـال الحسـنة أو السيئة.

وآثارهم: ما ترتب على أعمـالهم، مما عمله غـيرهم، أو انتفع به غيرهم.

وجميع ما يصل إلى العبد من آثار عمله ثلاثة:

الأول: أمور عمل بها الغير بسببه وبدعايته وتوجيهه.

الثـاني: أمـور انتفع بها الغـير أي نفع كـان، على حسب ذلك النفع باقتدائه به في الخير.

الثـالث: أمـور عملها الغـير وأهـداها إليـه، أو صـدقة تصـدق بها عنه أو دعا لـه، سـواء أكـان من أولاده الحسـيين أو من أولاده الروحـيين الـذين تخرجـوا بتعليمـه، وهدايته وإرشـاده، أو من أقاربه وأصـحابه المحبين، أو من عموم المسلمين، بحسب مقاماته في الـدين، وبحسب ما أوصل إلى العبـاد من الخـير، أو تسبب بـه، وبحسب ما جعل الله له في قلـوب العبـاد

---

1 (?) سورة يس آية : 12 .

من الود الذي لا بد أن تترتب عليه آثاره الكثيرة الـتي منها: دعاؤهم، واستغفارهم له.

وكلها تدخل في هذا الحديث الشريف.

وقد يجتمع للعبد في شيء واحد عدة منـافع، كالولد الصالح العالم الذي سـعى أبـوه في تعليمـه، وكـالكتب التي يقفها أو يهبها لمن ينتفع بها.

ويسـتدل بهـذا الحـديث على الـترغيب في الـتزوج الذي من ثمراته حصـول الأولاد الصـالحين، وغيرها من المصـالح، كصـلاح الزوجة وتعليمها ما تنتفع بــه، وتنفع غيرها. والله أعلم.

حديث من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم فهو له

الحديث الخامس والأربعون

عن أسمر بن مضرس: أن رسول الله ﷺ قـال: ﴿من سبق إلى ما لم يسـبق إليه مسـلم فهو له﴾ [1] . رواه أبو داود.

يدخل في هذا الحديث: السـبق إلى جميع المباحـات التي ليست ملكا لأحد، ولا باختصاص أحد.

فيدخل فيه: السـبق إلى إحيـاء الأرض المـوات. فمن سـبق إليها باسـتخراج مـاء، أو إجرائه عليهـا، أو ببنـاء، ملكها. ولا يملكها بدون الإحياء.

[1] (?) أبو داود الخراج والإمارة والفيء (3071) .

لكن لو أقطعه الإمــام أو نائبــه، أو تحجر مواتا من دون إحيائه: فهو أحق به، ولا يملكه. فإن وجد متشوف للإحيــاء قيل لــه: إما أن تعمرهــا، وإما أن ترفع يــدك عنها.

ويدخل في ذلك: السبق إلى صيد البر، والبحر، وإلى المعادن غير الظاهرة، وغير الجاريـة. والسـبق إلى أخذ حطب أو حشيش أو منبوذ رغبة عنه.

والســبق إلى الجلــوس في المســاجد والمــدارس والأسـواق والربط إن لم يتوقف ذلك على نـاظر جعل له الــترتيب والتعــيين، فــيرجع فيه إلى نص الــواقفين والموصين.

فمن سـبق إلى شـيء من المباحـات الـتي لا مالك لهــا، فهو أحق بهــا. والملك فيها مقصــور على القــدر المأخوذ.

وكـذلك من سـبق إلى الأعمـال في الجعـالات الـتي يقول فيها صـاحبها: من عمل لي هـذا العمل فله كـذا: فهو المستحق للتقديم والجعل.

وكــذلك من ســبق إلى التقــاط اللقطة واللقيــط، وغيرها، فكله داخل في هذا الحديث. والله أعلم.

حديث ألحقوا الفرائض بأهلها

الحديث السادس والأربعون

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر [1] . متفق عليه.

حديث إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث

الحديث السابع والأربعون

عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله يقول: إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث [2] . رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

هذان الحديثان اشتملا على جل أحكام المواريث، وأحكام الوصايا. فإن الله تعالى فصل أحكام المواريث تفصيلا تاما واضحا، وأعطى كل ذي حق حقه، وأمر أن تلحق الفرائض بأهلها، فيقدمون على العصبات. فما بقي فهو لأولى رجل ذكر. وهم العصبة من الفروع الذكور، والأصول الذكور، وفروع الأصول الذكور، والولاء.

فيقدم من هذه الجهات إذا اجتمع عاصبان فأكثر: الأقرب جهة. فإن كانوا في جهة واحدة، قدم الأقرب

---

1 (?) البخاري الفرائض (6351) ، مسلم الفرائض (1615) ، الترمذي الفرائض (2098) ، أبو داود الفرائض (2898) ، ابن ماجه الفرائض (2740) ، أحمد (1/292) .

2 (?) الترمذي الوصايا (2120) ، أبو داود البيوع (3565) ، ابن ماجه الوصايا (2713) .

منزلـــة. فيقـــدم الابن على ابن الابن، والعم مثلا على ابن العم. فإن كـانوا في منزلة واحـدة، وتمـيز أحـدهم بقــوة القرابة ولا يتصــور ذلك إلا في فــروع الأصــول، كـالإخوة والأعمـام مطلقا وبـنيهم: قـدم الأقـوى - وهو الشقيق - على الذي لأب.

وهـذا هو المـراد بقوله «لأولى رجل ذكر» [1] أي: أقــربهم جهــة، أو منزلــة، أو قــوة، على حسب هــذا الترتيب.

وعلم من هــذا: أن صــاحب الفــرض مقــدم على العاصب في البــداءة، وأنه إن اســتغرقت الفــروض التركة سقط العاصب في جميع مسائل الفرائض، حتى في الحماريـة، وهي ما إذا خلفت زوجـا، وأمـا، وإخـوة لأم، وإخوة أشـقاء: فللـزوج النصـف، وللأم السـدس ؟ وللإخوة لأم الثلث.

فهـؤلاء أهل فــروض ألحقنا بهم فروضـهم، وسـقط الأشقاء؛ لأنهم عصبات. وهـذا هو الصـحيح لأدلة كثـيرة. هذا أوضحها.

ويسـتدل بقوله «ألحقـوا الفـرائض بأهلها» [2] على أن الفــروض إذا كـثرت وتـزاحمت ولم يحجب بعضـهم

---

[1] (?) البخاري الفرائض (6351) ، مسلم الفرائض (1615) ، الترمـذي الفرائض (2098) ، أبو داود الفـرائض (2898) ، ابن ماجـه الفـرائض (2740) ، أحمد (1/292) .

[2] (?) البخاري الفرائض (6351) ، مسلم الفرائض (1615) ، الترمـذي الفرائض (2098) ، أبو داود الفـرائض (2898) ، ابن ماجـه الفـرائض (2740) ، أحمد (1/292) .

بعضــا، فإنه يعــول لهم، وتنقص فروضــهم بحسب ما عالت به كالديون إذا أدلت على موجودات الغريم التي لا تكفي لدينهم؛ فإنهم يعطون بقدر ديـونهم. وهـذا من العدل.

فكل مشــتركين في اســتحقاق شــيء لا يمكن أن يكمل لكل واحد منهم، وليس لواحد منهم مزية تقديم: فإنهم ينقصون على قدر استحقاقهم. وذلك في الهبـات والوصـايا والأوقـاف وغيرهـا، كما أن الزائد لهم بقـدر أملاكهم واستحقاقهم.

ويــدل الحــديث أنه إذا لم يوجد صــاحب فــرض، فالمال كله للعصبات على حسب الترتيب السابق.

وكــذلك يــدل على أنه إذا لم يوجد إلا أصــحاب الفروض، ولم يوجد عاصب، فإنه يرد عليهم على قـدر فروضــهم، كما تعــال عليهم؛ لأن من حكمة فــرض الفـروض وتقـديرها: أن تبقى البقية للعاصـب. فـإذا لم يوجد رد على المستحقين لعدم المزاحم.

ويدل الحديث على صحة الوصية لغير الوارث. ولكن في ذلك تفصـيل: إن كــان الموصي غنيا ويــدع ورثته أغنياء، استحبت. وإن كان فقيرا وورثته يحتـاجون جميع ميراثه، لفقـرهم أو كـثرتهم، فـالأولى له أن لا يوصـي، بل يدع ماله لورثته.

وأما الوصية للوارث، فالحديث دل على منعها. وعلل ذلك بقوله إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث .[1]

فمن أوصى لوارث فقد تعدى حدود الله، وفضل بعض الورثة على بعض. وسواء وقع ذلك على وجه الوصية أو الهبة للوارث، كما هو اتفاق العلماء، أو على وجه الوقف لثلثه على بعض ورثته.

وشذ بعضهم في هذه المسألة، فأجازها. وهو مناف للفظ الحديث ومعناه.

وأما الوصية للأجنبي، أو للجهات الدينية، فتجوز بالثلث فأقل. وما زاد على الثلث، يتوقف على إجازة الورثة.

حديث ثلاثة حق على الله عونهم المكاتب يريد الأداء...

الحديث الثامن والأربعون

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ثلاثة حق على الله عونهم: المكاتب يريد الأداء، والمتزوج يريد العفاف، والمجاهد في سبيل الله [2] رواه أهل السنن إلا النسائي.

1 (?) الترمذي الوصايا (2120) ، أبو داود البيوع (3565) ، ابن ماجه الوصايا (2713) .

2 (?) الترمذي فضائل الجهاد (1655) ، النسائي الجهاد (3120) ، ابن ماجه الأحكام (2518) ، أحمد (2/437) .

وذلك: أن الله تعالى وعد المنفقين بالخلف العاجل، وأطلق النفقة. وهي تنصرف إلى النفقات التي يحبها الله؛ لأن وعده بالخلف من باب الثواب الذي لا يكون إلا على ما يحبه الله.

وأما النفقات في الأمور التي لا يحبها الله: إما في المعاصي، وإما في الإسراف في المباحات، فالله لم يضمن الخلف لأهلها، بل لا تكون إلا مغرما.

وهذه الثلاثة المذكورة في هذا الحديث من أفضل الأمور التي يحبها الله.

فالجهاد في سبيل الله هو سنام الدين وذروته وأعلاه. وسواء كان جهادا بالسلاح، أو جهادا بالعلم والحجة، فالنفقة في هذا السبيل مخلوفة وسالك هذا السبيل معان من الله، ميسر له أمره.

وأما المكاتب، فالكتابة قد أمر الله بها في قوله تعالى: ﴿[illegible]﴾ [1] [النور: 33] ، أي: صلاحا في تقويم دينهم ودنياهم. فالسيد مأمور بذلك. والعبد المكاتب الذي يريد الأداء ويتعجل الحرية والتفرغ لدينه ودنياه يعينه الله، وييسر له أموره، ويرزقه من حيث لا يحتسب.

وعلى السيد: أن يرفق بمكاتبه في تقدير الآجال التي تحل فيها نجوم الكتابة، ويعطيه من مال الكتابة إذا أداها ربعها.

---

1 (?) سورة النور آية : 33 .

وفي قوله تعالى في حق المكاتبين: ﴿[illegible]﴾ [1] [النور: 33] ، أمر للسيد ولغيره من المسلمين. ولذلك جعل الله له نصيبا من الزكاة في قوله: ﴿[illegible]﴾ [2] [التوبة: 60] ، وهذا من عونه تعالى.

وقد ثبت عن النبي ﷺ ما هو أعم من هذا، فقال: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أداها الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله» [3] . رواه البخاري.

وأما النكاح: فقد أمر الله به ورسوله. ورتب عليه من الفوائد شيئا كثيرا: عون الله، وامتثال أمر الله ورسوله، وأنه من سنن المرسلين.

وفيه: تحصين الفرج. وغض البصر، وتحصيل النسل، والإنفاق على الزوجة والأولاد؛ فإن العبد إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له أجرا، وحسنات عند الله، سواء كانت مأكولا أو مشروبا أو ملبوسا أو مستعملا في الحوائج كلها. كله خير للعبد، وحسنات جارية. وهو أفضل من نوافل العبادات القاصرة.

وفيه: التذكر لنعم الله على العبد، والتفرغ لعبادته، وتعاون الزوجين على مصالح دينهما ودنياهما، وقد قال تعالى: ﴿[illegible]﴾ [4] [النساء: 3]

---

1 (?) سورة النور آية : 33 .

2 (?) سورة التوبة آية : 60 .

3 (?) البخاري في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس (2257) ، ابن ماجه الأحكام (2411) ، أحمد (2/417) .

4 (?) سورة النساء آية : 3 .

، وقال تنكح المرأة لأربع: لمالها، وجمالها، وحسبها، ودينها، فاظفر بذات الدين تربت يمينك [1] لما فيها من صلاح الأحوال والبيت والأولاد، وسكون قلب الزوج وطمأنينته، فإن حصل مع الدين غيره، فذاك، وإلا فالدين أعظم الصفات المقصودة، قال تعالى: [2] [النساء: 34] .

وعلى الزوجة: القيام بحق الله، وحق بعلها، وتقديم حق البعل على حقوق الخلق كلهم.

وعلى الزوج: السعي في إصلاح زوجته، وفعل جميع الأسباب التي تتم بها الملاءمة بينهما، فإن الملاءمة هي المقصود الأعظم. ولهذا ندب النبي إلى النظر إلى المرأة التي يريد خطبتها، ليكون على بصيرة من أمره، والله أعلم.

---

1 (?) البخاري النكاح (4802) ، مسلم الرضاع (1466) ، النسائي النكاح (3230) ، أبو داود النكاح (2047) ، ابن ماجه النكاح (1858) ، أحمد (2/428) ، الدارمي النكاح (2170) .

2 (?) سورة النساء آية : 34 .

حديث يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة

الحديث التاسع والأربعون

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله يحـرم من الرضـاعة ما يحـرم من الـولادة [1] متفق عليه.

وذلـــك: أن المحرمـــات من النسب بنص القـــرآن والإجمـاع: الأمهـات وإن علـون من كل جهـة، والبنـات وإن نــزلن من كل جهــة، والأخــوات مطلقــا، وبنــات الإخوة، وبنات الأخوات، وإن نزلن، والعمات، والخالات.

فجميع القرابــات حــرام، إلا بنــات الأعمــام، وبنــات العمات، وبنات الأخوال، وبنات الخالات.

وهـــذه الســـبع محرمـــات في الرضـــاع من جهة المرضــعة، وصــاحب اللبن، إذا كــان الرضــاع خمس رضعات فأكثر، في الحولين.

وأما من جهة أقـارب الراضـع، فـإن التحـريم يختص بذرية الراضــع. وأما أبــوه من النسب وأمه وأصــولهم وفروعهم، فلا تعلق لهم بالتحريم.

وكــذلك يحــرم الجمع بين الأخــتين، وبين المــرأة وعمتها، أو خالتها في النسب. ومثل ذلك في الرضاع.

---

1 (?) البخـاري النكـاح (4941) ، مسـلم الرضـاع (1445) ، الترمـذي الرضاع (1148) ، النسائي النكاح (3318) ، أبو داود النكاح (2057) ، مالك الرضاع (1278) .

وكذلك تحرم أمهات الزوجة وإن علــون، وبناتها وإن نـزلن، إذا كـان قد دخل بزوجتـه، وزوجـات الآبـاء وإن علـوا، وزوجـات الأبنـاء وإن نزلـوا من كل جهـة، ومثل ذلك في الرضاع.

ومســائل تحــريم الجمع والصــهر في الرضــاع فيه خلاف. ولكن مــذهب جمهــور العلمــاء والأئمة الأربعــة، تحريم ذلك للعمومات.

حديث لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضي منها آخر

الحديث الخمسون

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله لا يفــرك مؤمن مؤمنة: إن كــره منها خلقا رضي منها آخر [1] . رواه مسلم.

هذا الإرشاد من النبي للــزوج في معاشــرة زوجته من أكــبر الأســباب والــدواعي إلى حسن العشــرة بـالمعروف، فنهى المـؤمن عن سـوء عشـرته لزوجتـه. والنهي عن الشيء أمر بضده. وأمره أن يلحظ ما فيها من الأخلاق الجميلة، والأمور الـتي تناسـبه، وأن يجعلها في مقابلة ما كره من أخلاقها فإن الـزوج إذا تأمل ما في زوجته من الأخلاق الجميلة، والمحاسن التي يحبها، ونظر إلى السبب الذي دعاه إلى التضـجر منها وسـوء عشـرتها، رآه شـيئا واحـدا أو اثـنين مثلاً، وما فيها مما

[1] (?) مسلم الرضاع (1469) ، أحمد (2/329) .

يحب أكــثر. فــإذا كــان منصــفا غض عن مســاوئها لاضمحلالها في محاسنها.

وبهــذا: تــدوم الصــحبة، وتــؤدى الحقــوق الواجبة المســتحبة. وربما أن ما كــره منها تســعى بتعديله أو تبديله.

وأما من غض عن المحاســن، ولحظ المســاوئ ولو كانت قليلة، فهذا من عدم الإنصاف. ولا يكاد يصفو مع زوجته.

والناس في هذا ثلاثة أقسام.

أعلاهم: من لحظ الأخلاق الجميلة والمحاســن، وغض عن المساوئ بالكلية وتناساها.

وأقلهم توفيقا وإيمانا وأخلاقا جميلــــــة، من عكس القضية، فأهدر المحاسن مهما كـانت، وجعل المسـاوئ نصب عينيـه. وربما مـددها وبسـطها وفسـرها بظنـون وتأويلات تجعل القليل كثيرا، كما هو الواقع.

والقسم الثـالث: من لحظ الأمــرين، ووازن بينهمــا، وعامل الزوجة بمقتضى كل واحد منهـا. وهـذا منصـف. ولكنه قد حرم الكمال.

وهــــذا الأدب الــــذي أرشد إليه ينبغي ســــلوكه واستعماله مع جميع المعاشرين والمعاملين؛ فــإن نفعه الــديني والــدنيوي كثــير، وصــاحبه قد ســعى في راحة قلبــه، وفي الســبب الــذي يــدرك به القيــام بــالحقوق الواجبة والمســتحبة؛ لأن الكمــال في النــاس متعــذر.

وحسب الفاضل أن تعد معايبه. وتوطين النفس على ما يجيء من المعاشرين مما يخالف رغبة الإنسان، يسهل عليه حسن الخلق، وفعل المعروف والإحسان مع الناس.. والله الموفق.

حديث لا تسأل الإمارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها...

الحديث الحادي والخمسون

عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول الله   يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها عن غير مسألة أعنت عليها. وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها، فائت الذي هو خير، وكفر عن يمينك [1] . متفق عليه.

هذا الحديث احتوى على جملتين عظيمتين:

إحداهما: أن الإمارة وغيرها من الولايات على الخلق، لا ينبغي للعبد أن يسألها، ويتعرض لها. بل يسأل الله العافية والسلامة، فإنه لا يدري، هل تكون الولاية خيرا له أو شرا ؟ ولا يدري، هل يستطيع القيام بها، أم لا ؟

[1] (?) البخاري الأيمان والنذور (6248) ، مسلم الأيمان (1652) ، الترمذي النذور والأيمان (1529) ، النسائي الأيمان والنذور (3782) ، أبو داود الخراج والإمارة والفيء (2929) ، أحمد (5/62) ، الدارمي النذور والأيمان (2346) .

فإذا سألها وحرص عليها، وكل إلى نفسه. ومتى وكل العبد إلى نفسه، لم يوفق، ولم يسدد في أموره، ولم يعن عليها، لأن سؤالها ينبئ عن محذورين:

الأول: الحرص على الدنيا والرئاسة، والحرص يحمل على الريبة في التخوض في مال الله، والعلو على عباد الله.

الثاني: فيه نوع اتكال على النفس، وانقطاع عن الاستعانة بالله. ولهذا قال: وكلت إليها [1] .

وأما من لم يحرص عليها ولم يتشوف لها، بل أتته من غير مسألة ورأى من نفسه عدم قدرته عليها، فإن الله يعينه عليها، ولا يكله إلى نفسه لأنه لم يتعرض للبلاء، ومن جاءه البلاء بغير اختياره حمل عنه، ووفق للقيام بوظيفته. وفي هذه الحال يقوى توكله على الله تعالى، ومتى قام العبد بالسبب متوكلا على الله نجح.

وفي قوله أعنت عليها [2] دليل على أن الإمارة وغيرها من الولايات الدنيوية جامعة للأمرين: للدين،

---

1 (?) البخاري الأيمان والنذور (6248) ، مسلم الأيمان (1652) ، الترمذي النذور والأيمان (1529) ، النسائي آداب القضاة (5384) ، أبو داود الخراج والإمارة والفيء (2929) ، أحمد (5/62) ، الدارمي النذور والأيمان (2346) .

2 (?) البخاري الأيمان والنذور (6248) ، مسلم الأيمان (1652) ، الترمذي النذور والأيمان (1529) ، النسائي آداب القضاة (5384) ، أبو داود الخراج والإمارة والفيء (2929) ، أحمد (5/62) ، الدارمي النذور والأيمان (2346) .

وللدنيا، فـإن المقصـود من الولايـات كلهـا: إصـلاح دين الناس ودنياهم.

ولهـذا: يتعلق بها الأمر والنهي، والإلـزام بالواجبـات، والردع عن المحرمات، والإلزام بـأداء الحقـوق. وكـذلك أمور السياسة والجهاد، فهي لمن أخلص فيها لله وقام بالواجب من أفضل العبادات، ولمن لم يكن كـذلك من أعظم الأخطار.

ولهذا كانت من فـروض الكفايـات؛ لتوقف كثـير من الواجبات عليها.

فـإن قيـل: كيف طلب يوسف ولاية الخـزائن المالية في قوله: [illegible] [1] [يوسف: 55] .

قيل: الجـواب عنه قوله تعـالى: [illegible] [2] [يوسف: 55] . فهو إنما طلبها لهذه المصلحة التي لا يقـوم بها غـيره: من الحفظ الكامـل، والعلم بجميع الجهات المتعلقة بهذه الخـزائن. من حسن الاسـتخراج، وحسن التصـريف، وإقامة العـدل الكامـل. فهو لما رأى الملك استخلصه لنفسه وجعله مقـــدما عليـــه، وفي المحل العالي، وجب عليه أيضا النصيحة التامـة، للملك والرعية. وهي متعينة في ولايته.

1 (?) سورة يوسف آية : 55 .
2 (?) سورة يوسف آية : 55 .

ولهـذا: لما تـولى خـزائن الأرض سـعى في تقوية الزراعة جـدا. فلم يبق موضع في الـديار المصـرية من أقصـاها إلى أقصـاها يصـلح للزراعة إلا زرع في مـدة سبع سنين. ثم حصـنه وحفظه ذلك الحفظ العجيب. ثم لما جاءت السنون الجدب، واضطر الناس إلى الأرزاق، سعى في الكيل للناس بالعدل، فمنع التجار من شـراء الطعام خوف التضـييق على المحتـاجين، وحصل بـذلك من المصالح والمنافع شيء لا يعد ولا يحصـى، كما هو معروف.

الجملة الثانيـــــــة: قوله وإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيرا منها فائت الذي هو خـير، وكفر عن يمينك [1].

يشمل من حلف على ترك واجب، أو ترك مسـنون؛ فإنه يكفر عن يمينـه، ويفعل ذلك الـواجب والمسـنون الـذي حلف على تركـه. ويشـمل من حلف على فعل محرم، أو فعل مكروه، فإنه يـؤمر بـترك ذلك المحـرم والمكروه، ويكفر عن يمينه.

فالأقسام الأربعة داخلة في قوله فائت الـذي هو خـير [2] لأن فعل المـأمور مطلقـا، وتـرك المنهي مطلقا: من الخير.

[1] (?) البخـاري كفـارات الأيمـان (6343) ، مسـلم الأيمـان (1652) ، الترمذي النذور والأيمان (1529) ، النسائي الأيمان والنـذور (3782) ، أحمد (5/62) ، الدارمي النذور والأيمان (2346) .

[2] (?) البخاري المغازي (4124) ، مسـلم الأيمـان (1649) ، ابن ماجـه الكفارات (2107) ، أحمد (4/401) .

وهـذا هو معـنى قوله تعـالى: ﴿ [illegible] ﴾[1]

[البقـرة: 224] ، أي: لا تجعلـوا اليمين عـذرا لكم وعرضة ومانعا لكم من فعل الـبر والتقـوى، والصـلح بين الناس إذا حلفتم على ترك هذه الأمور، بل كفـروا أيمانكم، وافعلوا البر والتقوى، والصلح بين الناس.

ويؤخذ من هـذا الحـديث: أن حفظ اليمين في غـير هـذه الأمـور أولى، لكن إن كـانت اليمين على فعل مأمور، أو ترك منهي، لم يكن له أن يحنث. وإن كانت في المباح، خير بين الأمرين. وحفظها أولى.

واعلم أن الكفـارة لا تجب إلا في اليمين المنعقـدة على مسـتقبل إذا حلف وحنث. وهي على التخيـير بين العتق، أو إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم. فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام.

وأما اليمين على الأمـــور الماضـــية أو لغو اليمين، كقول الإنسان: لا والله، وبلى والله في عـرض حديثـه، فلا كفارة فيها. والله أعلم.

---

[1] (?) سورة البقرة آية : 224 .

حديث من نذر أن يطيع الله فليطعه...

الحديث الثاني والخمسون

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه [1] . رواه البخاري:

النذر إلزام العبد نفسه طاعة لله: إما بدون سبب، كقوله: لله علي أو نذرت عتق رقبة، أو صيام كذا وكذا، أو الصدقة بكذا وكذا. وإما بسبب، كأن يعلق ذلك على قدوم غائبه، أو برء مريض، أو حصول محبوب، أو زوال مكروه، فمتى تم له مطلوبه وجب عليه الوفاء.

وهذا الحديث شامل للطاعات كلها. فمن نذر طاعة واجبة ومستحبة، وجب عليه الوفاء بالنذر، وليس عنه كفارة بل يتعين الوفاء، كما أمره النبي ﷺ في هذا الحديث. وكما أثنى الله على الموفين بنذرهم في قوله: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾ [2] [الإنسان: 7] ، مع أن عقد النذر مكروه، كما نهى فيه عن النذر. وقال: إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل [3] .

---

1 (?) البخاري الأيمان والنذور (6318) ، الترمذي النذور والأيمان (1526) ، النسائي الأيمان والنذور (3807) ، أبو داود الأيمان والنذور (3289) ، ابن ماجه الكفارات (2126) ، أحمد (6/36) ، مالك النذور والأيمان (1031) ، الدارمي النذور والأيمان (2338) .

2 (?) سورة الإنسان آية : 7 .

3 (?) البخاري الأيمان والنذور (6315) ، مسلم النذر (1639) ، النسائي الأيمان والنذور (3803) ، أبو داود الأيمان والنذور (3287) ، أحمد (2/86) ، الدارمي النذور والأيمان (2340) .

وأما نـــذر المعصـــية، فيتعين على العبد أن يـــترك معصـــية الله ولو نـــذرها. وبقية أقســـام النـــذر، كنـــذر المعصية، والنذر المباح، ونذر اللجاج، والغضـب، حكمها حكم اليمين في الحنث، فيها كفــارة يمين لمشــاركتها في المعنى لليمين. والله أعلم.

حديث المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم...

الحديث الثالث والخمسون

عن علي قــال: قــال رســول الله المســلمون تتكافأ دمــاؤهم، ويســعى بــذمتهم أدنــاهم، ويــرد عليهم أقصــاهم، وهم يد على من ســواهم. ألا لا يقتل مســلم بكـــــافر، ولا ذو عهد في عهـــــده [1] . رواه أبو داود والنسائي. ورواه ابن ماجه عن ابن عباس.

هذا الحديث كالتفصيل لقوله تعالى: [2] . [الحجرات: 10] ، وقوله وكونوا عباد الله إخوانا [3] .

فعلى المؤمنين: أن يكونـوا متحـابين، متصـافين غـير متباغضين ولا متعادين، يسعون جميعا لمصالحهم الكلية الـتي بها قـوام دينهم ودنيـاهم، لا يتكـبر شـريف على وضيع، ولا يحتقر أحد منهم أحدا. فدماؤهم تتكافـأ، فإنه

---

[1] (?) أبو داود الجهاد (2751) ، ابن ماجه الديات (2685) ، أحمد (2/215) .

[2] (?) سورة الحجرات آية : 10 .

[3] (?) البخاري الأدب (5717) ، مسلم البر والصلة والآداب (2563) ، أحمد (2/394) ، مالك الجامع (1684) .

لا يشترط في القصاص إلا المكافأة في الدين، فلا يقتل المسلم بالكافر، كما في هذا الحديث، والمكافأة في الحرية، فلا يقتل الحر بالعبد.

وأما بقية الأوصاف، فالمسلمون كلهم على حد سواء. فمن قتل أو قطع طرفا متعمدا عدوانا، فلهم أن يقتصوا منه بشرط المماثلة في العضو، لا فرق بين الصغير بالكبير، وبالعكس، والذكر بالأنثى وبالعكس، والعالم بالجاهل، والشريف بالوضيع، والكامل بالناقص كالعكس في هذه الأمور.

قوله ويسعى بذمتهم أدناهم [1] يعني: أن ذمة المسلمين واحدة. فمتى استجار الكافر بأحد من المسلمين وجب على بقيتهم تأمينه، كما قال تعالى: [illegible] [2] [التوبة: 6]، فلا فرق في هذا بين إجارة الشريف الرئيس، وبين آحاد الناس.

وقوله ويرد عليهم أقصاهم [3] أي: في التأمين وكذلك اشتراك الجيوش مع سراياه التي تذهب فتغير أو تحرس، فمتى غنم الجيش، أو غنم أحد السرايا التابعة للجيش، اشترك الجميع في المغنم. ولا يختص بها المباشر؛ لأنهم كلهم متعاونون على مهمتهم.

---

1 (?) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة (6870) ، مسلم الحج (1370) ، الترمذي الولاء والهبة (2127) ، النسائي القسامة (4734) ، أبو داود الديات (4530) ، أحمد (1/119) .

2 (?) سورة التوبة آية : 6 .

3 (?) أبو داود الجهاد (2751) ، أحمد (2/180) .

وقوله ﴿وهم يد على من سـواهم﴾ [1] أي: يجب على جميع المسـلمين في جميع أنحـاء الأرض أن يكونوا يدا على أعـدائهم من الكفـار، بـالقول والفعـل، والمسـاعدات والمعاونة في الأمـور الحربيـة، والأمـور الاقتصادية، والمدافعة بكل وسيلة.

فعلى المسلمين: أن يقومـوا بهـذه الواجبـات بحسب اسـتطاعتهم، لينصـرهم الله ويعـزهم، ويـدفع عنهم بالقيام بواجبات الإيمان عدوان الأعداء، فنسـأله تعـالى أن يوفقهم لذلك.

وقوله ﴿ولا ذو عهد في عهـده﴾ [2] أي: لا يحل قتل من له عهد من الكفـار بذمة أو أمـان أو هدنـة، فإنه لما قـال: ﴿لا يقتل مسـلم بكـافر﴾ [3] لما احـترز بذلك البيان عن تحريم قتل المعاهـد، لئلا يظن الظـان جوازه. والله أعلم.

---

1 (?) النسائي القسامة (4734) ، أحمد (1/119) .

2 (?) النسائي القسامة (4735) ، أبو داود الديات (4530) ، أحمد (1/119) .

3 (?) البخاري الجهاد والسير (2882) ، النسائي القسامة (4744) ، ابن ماجه الديات (2658) ، أحمد (1/79) ، الدارمي الديات (2356) .

حديث من تطبب ولم يعلم منه طب فهو ضامن

الحديث الرابع والخمسون

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جـده: أن رسـول الله قـــــــال: من تطبب ولم يعلم منه طب، فهو ضامن [1] . رواه أبو داود والنسائي.

هـذا الحـديث يـدل بلفظه وفحـواه على: أنه لا يحل لأحد أن يتعاطى صناعة من الصناعات وهو لا يحسنها، سواء كان طبا أو غيره، وأن من تجرأ على ذلـك، فهو آثم. وما تـــرتب على عمله من تلف نفس أو عضو أو نحوهمـا، فهو ضـامن لـه، وما أخـذه من المـال في مقابلة تلك الصناعة التي لا يحسـنها، فهو مـردود على باذلـه؛ لأنه لم يبذله إلا بتغريـره وإيهامه أنه يحســن، وهو لا يحسن، فيدخل في الغش، و من غشنا فليس منا [2] .

ومثل هذا البنـاء والنجـار والحـداد والخـراز والنسـاج ونحــوهم ممن نصب نفسه لــذلك، موهما أنه يحسن الصنعة، وهو كاذب.

ومفهوم الحديث: أن الطبيب الحاذق ونحوه إذا باشر ولم تجن يده، وتـرتب على ذلك تلـف، فليس بضـامن؛ لأنه مـأذون فيه من المكلف أو وليـه. فكل ما تــرتب

---

1 (?) النسائي القسامة (4830) ، أبو داود الديات (4586) ، ابن ماجه الطب (3466) .

2 (?) ابن ماجه التجارات (2225) .

على المأذون فيه، فهو غـير مضـمون، وما تـرتب على غير ذلك المأذون فيه، فإنه مضمون.

ويسـتدل بهـذا على: أن صـناعة الطب من العلـوم النافعة المطلوبة شرعا وعقلا.ـ والله أعلم.

حديث ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم

الحديث الخامس والخمسون

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ ﴿ادرءوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فـإن كـان له مخـرج، فخلـوا سـبيله، فـإن الإمـام إن يخطئ في العفـــو، خـــير من أن يخطئ في العقوبة﴾ [1] . رواه الترمذي مرفوعا وموقوفا.

هذا الحديث: يـدل على أن الحـدود تـدرأ بالشـبهات. فـإذا اشـتبه أمر الإنسـان وأشـكل علينا حالـه، ووقعت الاحتمـــالات: هل فعل مـــوجب الحد أم لا ؟ وهل هو عـالم أو جاهل ؟ وهل هو متـأول معتقد حله أم لا ؟ وهل له عذر عقد أو اعتقاد ؟. درئت عنه العقوبة، لأننا لم نتحقق موجبها يقينا.

ولو تـــــردد الأمر بين الأمـــــرين، فالخطأ في درء العقوبة عن فاعل سـببها، أهـون من الخطأ في إيقـاع العقوبة على من لم يفعل ســـببها، فـــإن رحمة الله سبقت غضبه، وشريعته مبنية على اليسر والسهولة.

---

[1] (?) الترمذي الحدود (1424) .

[illegible]

وقد ذكر العلماء على هـذا الأصل في أبـواب الحـدود أمثلة كثيرة، وأكثرها موافق لهذا الحديث.

ومنهـا: أمثلة فيها نظـر، فـإن الاحتمـال الـذي يشـبه الوهم والخيال، لا عبرة به. والميزان لفظ هذا الحديث. فإن وجدتم له، أو فإن كان له مخرج، فخلوا سبيله.

وفي هــذا الحــديث: دليل على أصــل. وهــو: أنه إذا تعـارض مفسـدتان تحقيقا أو احتمـالا، راعينا المفسـدة الكبرى، فدفعناها تخفيفا للشر. والله أعلم.

حديث لا طاعة في معصية إنما الطاعة في المعروف

الحديث السادس والخمسون

عن علي ﵁ قـال: قـال رسـول الله ﷺ «لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف» [1] . متفق عليه.

هـــــذا الحـــــديث: قيد في كل من تجب طاعته من الـولاة، والوالـدين والـزوج، وغـيرهم. فـإن الشـارع أمر بطاعة هؤلاء.

وكل منهم طاعته فيما يناسب حالـــــــــــــه، وكلها بالمعروف. فإن الشارع رد الناس في كثير مما أمـرهم

---

[1] (?) البخـاري أخبـار الآحـاد (6830) ، مسـلم الإمـارة (1840) ، النسائي البيعة (4205) ، أبو داود الجهاد (2625) ، أحمد (1/82) .

به إلى العـــرف والعـــادة، كـــالبر والصـــلة، والعـــدل والإحسان العام. فكذلك طاعة من تجب طاعته.

وكلها تقيد بهـذا القيـد، وأن من أمر منهم بمعصـية الله بفعل محـرم، أو تـرك واجب، فلا طاعة لمخلـوق في معصـية اللـه، فـإذا أمر أحـدهم بقتل معصـوم، أو ضــربه، أو أخذ مالــه، أو بــترك حج واجب، أو عبــادة واجبـــة، أو بقطيعة من تجب صـــلته، فلا طاعة لهم، وتقدم طاعة الله على طاعة الخلق.

ويفهم من هـــذا الحـــديث: أنه إذا تعارضت طاعة هؤلاء الواجبة، ونافلة من النوافل، فإن طاعتهم تقـدم: لأن تــرك النفل ليس بمعصـية، فــإذا نهى زوجته عن صـيام النفـل، أو حج النفـل، أو أمر الـوالي بـأمر من أمـور السياسة يسـتلزم تـرك مسـتحب، وجب تقـديم الواجب.

وقوله إنما الطاعة في المعـــــروف [1] كما أنه يتناول ما ذكرنـا، فإنه يتنـاول أيضا تعليق ذلك بالقـدرة والاستطاعة، كما تعلق الواجبات بأصل الشرع.

وفي الحـــــديث عليكم الســـــمع والطاعة فيما استطعتم [2] .

والله أعلم.

---

1 (?) البخـاري الأحكـام (6726) ، مسـلم الإمـارة (1840) ، النسـائي البيعة (4205) ، أبو داود الجهاد (2625) ، أحمد (1/82) .

2 (?) البخـاري الأحكـام (6776) ، مسـلم الإمـارة (1867) ، الترمـذي السير (1593) ، النسـائي البيعـة (4187) ، أبـو داود الخـراج والإمـارة والفيء (2940) ، أحمد (2/9) ، مالك الجامع (1841) .

حديث إذا حكم الحاكم فاجتهد وأصاب فله أجران...

الحديث السابع والخمسون

عن عبد الله بن عمــــرو، وأبي هريـــــرة رضي الله عنهما قــالا: قــال رســول الله ﷺ: «إذا حكم الحــاكم، فاجتهد وأصاب، فله أجـران. وإذا حكم، فاجتهد فأخطـأ، فله أجر واحد» [1] . متفق عليه.

المراد بالحـاكم: هو الـذي عنـده من العلم ما يؤهله للقضاء. وقد ذكر أهل العلم شروط القاضـي. فبعضـهم بالغ فيهـا، وبعضـهم اقتصر على العلم الـذي يصـلح به للفتوى. وهو الأولى.

ففي هـــذا الحـــديث: أن الجاهل لو حكم وأصــاب الحكم، فإنه ظـــالم آثم، لأنه لا يحل له الإقـــدام على الحكم وهو جاهل.

ودل على: أنه لا بد للحاكم من الاجتهاد. وهو نوعان:

اجتهـاد في إدخـال القضـية الـتي وقع فيها التحـاكم بالأحكام الشرعية.

واجتهاد في تنفيذ ذلك الحق على القريب والصـديق وضـدهما، بحيث يكـون النـاس عنـده في هـذا البـاب واحـــدا، لا يفضل أحـــدا على أحـــد، ولا يميله الهـــوى، فمتى كان كذلك فهو مأجور على كل حـال: إن أصـاب

---

[1] (?) البخاري الاعتصـام بالكتـاب والسـنة (6919) ، مسـلم الأقضـية (1716) ، أبو داود الأقضية (3574) ، ابن ماجه الأحكام (2314) ، أحمد (4/204) .

فله أجــران. وإن أخطأ فله أجر واحــد، وخطــؤه معفو عنــه، لأنه بغــير اســتطاعته. والعــدل كغــيره معلق بالاستطاعة.

والفرق بين الحاكم المجتهد، وبين صاحب الهوى: أن صـــــاحب الحق قد فعل ما أمر به من حسن القصد والاجتهاد، وهو مأمور في الظاهر باعتقاد ما قام عنـده عليه دليلــه، بخلاف صــاحب الهــوى، فإنه يتكلم بغــير علم، وبغير قصد للحق. قاله شيخ الإسلام.

وفي هذا: فضـيلة الحـاكم الـذي على هـذا الوصـف، وأنه يغنم الأجر والثواب في كل قضية يحكم بها.

ولهذا: كان القضاء من أعظم فروض الكفايــات؛ لأن الحقوق بين الخلق كلها مضـطرة للقاضي عند التنــازع أو الاشتباه.

وعليــه: أن يجاهد نفسه على تحقيق هــذا الاجتهــاد الـذي تـبرأ به ذمتـه، وينـال به الخـير، والأجر العظيم.. والله أعلم.

حديث لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال دماء قوم وأموالهم

الحديث الثامن والخمسون

عن ابن عباس قال: قال رسول الله لو يعطى الناس بدعواهم لادعى رجال دماء قوم وأموالهم، ولكن اليمين على المدعى عليه [1] . رواه مسلم.

وفي لفظ عند البيهقي: البينة على المدعي، واليمين على من أنكر [2] .

هذا الحديث عظيم القدر. وهو أصل كبير من أصول القضايا والأحكام؛ فإن القضاء بين الناس إنما يكون عند التنازع: هذا يدعي على هذا حقا من الحقوق، فينكره، وهذا يدعي براءته من الحق الذي كان ثابتا عليه.

فبين أصلا يفض نزاعهم، ويتضح به المحق من المبطل.

فمن ادعى عينا من الأعيان، أو دينا، أو حقا من الحقوق وتوابعها على غيره، وأنكره ذلك الغير، فالأصل مع المنكر.

---

1 (?) البخاري تفسير القرآن (4277) ، مسلم الأقضية (1711) ، الترمذي الأحكام (1342) ، النسائي آداب القضاة (5425) ، أبو داود الأقضية (3619) ، ابن ماجه الأحكام (2321) .

2 (?) الترمذي الأحكام (1341) .

فهـذا المـدعي إن أتى ببينة تثبت ذلك الحـق، ثبت لـه، وحكم له به وإن لم يـأت ببينـة، فليس له على الآخر إلا اليمين.

وكذلك من ادعى براءته من الحق الذي عليه، وأنكر صاحب الحق ذلك، وقـال: إنه بـاق في ذمتـه، فـإن لم يأت مدعي الوفاء والبراءة ببينة، وإلا حكم ببقـاء الحق في ذمته، لأنه الأصل. ولكن على صـاحب الحق اليمين ببقائه.

وكذلك دعوى العيوب، والشروط، والآجال، والوثائق: كلها من هذا الباب.

فعلم أن هـذا الحـديث تضـطر إليه القضـاة في مسـائل القضـاء كلهـا؛ لأن البينة اسم للمـبين الحـق. وهي تتفاوت بتفاوت الحقوق، وقد فصلها أهل العلم.

وقد بين في هـذا الحـديث الحكم، وبين الحكمة في هذه الشـريعة الكليـة، وأنها عين صـلاح العبـاد في دينهم ودنيـاهم، وأنه لو يعطى النـاس بـدعواهم لكـثر الشر والفساد، ولادّعى رجال دماء قوم وأموالهم.

فعلم أن شريعة الإسلام بها صلاح البشر. وإذا أردت أن تعـرف ذلـك، فقابل بين كل شـريعة من شـرائعه الكلية وبين ضـدها، تجد الفـرق العظيم، وتشـهد أن الذي شرعها حكيم عليم، رحيم بالعباد؛ لاشـتمالها على الحكمة والعـدل، والرحمـة، ونصر المظلـوم، وردع الظالم.

وقد قال بعض المحققين: إن الشريعة جعلت اليمين في أقوى جنبتي المدعين. ومن تتبع ذلك عرفه.. والله أعلم.

حديث لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجلود حدا...

الحديث التاسع والخمسون

عن عائشة رضي الله عنها - مرفوعا - لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة، ولا مجلود حدا، ولا ذي غمر على أخيه، ولا ظنين في ولاء ولا قرابة، ولا القانع من أهل البيت [1] . رواه الترمذي.

هذا حديث مشتمل على الأمور القادحة في الشهادة.

وذلك: أن الله أمر بإشهاد العدول المرضيين.

وأهل العلم اشترطوا في الشاهد في الحقوق بين الناس: أن يكون عدلا ظاهرا، وذكروا صفات العدالة.

وحدها بعضهم بحد مأخوذ من قوله تعالى: [2] . [البقرة: 282]، فقال: كل مرضي عند الناس يطمئنون لقوله وشهادته، فهو مقبول. وهذا أحسن الحدود. ولا يسع الناس العمل بغيره.

---

1 (?) الترمذي الشهادات (2298) .

2 (?) سورة البقرة آية : 282 .

والأشـياء الـتي تقـدح في الشـهادة ترجع إلى التهمة أو إلى مظنتها. فمن الناس من لا تقبل شهادته مطلقا على جميع الأمـور الـتي تعتـبر فيها الشـهادة، كالخـائن والخائنة، والذي أتى حـدا - أي: معصـية كبـيرة لم يتب منها - فإنه لخيانته وفسـقه مفقـود العدالـة، فلا تقبل شهادته.

ومن النــاس من هو موصــوف بالعدالــة، لكن فيه وصف يخشى أن يميل معــه، فيشــهد بخلاف الحــق، وذلك كالأصول والفروع، والمولى والقـانع لأهل الـبيت، فهؤلاء لا تقبل شهادتهم للمذكورين؛ لأنه محل التهمــة. وتقبل عليهم.

ومثل ذلك الزوجان، والسيد مع مكاتبه أو عتيقه.

ومن الناس من هو بعكس هؤلاء، كالعـدو الـذي في قلبه غمر - أي: غل - على أخيــه. فهــذا إن شــهد لــه، قبلت شــهادته. وإن شــهد على عــدوه: لم تقبــل؛ لأن العداوة تحمل غالبا على الإضرار بالعدو.. والله أعلم.

حديث ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكل

الحديث الستون

عن رافع بن خديج قال: قلت: يا رسول اللــه. إنا لاقو العـدو غـدا، وليس معنا مـدي. أفنـذبح بالقصب ؟ قــال: ما أنهر الــدم وذكر اسم الله عليه فكــل، ليس السن والظفــر. وســأحدثك عنه أما السن فعظم. وأما

الظفر فمدي الحبشة. وأصبنا نهب إبل وغنم فند منها بعير، فرماه رجل بسهم فحبسه. فقال رسول الله : إن لهذه أوابد كأوابد الوحش، فإذا غلبكم منها شيء فافعلوا به هكذا [1] . متفق عليه.

قوله ما أنهر الدم [2] ... إلى آخره، كلام جامع يدخل فيه جميع ما ينهر الدم - أي: يسفكه - من حديد، أو نحاس، أو صفر، أو قصب، أو خشب، أو حطب، أو حصى ؟ محدد أو غيرها، وما له نفوذ كالرصاص في البارود؛ لأنه ينهر بنفوذه، لا بثقله.

ودخل في ذلك: ما صيد بالسهام، والكلاب المعلمة، والطيور إذا ذكر اسم الله على جميع ذلك.

وأما محل الذبح، فإنه الحلقوم والمريء، إذا قطعهما كفى. فإن حصل معهما قطع الودجين - وهما العرقان المكتنفان الحلقوم - كان أولى.

وأما الصيد، فيكفي جرحه في أي موضع كان من بدنه؛ للحاجة إلى ذلك.

ومثل ذلك إذا ند البعير أو البقرة أو الشاة، وعجز عن إدراكه، فإنه يكون بمنزلة الصيد، كما في الحديث. ففي أي محل من بدنه جرح كفى، كما أن الصيد إذا قدر عليه - وهو حي - فلا بد من ذكاته.

---

1 (?) البخاري الذبائح والصيد (5179) ، أبو داود الضحايا (2821) .

2 (?) البخاري الشركة (2356) ، مسلم الأضاحي (1968) ، الترمذي الأحكام والفوائد (1491) ، النسائي الضحايا (4410) ، أبو داود الضحايا (2821) ، أحمد (3/463) .

فالحكم يدور مع علته، المعجـوز عنه بمنزلة الصـيد، ولو من الحيوانـات الإنسـية. والمقـدور عليه لا بد من ذبحه، ولو من الحيوانات الوحشية.

واستثنى النـبي ﷺ من ذلك السـن، وعلله بأنه عظم. فـدل على أن جميع العظـام - وإن أنهـرت الـدم - لا يحل الذبح بها.

وقيـل: إن العلة مجمـوع الأمـرين: كونه سـنا، وكونه عظما، فيختص بالسـن. والصـحيح الأول. وكـذلك الظفر لا يحل الذبح به، لا طير ولا غيره.

فالحاصـل: أن شـروط الـذبح: إنهـار الـدم في محل الذبح، مع كون الذابح مسلما، أو كتابيا، وأن يذكر اسم الله عليها.

وأما الصيد، فهو أوسع من الذبح. كما تقـدم أنه في أي موضع يكـون من بـدن الصـيد، وأنه يبـاح صـيد الجـوارح من الطيـور والكلاب إذا كـانت معلمـة، وذكر اسم الله عليها عند إرسالها على الصيد.. والله أعلم.

حديث إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة...

الحديث الحادي والستون

عن شـداد بن أوس ﷺ أن رسـول الله ﷺ إن الله كتب الإحسـان على كل شـيء، فـإذا قتلتم فأحسـنوا

القتلـة، وإذا ذبحتم فأحسـنوا الذبحـة. وليحد أحـدكم شفرته، وليرح ذبيحته [1] . رواه مسلم.

الإحسان نوعان: إحسان في عبادة الخالق، بأن يعبد الله كأنه يراه فـإن لم يكن يـراه فـإن الله يـراه. وهو الجد في القيـام بحقـوق الله على وجه النصـح، والتكميل لها. وإحسان في حقوق الخلق.

وأصل الإحسان الواجب: أن تقوم بحقوقهم الواجبـة، كالقيـام ببـر الوالـدين، وصـلة الأرحـام، والإنصـاف في جميع المعاملات، بإعطـاء جميع ما عليك من الحقـوق، كما أنك تأخذ مالك وافيـا. قـال تعـالى: [illegible] [2] .

[النساء: 36]. فأمر بالإحسان إلى جميع هؤلاء.

ويـدخل في ذلك الإحسـان إلى جميع نـوع الإنسـان، والإحسـان إلى البهـائم، حـتى في الحالة الـتي تزهق فيها نفوسـها، ولهـذا قـال فـإذا قتلتم فأحسـنوا القتلة [3] .

---

[1] (?) مسلم الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيـوان (1955) ، الترمـذي الديات (1409) ، النسائي الضحايا (4405) ، أبو داود الضحايا (2815) ، ابن ماجـه الـذبائح (3170) ، أحمـد (4/125) ، الـدارمي الأضـاحي (1970) .

[2] (?) سورة النساء آية : 36 .

[3] (?) مسلم الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيـوان (1955) ، الترمـذي الديات (1409) ، النسائي الضحايا (4413) ، أبو داود الضحايا (2815) ، ابن ماجـه الـذبائح (3170) ، أحمـد (4/125) ، الـدارمي الأضـاحي (1970) .

فمن استحق القتل لموجب قتل، يضرب عنقه بالسيف، من دون تعزير ولا تمثيل.

وقوله ﷺ «إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة» [1] أي: هيئة الذبح وصفته. ولهذا قال: «وليحد أحدكم شفرته» [2] أي: سكينه: «وليرح ذبيحته» [3] فإذا كان العبد مأمورا بالإحسان إلى من استحق القتل من الآدميين، وبإحسان ذبحة ما يراد ذبحه من الحيوان، فكيف بغير هذه الحالة ؟

واعلم أن الإحسان المأمور به نوعان:

أحدهما: واجب، وهو الإنصاف، والقيام بما يجب عليك للخلق بحسب ما توجه عليك من الحقوق.

والثاني: إحسان مستحب. وهو ما زاد على ذلك من بذل نفع بدني، أو مالي، أو علمي، أو توجيه لخير ديني، أو مصلحة دنيوية، فكل معروف صدقة، وكل ما أدخل السرور على الخلق صدقة وإحسان. وكل ما

---

1 (?) مسلم الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان (1955) ، الترمذي الديات (1409) ، النسائي الضحايا (4414) ، أبو داود الضحايا (2815) ، ابن ماجه الذبائح (3170) ، أحمد (4/125) ، الدارمي الأضاحي (1970) .

2 (?) مسلم الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان (1955) ، الترمذي الديات (1409) ، النسائي الضحايا (4413) ، أبو داود الضحايا (2815) ، ابن ماجه الذبائح (3170) ، أحمد (4/125) ، الدارمي الأضاحي (1970) .

3 (?) مسلم الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان (1955) ، الترمذي الديات (1409) ، النسائي الضحايا (4411) ، أبو داود الضحايا (2815) ، ابن ماجه الذبائح (3170) ، أحمد (4/125) ، الدارمي الأضاحي (1970) .

أزال عنهم ما يكرهـون، ودفع عنهم ما لا يرتضـون من قليل أو كثير، فهو صدقة وإحسان.

ولما ذكر النـبي ﷺ قصة البغي الـتي سـقت الكلب الشـديد العطش بخفيها من البـئر، وأن الله شـكر لها وغفر لهـا. قـالوا لرسـول الله ﷺ «إن لنا في البهـائم أجرا ؟»[1] قال: «في كل كبد حرى أجر»[2] .

فالإحسان: هو بذل جميع المنـافع من أي نـوع كـان، لأي مخلـوق يكـون، ولكنه يتفـاوت بتفـاوت المحسن إليهم، وحقهم ومقـامهم، وبحسب الإحسـان، وعظم موقعـه، وعظيم نفعـه، وبحسب إيمـان المحسن وإخلاصه، والسبب الداعي له إلى ذلك.

ومن أجل أنواع الإحسان: الإحسـان إلى من أسـاء إليك بقول أو فعل. قال تعـالى: ﴿[illegible]﴾[3] . [فصلت: 34، 35] .

ومن كانت طريقته الإحسان أحسن الله جـزاءه: ﴿[illegible]﴾[4] [الرحمن: 60] ، ﴿[illegible]﴾[5] [يونس: 26]، [illegible]

---

[1] (?) البخاري المساقاة (2234) ، مسلم السلام (2244) ، أبـو داود الجهاد (2550) ، أحمد (2/375) ، مالك الجامع (1729) .
[2] (?) ابن ماجه الأدب (3686) ، أحمد (4/175) .
[3] (?) سورة فصلت آية : 34 ، 35 .
[4] (?) سورة الرحمن آية : 60 .
[5] (?) سورة يونس آية : 26 .

[illegible] [الزمر: 10]، [illegible] [الأعراف: 56] .

أي المحسنين في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله.

والله تعالى يوجب على عباده العدل من الإحسان، ويندبهم إلى زيادة الفضل منه، وقال تعالى في المعاملة:

[illegible] [البقرة: 237]. أي اجعلوا للفضل والإحسان موضعا من معاملاتكم. ولا تستقصوا في جميع الحقوق، بل يسروا ولا تعسروا، وتسامحوا في البيع والشراء، والقضاء والاقتضاء. ومن ألزم نفسه هذا المعروف، نال خيرا كثيرا، وإحسانا كبيرا.. والله أعلم.

حديث حرم رسول الله ﷺ يوم خيبر الحمر الإنسية ولحوم البغال...

الحديث الثاني والستون

عن جابر بن عبد الله ﭬ قال: ﴿حرم رسول الله ﷺ يوم خيبر الحمر الإنسية، ولحوم البغال، وكل ذي ناب

1 (?) سورة الزمر آية : 10 .
2 (?) سورة الأعراف آية : 56 .
3 (?) سورة البقرة آية : 237 .

من الســـباع، وكل ذي مخلب من الطـــير[4] رواه الترمذي.

الأصل في جميع الأطعمة الحـــل، فـــإن الله أحل لعبـــاده ما أخرجته الأرض من حبــوب وثمــار ونبــات متنوع، وأحل لهم حيوانات البحر كلها حيها وميتها.

وأما حيوانـــات الـــبر، فأبـــاح منها جميع الطيبـــات، كالأنعام الثماني وغيرها، والصـيود الوحشـية من طيـور وغيرها.

وإنما حرم من هذا النوع الخبائث وجعل لـذلك حـدا وفاصلا. وربما عين بعض المحرمات، كما عين في هـذا الحـديث الحمر الأهليـة، والبغـال وحرمهـا. وقـال: إنها رجس[1] .

وأما الحمر الوحشية: فإنها حلال، وكذلك حرم ذوات الأنيـــاب من الســـباع، كالـــذئب والأسد والنمر والثعلب والكلب ونحوهـــا، وكل ذي مخلب من الطـــير يصـــيد بمخلبه، كالصقر والباشق ونحوهما.

وما نهي عن قتله كالصـــرد، أو أمر بقتله كـــالغراب ونحوهـــا، فإنها محرمـــة. وما كـــان خبيثـــا، كالحيـــات والعقارب والفئران وأنواع الحشـرات، وكـذلك ما مـات

---

[4] (?) البخاري المغازي (3982) ، مسلم الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان (1941) ، الترمذي الأطعمة (1478) ، النسائي الصيد والذبائح (4329) ، أبـــو داود الأطعمـــة (3789) ، أحمـــد (3/356) ، الـــدارمي الأضاحي (1993) .

[1] (?) البخاري المغازي (3962) ، النسـائي الصـيد والـذبائح (4340) ، أحمد (3/115) .

حتف أنفه من الحيوانات المباحة، أو ذكي ذكاة غير شرعية، فإنه محرم. والله أعلم.

حديث لعن رسول الله المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال

الحديث الثالث والستون

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال [1] . رواه البخاري.

الأصل في جميع الأمور العادية الإباحة، فلا يحرم منها إلا ما حرمه الله ورسوله، إما لذاته كالمغصوب، وما خبث مكسبه في حق الرجال والنساء، وإما لتخصيص الحل بأحد الصنفين، كما أباح الشارع لباس الذهب والفضة والحرير للنساء، وحرمه على الرجال.

وأما تحريم الشارع تشبه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، فهو عام في اللباس، والكلام، وجميع الأحوال.

فالأمور ثلاثة أقسام:

قسم مشترك بين الرجال والنساء من أصناف اللباس وغيره، فهذا جائز للنوعين؛ لأن الأصل الإباحة، ولا تشبه فيه.

---

[1] (?) البخاري اللباس (5546) ، الترمذي الأدب (2784) ، أبو داود اللباس (4097) ، ابن ماجه النكاح (1904) ، أحمد (1/251) .

وقسم مختص بالرجـــال، فلا يحل للنســـاء، وقسم مختص بالنساء، فلا يحل للرجال.

ومن الحكمة في النهي عن التشـبه: أن الله تعـالى جعل للرجال على النساء درجة، وجعلهم قـوامين على النساء، وميزهم بـأمور قدريـة، وأمـور شـرعية، فقيـام هذا التمييز وثبوت فضيلة الرجال على النساء، مقصـود شــرعا وعقلا. فتشــبه الرجــال بالنســاء يهبط بهم عن هــذه الدرجة الرفيعــة. وتشــبه النســاء بالرجــال يبطل التمييز.

وأيضا، فتشبه الرجال بالنساء بالكلام واللبـاس ونحو ذلـــك: من أســـباب التخنث، وســـقوط الأخلاق، ورغبة المتشـبه بالنسـاء في الاختلاط بهن، الـذي يخشى منه المحذور، وكذلك بالعكس.

وهــذه المعــاني الشــرعية، وحفظ مــراتب الرجــال ومــراتب النســاء، وتنزيل كل منهم منزلته الــتي أنزله الله بها، مستحسن عقلا، كما أنه مستحسن شرعا.

وإذا أردت أن تعــرف ضــرر التشــبه التــام، وعــدم اعتبــار المنــازل، فــانظر في هــذا العصر إلى الاختلاط الســاقط الــذي ذهبت معه الغــيرة الدينيــة، والمــروءة الإنســانية، والأخلاق الحميــدة، وحل محله ضد ذلك من كل خلق رذيل.

ويشــبه هــذا - أو هو أشد منه - تشــبه المســلمين بالكفــار في أمــورهم المختصة بهم، فإنه قــال: من

تشبه بقوم فهو منهم (1) فإن التشبه الظاهر يدعو إلى التشبه الباطن، والوسائل والذرائع إلى الشرور قصد الشارع حسمها من كل وجه.

حديث ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء

الحديث الرابع والستون

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء (2) رواه البخاري.

الإنزال هنا بمعنى: التقدير.

ففي هذا الحديث: إثبات القضاء والقدر، وإثبات الأسباب.

وقد تقدم أن هذا الأصل العظيم ثابت بالكتاب والسنة. ويؤيده العقل والفطرة. فالمنافع الدينية والدنيوية والمضار كلها بقضاء الله وتقديره، قد أحاط بها علما، وجرى بها قلمه، ونفذت بها مشيئته، ويسر العباد لفعل الأسباب التي توصلهم إلى المنافع والمضار، فكل ميسر لما خلق له: من مصالح الدين والدنيا، ومضارهما. والسعيد من يسره الله لأيسر الأمور وأقربها إلى رضوان الله، وأصلحها لدينه ودنياه، والشقي من انعكس عليه الأمر.

---

1 (?) أبو داود اللباس (4031) .

2 (?) البخاري الطب (5354) ، ابن ماجه الطب (3439) .

وعموم هذا الحديث يقتضي: أن جميع الأمراض الباطنة والظاهرة لها أدوية تقاومها، تدفع ما لم ينزل، وترفع ما نزل بالكلية، أو تخففه.

وفي هذا: الترغيب في تعلم طب الأبدان، كما يتعلم طب القلوب، وأن ذلك من جملة الأسباب النافعة. وجميع أصول الطب وتفاصيله، شرح لهذا الحديث؛ لأن الشارع أخبرنا أن جميع الأدواء لها أدوية. فينبغي لنا أن نسعى إلى تعلمها، وبعد ذلك إلى العمل بها وتنفيذها.

وقد كان يظن كثير من الناس أن بعض الأمراض ليس له دواء، كالسل ونحوه، وعندما ارتقى علم الطب، ووصل الناس إلى ما وصلوا إليه من علمه، عرف الناس مصداق هذا الحديث، وأنه على عمومه. وأصول الطب: تدبير الغذاء، بأن لا يأكل حتى تصدق الشهوة وينهضم الطعام السابق انهضاما تاما، ويتحرى الأنفع من الأغذية، وذلك بحسب حالة الأقطار والأشخاص والأحوال، ولا يمتلئ من الطعام امتلاء يضره مزاولته، والسعي في تهضيمه، بل الميزان قوله تعالى: [illegible] [1] [الأعراف: 31].

ويستعمل الحمية عن جميع المؤذيات في مقدارها، أو في ذاتها، أو في وقتها. ثم إن أمكن الاستفراغ،

1 (?) سورة الأعراف آية : 31 .

وحصل به المقصــود، من دون مباشــرة الأدويــة، فهو الأولى والأنفــع. فــإن اضــطر إلى الــدواء، اســتعمله بمقــدار. وينبغي أن لا يتــولى ذلك إلا عــارف وطــبيب حاذق.

واعلم أن طيب الهــواء، ونظافة البــدن والثيــاب، والبعد عن الــروائح الخبيثــة، خــير عــون على الصــحة. وكــذلك الرياضة المتوســطة. فإنها تقــوي الأعضــاء والأعصــاب والأوتــار، وتزيل الفضــلات، وتهضم الأغذية الثقيلــة، وتفاصــيل الطب معروفة عند الأطبــاء. ولكن هذه الأصول التي ذكرناها يحتاج إليها كل أحد.

وصح عنه الشــفاء في ثلاث: شــرطة محجم، أو شربة عســل، أو كية بنــار، وفي الحبة الســوداء شــفاء من كل داء [1] . العــود الهنــدي فيه ســبعة أشــفية، يســـــعط من العـــــذرة، ويلد من ذات الجنب [2] ، الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالمــاء [3] ، رخص في الرقية من العين والحمة والنملة [4] ، وإذا

---

[1] (?) البخاري الطب (5357) ، ابن ماجه الطب (3491) ، أحمد (1/246) .

[2] (?) البخاري الطب (5383) ، مسلم السلام (2214) ، أبو داود الطب (3877) ، ابن ماجه الطب (3462) .

[3] (?) البخاري بدء الخلق (3088) ، أحمد (1/291) .

[4] (?) مسلم السلام (2196) ، ابن ماجه الطب (3516) ، أحمد (3/118) .

استغسلتم من العين فاغسلوا(1) . ونهى عن الــدواء الخبيث(2) ، وأمر بخضاب الرجلين لوجعهما .

حديث الرؤيا الصالحة من الله والحلم من الشيطان

الحديث الخامس والستون

عن أبي قتــادة قــال: قــال رســول الله الرؤيا الصــالحة من اللــه، والحلم من الشــيطان، فــإذا رأى أحــدكم ما يحب فلا يحــدث به إلا من يحب. وإذا رأى ما يكره فليتعــوذ بالله من شــرها ومن شر الشــيطان، وليتفل ثلاثا، ولا يحــدث بها أحــدا، فإنها لن تضــره(3) متفق عليه.

أخــبر في هــذا الحــديث: أن الرؤيا الصــالحة من اللــه، أي: الســالمة من تخليط الشــيطان وتشويشــه، وذلك لأن الإنســان إذا نــام خــرجت روحــه، وحصل لها بعض التجرد الذي تتهيأ به لكثير من العلوم والمعارف. وتلطفت مع ما يلهمها اللــــــه، ويلقيه إليها الملك في منامهـــا. فتتنبه وقد تجلت لها أمـــور كـــانت قبل ذلك مجهولــة، أو ذكــرت أمــورا قد غفلت عنهــا، أو تنبهت لأحوال ينفعها معرفتها، أو العمل بها، أو حذرت مضارا

---

1 (?) مسلم السلام (2188) ، الترمذي الطب (2062) .

2 (?) الترمـذي الطب (2045) ، أبـو داود الطب (3870) ، ابن ماجـه الطب (3459) ، أحمد (2/446) .

3 (?) البخاري التعبير (6594) ، مسلم الرؤيا (2261) ، الترمذي الرؤيا (2277) ، أبو داود الأدب (5021) ، ابن ماجـه تعبـير الرؤيـا (3909) ، أحمد (5/303) ، مالك الجامع (1784) ، الدارمي الرؤيا (2142) .

دينية أو دنيوية لم تكن لها على بـــــــال، أو اتعظت ورغبت ورهبت عن أعمـــال قد تلبست بهـــا، أو هي بصــدد ذلــك، أو تنبهت لبعض الأعيــان الجزئية لإدخالها في الأحكام الشرعية.

فكل هـذه الأمـور علامة على الرؤيا الصـالحة، الـتي هي جزء من ستة وأربعين جـزءا من النبـوة. وما كـان من النبوة فهو لا يكذب.

فـــانظر إلى رؤيا النـــبي ﷺ في قوله تعـــالى: [illegible] [1] [الأنفال: 43]. كم حصل بها من منـافع واندفع من مضار.

وكـــــذلك قوله تعـــــالى: [illegible] [2] [الفتح: 27]، كم حصل بها من زيادة إيمان، وتم بها من كمال إيقـان، وكـانت من آيات الله العظيمة.

وانظر إلى رؤيا ملك مصـر، وتأويل يوسف الصـديق لهـا، وكما تـولى التأويل فقد ولاه الله ما احتـوت عليه من التدبير، فحصل بذلك خـيرات كثـيرة، ونعم غزيـرة،

---

1 (?) سورة الأنفال آية : 43 .

2 (?) سورة الفتح آية : 27 .

واندفع بها ضرورات وحاجات، ورفع الله بها يوسف فوق العباد درجات.

وتأمل رؤيا عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - الأذان والإقامة، وكيف صارت سببا لشرع هذه الشعيرة العظيمة التي هي من أعظم الشعائر الدينية.

ومرائي الأنبياء والأولياء والصالحين - بل وعموم المؤمنين وغيرهم - معروفة مشهورة، لا يحصى ما اشتملت عليه من المنافع المهمة، والثمرات الطيبة. وهي من جملة نعم الله على عباده، ومن بشارات المؤمنين، وتنبيهات الغافلين، وتذكيره للمعرضين، وإقامة الحجة على المعاندين.

وأما الحلم الذي هو أضغاث أحلام، فإنما هو من تخليط الشيطان على روح الإنسان، وتشويشه عليها وإفزاعها، وجلب الأمور التي تكسبها الهم والغم، أو توجب لها الفرح والمرح والبطر، أو تزعجها للشر والفساد والحرص الضار.

فأمر النبي ﷺ عند ذلك أن يأخذ العبد في الأسباب التي تدفع شره، بأن لا يحدث بها أحدا، فإن ذلك سبب لبطلانه واضمحلاله، وأن يتفل عن شماله ثلاث مرات. وأن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، الذي هو سبب هذا الحلم والدافع له، وليطمئن قلبه عند ذلك

أنه لا يضره، مصداقا لقول رسوله، وثقة بنجاح الأسباب الدافعة له.

وأما الرؤيا الصالحة، فينبغي أن يحمد الله عليها، ويسأله تحقيقها، ويحدث بها من يحب ويعلم منه المودة، ليسر لسروره، ويدعو له في ذلك. ولا يحدث بها من لا يحب، لئلا يشوش عليه بتأويل يوافق هواه، أو يسعى - حسدا منه - في إزالة النعمة عنه.

ولهذا لما رأى يوسف الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر ساجدين له، وحدث بها أباه قال له: [illegible] [1] [يوسف: 5].

ولهذا كان كتم النعم عن الأعداء - مع الإمكان - أولى، إلا إذا كان في ذلك مصلحة راجحة.

واعلم أن الرؤيا الصادقة تارة يراها العبد على صورتها الخارجية، كما في رؤيا الأذان وغيرها، وتارة يضرب له فيها أمثال محسوسة، ليعتبر بها الأمور المعقولة، أو المحسوسة التي تشبهها، كرؤيا ملك مصر ونحوها، وهي تختلف باختلاف الرائي والوقت والعادة، وتنوع الأحوال.

---

[1] (?) سورة يوسف آية : 5 .

حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه

الحديث السادس والستون

عن علي بن الحسين - رحمه الله - قال: قال رسول الله ﷺ «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» [1] . رواه مالك وأحمد. ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة، ورواه الترمذي عن علي بن الحسين وعن أبي هريرة.

الإسلام - عند الإطلاق - يدخل فيه الإيمان، والإحسان. وهو شرائع الدين الظاهرة والباطنة. والمسلمون منقسمون في الإسلام إلى قسمين، كما دل عليه فحوى هذا الحديث.

فمنهم: المحسن في إسلامه، ومنهم: المسيء.

فمن قام بالإسلام ظاهرا وباطنا فهو المحسن: [illegible] [2] [النساء: 125].

فيشتغل هذا المحسن بما يعنيه، مما يجب عليه تركه من المعاصي والسيئات، ومما ينبغي له تركه كالمكروهات وفضول المباحات التي لا مصلحة له فيها، بل تفوت عليه الخير.

---

1 (?) الترمذي الزهد (2317) ، ابن ماجه الفتن (3976) .

2 (?) سورة النساء آية : 125 .

فقوله من حسن إسلام المـرء تركه ما لا يعنيه [1] يعم ما ذكرنا.

ومفهوم الحديث: أن من لم يـترك ما لا يعنيـه، فإنه مسـيء في إسـلامه وذلك شـامل للأقـوال والأفعـال المنهي عنها نهي تحريم أو نهي كراهة.

فهذا الحديث يعد من الكلمات العامة الجامعـة، لأنها قسمت هذا التقسيم الحاصر، وبينت الأسباب التي يتم بها حسن الإسلام، وهو الاشتغال بما يعني، وترك ما لا يعني من قول وفعـل، والأسـباب الـتي يكـون بها العبد مسيئا، وهي ضد هذه الحال.. والله أعلم.

حديث ما نحل والد ولده من نحل أفضل من أدب حسن

الحديث السابع والستون

عن أيوب بن موسى بن عمرو بن سعيد بن العـاص عن أبيه عن جده: أن رسول الله قال: ما نحل والد ولـــــــــده من نحل أفضل من أدب حسن [2] رواه الترمذي.

أولى الناس ببرك، وأحقهم بمعروفك: أولادك، فـإنهم أمانــات جعلهم الله عنــدك، ووصــاك بــتربيتهم تربية صالحة لأبدانهم وقلوبهم، وكل ما فعلته معهم من هذه الأمـور، دقيقها وجليلهـا، فإنه من أداء الـواجب عليـك،

1 (?) الترمذي الزهد (2317) ، ابن ماجه الفتن (3976) .
2 (?) الترمذي البر والصلة (1952) ، أحمد (3/412) .

ومن أفضل ما يقربك إلى الله، فاجتهد في ذلك، واحتسبه عند الله، فكما أنك إذا أطعمتهم وكسوتهم وقمت بتربية أبدانهم، فأنت قائم بالحق مأجور، فكذلك - بل وأعظم من ذلك - إذا قمت بتربية قلوبهم وأرواحهم بالعلوم النافعة، والمعارف الصادقة، والتوجيه للأخلاق الحميدة، والتحذير من ضدها.

و " النحل ": هي العطايا والإحسان، فالآداب الحسنة خير للأولاد حالا ومآلا من إعطائهم الذهب والفضة، وأنواع المتاع الدنيوي، لأن بالآداب الحسنة، والأخلاق الجميلة يرتفعون، وبها يسعدون وبها يؤدون ما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد، وبها يجتنبون أنواع المضار، وبها يتم برهم لوالديهم.

أما إهمال الأولاد، فضرره كبير، وخطره خطير. أرأيت لو كان لك بستان فنميته، حتى استتمت أشجاره، وأينعت ثماره، وتزخرفت زروعه وأزهاره. ثم أهملته فلم تحفظه، ولم تسقه ولم تنقه من الآفات، وتعده للنمو في كل الأوقات، أليس هذا من أعظم الجهل والحمق ؟ فكيف تهمل أولادك الذين هم فلذة كبدك، وثمرة فؤادك، ونسخة روحك، والقائمون مقامك حيا وميتا، الذين بسعادتهم تتم سعادتك. وبفلاحهم ونجاحهم تدرك به خيرا كثيرا ﴿[illegible]﴾ [1] [آل عمران: 7].

---

1 (?) سورة آل عمران آية : 7 .

حديث مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير...

الحديث الثامن والستون

عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسـول الله
مثل الجليس الصـــــالح والجليس الســــوء: كحامل المسك، ونـافخ الكـير. فحامل المسـك: إما أن يحـذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبـة. ونـافخ الكــير: إما أن يحـــرق ثيابـــك، وإما أن تجد منه ريحا خبيثة [1] متفق عليه.

اشـــتمل هـــذا الحـــديث على الحث على اختيـــار الأصحاب الصالحين، والتحذير من ضدهم.

ومثل النـــبي بهـــذين المثـــالين، مبينا أن الجليس الصــــالح: جميع أحوالك معه وأنت في مغنم وخـــــير، كحامل المسك الـــذي تنتفع بما معه من المســـك: إما بهبة، أو بعـوض. وأقل ذلـك: مـدة جلوسك معـه، وأنت قرير النفس برائحة المسك.

فـالخير الـذي يصـيبه العبد من جليسه الصـالح أبلغ وأفضل من المسك الأذفــــــر، فإنه إما أن يعلمك ما ينفعك في دينك ودنيـــاك، أو يهـــدي لك نصـــيحة، أو يحذرك من الإقامة على ما يضـرك. فيحثك على طاعة الله وبر الوالـدين، وصـلة الأرحـام، ويبصـرك بعيـوب

[1] (?) البخاري الذبائح والصيد (5214) ، مسـلم البـر والصـلة والآداب (2628) ، أحمد (4/405) .

نفسـك، ويـدعوك إلى مكـارم الأخلاق ومحاسـنها بقوله وفعله وحاله. فإن الإنسان مجبول على الاقتداء بصاحبه وجليسه، والطباع والأرواح جنـود مجنـدة، يقـود بعضـها بعضا إلى الخير، أو إلى ضده.

وأقل ما تستفيده من الجليس الصالح - وهي فائــدة لا يســـــتهان بها - أن تنكف بســـــببه عن الســـــيئات والمعاصي، رعاية للصحبة، ومنافسة في الخـير، وترفعا عن الشــر، وأن يحفظك في حضــرتك ومغيبــك، وأن تنفعك محبته ودعاؤه في حال حياتك وبعد مماتك، وأن يدافع عنك بسبب اتصاله بك، ومحبته لك.

وتلك أمـــــور لا تباشر أنت مـــــدافعتها، كما أنه قد يصلك بأشخاص وأعمال ينفعك اتصالك بهم.

وفوائد الأصـــحاب الصـــالحين لا تعد ولا تحصـــى. وحسب المـرء أن يعتـبر بقرينـه، وأن يكـون على دين خليله.

وأما مصــاحبة الأشــرار: فإنها بضد جميع ما ذكرنــا، وهم مضرة من جميع الوجوه على من صَـاحَبَهُمْ، وشر على من خالطهم. فكم هلك بسببهم أقوام. وكم قــادوا أصــحابهم إلى المهالك من حيث يشــعرون، ومن حيث لا يشعرون.

ولهـذا كـان من أعظم نعم الله على العبد المـؤمن: أن يوفقه لصحبة الأخيار. ومن عقوبته لعبــده: أن يبتليه بصحبة الأشرار.

صحبة الأخيار توصل العبد إلى أعلى عليين، وصحبة الأشرار توصله إلى أسفل سافلين.

صحبة الأخيار توجب له العلوم النافعة، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، وصحبة الأشرار: تحرمه ذلك أجمع: [illegible] [1] [الفرقان: 27 - 29].

حديث لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين

الحديث التاسع والستون

عن أبي هريرة [illegible] قال: قال رسول الله [illegible] «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين» [2] . متفق عليه.

هذا مثل ضربه النبي [illegible] لبيان كمال احتراز المؤمن ويقظته، وأن المؤمن يمنعه إيمانه من اقتراف السيئات التي تضره مقارفتها، وأنه متى وقع في شيء منها، فإنه في الحال يبادر إلى الندم والتوبة والإنابة.

ومن تمام توبته: أن يحذر غاية الحذر من ذلك السبب الذي أوقعه في الذنب، كحال من أدخل يده

---

1 (?) سورة الفرقان آية : 27 - 29 .

2 (?) البخاري الأدب (5782) ، مسلم الزهد والرقائق (2998) ، أبو داود الأدب (4862) ، ابن ماجه الفتن (3982) ، أحمد (2/379) ، الدارمي الرقاق (2781) .

في جحر فلدغته حية، فإنه بعد ذلك لا يكاد يدخل يده في ذلك الجحر، لما أصابه فيه أول مرة.

وكما أن الإيمان يحمل صاحبه على فعل الطاعات، ويرغبه فيها، ويحزنه لفواتها، فكذلك يزجره عن مقارفة السيئات، وإن وقعت بادر إلى النزوع عنها، ولم يعد إلى مثل ما وقع فيه.

وفي هذا الحديث: الحث على الحزم والكيس في جميع الأمور. ومن لوازم ذلك: تعرف الأسباب النافعة ليقوم بها، والأسباب الضارة ليتجنبها.

ويدل على الحث على تجنب أسباب الريب التي يخشى من مقاربتها الوقوع في الشر. وعلى أن الذرائع معتبرة.

وقد حذر الله المؤمنين من العود إلى ما زينه الشيطان من الوقوع في المعاصي، فقال: ﴿ [illegible] ﴾ [1] [النور: 17].

ولهذا فإن من ذاق الشر من التائبين تكون كراهته له أعظم، وتحذيره وحذره عنه أبلغ؛ لأنه عرف بالتجربة آثاره القبيحة.

---

1 (?) سورة النور آية : 17 .

وفي الحديث: "الأناة من الله، والعجلة من الشيطان، ولا حليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة" [2] والله أعلم.

حديث لا عقل كالتدبير ولا ورع كالكف ولا حَسَبَ كحسن الخلق

الحديث السبعون

عن أبي ذر الغفاري قال: قال رسول الله "يا أبا ذر، لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف، ولا حَسَبَ كحسن الخلق" [2] . رواه البيهقي في " شعب الإيمان ".

هذا الحديث اشتمل على ثلاث جمل، كل واحدة منها تحتها علم عظيم:

أما الجملة الأولى: فهي في بيان العقل وآثاره وعلاماته، وأن العقل الممدوح في الكتاب والسنة: هو قوة ونعمة أنعم الله بها على العبد، يعقل بها الأشياء النافعة، والعلوم والمعارف، ويتعقل بها، ويمتنع من الأمور الضارة والقبيحة، فهو ضروري للإنسان، لا يستغني عنه في كل أحواله الدينية والدنيوية، إذ به يعرف النافع والطريق إليه، ويعرف الضار وكيفية السلامة منه. والعقل يعرف بآثاره.

---

2 (?) الترمذي البر والصلة (2033) ، أحمد (3/69) .

2 (?) ابن ماجه الزهد (4218) .

فبين في هذا الحديث آثاره الطيبة، فقال: لا عقل كالتدبير [1] أي: تدبير العبد لأمور دينه، ولأمور دنياه.

فتدبيره لأمور دينه: أن يسعى في تعرف الصراط المستقيم، وما كان عليه النبي الكريم من الأخلاق والهدي والسمت، ثم يسعى في سلوكه بحالة منتظمة. كما قال استعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا [2] .

وقد تقدم شرح هذا الحديث وبيان الطريق الذي أرشد إليه رسول الله وأنها طريق سهلة توصل إلى الله وإلى دار كرامته بسهولة وراحة، وأنها لا تفوت على العبد من راحاته وأموره الدنيوية شيئا، بل يتمكن العبد معها من تحصيل المصلحتين والفوز بالسعادتين والحياة الطيبة.

فمتى دبر أحواله الدينية بهذا الميزان الشرعي، فقد كمل دينه وعقله، لأن المطلوب من العقل: أن يوصل صاحبه إلى العواقب الحميدة من أقرب طريق وأيسره.

وأما تدبير المعاش، فإن العاقل يسعى في طلب الرزق بما يتضح له أنه أنفع له وأجدى عليه في حصول مقصوده ولا يتخبط في الأسباب خبط عشواء،

---

1 (?) ابن ماجه الزهد (4218) .

2 (?) النسائي الإيمان وشرائعه (5034) .

لا يقر له قرار، بل إذا رأى سببا فتح له باب رزق فليلزمه، وليثابر عليه، وليجمل في الطلب، ففي هذا بركة مجربة.

ثم يدبر تدبيرا آخر، وهو التدبير في التصريف والإنفاق، فلا ينفق في طرق محرمة، أو طرق غير نافعة، أو يسرف في النفقات المباحة أو يقتر. وميزان ذلك قوله تعالى في مدح الأخيار: ﴿[illegible]﴾[1] [الفرقان: 67].

فحسن التدبير في كسب الأرزاق، وحسن التدبير في الإنفاق، والتصريف، والحفظ، وتوابع ذلك: دليل على كمال عقل الإنسان ورزانته ورشده.

وضد ذلك: دليل على نقصان عقله، وفساد لُبه.

الجملة الثانية: قوله ﷺ «لا ورع كالكف»[2] .

فهذا حد جامع للورع، بين به رسول الله ﷺ أن الورع الحقيقي هو الذي يكف نفسه، وقلبه ولسانه، وجميع جوارحه عن الأمور المحرمة الضارة. فكل ما قاله أهل العلم في تفسير الورع، فإنه يرجع إلى هذا التفسير الواضح الجامع.

فمن حفظ قلبه عن الشكوك والشبهات، وعن الشهوات المحرمة والغل والحقد، وعن سائر مساوئ

---

1 (?) سورة الفرقان آية : 67 .

2 (?) ابن ماجه الزهد (4218) .

الأخلاق، وحفظ لســـانه عن الغيبة والنميمة والكـــذب والشـــتم، وعن كل إثم وأذى، وكلام محـــرم، وحفظ فرجه وبصــــره عن الحــــرام، وحفظ بطنه عن أكل الحــرام، وجوارحه عن كسب الآثــام، فهــذا هو الــورع حقيقة.

ومن ضيع شيئا من ذلك نقص من ورعه بقدر ذلك، ولهذا قال شيخ الإسلام: " الورع ترك ما يخشى ضرره في الآخرة ".

الجملة الثالثـــة: قوله ولا حسب كحسن الخلق [1].

وذلك أن الحسب مرتبة عالية عند الخلــق. وصــاحب الحسب له اعتبار وشرف بحسب ذلك. وهو نوعان:

النــوع الأول: حسب يتعلق بنسب الإنســان وشــرف بيتــه. وهــذا النــوع إنما هو مــدح؛ لأنه مظنة أن يكــون صــاحبه عــاملا بمقتضى حســبه، مترفعا عن الــدنايا، متحليا بالمكارم. فهو مقصود لغيره.

وأما النــوع الثــاني، فهو الحسب الحقيقي الــذي هو وصف للعبد، وجمال له وزينة، وخير في الدنيا والــدين، وهو حسن الخلق المحتوي على الحلم الواسع، والصبر والعفو، وبــذل المعــروف والإحســان، واحتمــال الإســاءة والأذى، ومخالقة طبقات الناس بخلق حسن.

وإن شئت فقل: حسن الخلق نوعان:

---

[1] (?) ابن ماجه الزهد (4218) .

الأول: حسن الخلق مع اللــه، وهو أن تتلقى أحكامه الشرعية والقدرية بالرضى والتسليم لحكمه، والانقياد لشرعه، بطمأنينة ورضى، وشكر لله على ما أنعم بــه: من الأمر والتوفيــق، والصــبر على أقــداره المؤلمة والرضى بها.

الثـاني: حسن الخلق مع الخلــق، وهو بــذل النــدى، واحتمــال الأذى، وكف الأذى، كما قــال تعــالى: [illegible] [1] [الأعراف: 199]. [illegible] [2] [فصلت: 34، 35].

فمن قــام بحسن الخلق مع الله ومع الخلــق، فقد نال الخير والفلاح. والله أعلم.

حديث جاء رجل فقال يا رسول الله أوصني فقال لا تغضب...

الحديث الحادي والسبعون

عن أبي هريرة [illegible] قال: جــاء رجل فقــال: يا رســول الله، أوصني. فقــال: لا تغضــب. ثم ردد مــرارا فقــال: لا تغضب [3] . رواه البخاري.

---

1 (?) سورة الأعراف آية : 199 .

2 (?) سورة فصلت آية : 34 ، 35 .

3 (?) البخاري الأدب (5765) ، الترمذي البر والصلة (2020) ، أحمد (2/466) .

هذا الرجل ظن أنها وصية بأمر جزئي، وهو يريد أن يوصيه النبي بكلام كلي، ولهذا ردد. فلما أعاد عليه النبي عرف أن هذا كلام جامع ، وهو كذلك؛ فإن قوله: لا تغضب [1] يتضمن أمرين عظيمين:

أحدهما: الأمر بفعل الأسباب، والتمرن على حسن الخلق، والحلم والصبر، وتوطين النفس على ما يصيب الإنسان من الخَلق، من الأذى القولي والفعلي. فإذا وفق لها العبد، وورد عليه وارد الغضب، احتمله بحسن خلقه، وتلقاه بحلمه وصبره، ومعرفته بحسن عواقبه، فإن الأمر بالشيء أمر به، وبما لا يتم إلا به، والنهي عن الشيء أمر بضده، وأمر بفعل الأسباب التي تعين العبد على اجتناب المنهي عنه، وهذا منه.

الثاني: الأمر - بعد الغضب - أن لا ينفذ غضبه: فإن الغضب غالبا لا يتمكن الإنسان من دفعه ورده، ولكنه يتمكن من عدم تنفيذه. فعليه إذا غضب أن يمنع نفسه من الأقوال والأفعال المحرمة التي يقتضيها الغضب.

فمتى منع نفسه من فعل آثار الغضب الضارة، فكأنه في الحقيقة لم يغضب. وبهذا يكون العبد كامل القوة العقلية، والقوة القلبية، كما قال ليس

---

[1] (?) البخاري الأدب (5765) ، الترمذي البر والصلة (2020) ، أحمد (2/466) .

الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب [1] .

فكمال قوة العبد: أن يمتنع من أن تؤثر فيه قوة الشهوة وقوة الغضب الآثار السيئة، بل يصرف هاتين القوتين إلى تناول ما ينفع في الدين والدنيا، وإلى دفع ما يضر فيهما.

فخير الناس من كانت شهوته وهواه تبعا لما جاء به الرسول وغضبه ومدافعته في نصر الحق على الباطل.

وشر الناس: من كان صريع شهوته وغضبه. ولا حول ولا قوة إلا بالله..

حديث لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر

الحديث الثاني والسبعون

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر . فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنا ؟ فقال: إن الله جميل يحب الجمال. الكبر: بطر الحق، وغمط الناس [2] . رواه مسلم.

قد أخبر الله تعالى: أن النار مثوى المتكبرين، وفي هذا الحديث أنه: لا يدخل الجنة من كان في قلبه

---

[1] (?) البخاري الأدب (5763) ، مسلم البر والصلة والآداب (2609) ، أحمد (2/268) ، مالك الجامع (1681) .

[2] (?) مسلم الإيمان (91) ، الترمذي البر والصلة (1999) .

مثقـال ذرة من كـبر (1) فـدل على أن الكـبر مـوجب لدخول النار، ومانع من دخول الجنة.

وبهذا التفسير الجامع الذي ذكره النبي يتضح هـذا المعنى غاية الاتضاح، فإنه جعل الكبر نوعين:

كبر النوع الأول: على الحق، وهو رده وعـدم قبولـه، فكل من رد الحق فإنه مســـــتكبر عنه بحسب ما رد من الحــق. وذلك أنه فــرض على العبــاد أن يخضــعوا للحق الذي أرسل الله به رسله، وأنزل به كتبه.

فـــالمتكبرون عن الانقيـــاد للرسل بالكلية كفـــار مخلـــدون في النـــار؛ فإنه جـــاءهم الحق على أيـــدي الرسل مؤيـــدا بالآيـــات والـــبراهين. فقـــام الكـــبر في قلوبهم مانعا، فـردوه. قـال تعـالى: [غافر: 56] (2).

وأما المتكـــبرون عن الانقيـــاد لبعض الحق الـــذي يخـالف رأيهم وهـواهم، فهم - وإن لم يكونـوا كفـارا - فـإن معهم من موجبـات العقـاب بحسب ما معهم من الكبر. وما تأثروا به من الامتناع عن قبـول الحق الـذي تبين لهم بعد مجيء الشرع به. ولهذا أجمع العلمـاء أن من اســتبانت له ســنة رســول الله لم يحل له أن يعدل عنها لقول أحد، كائنا من كان.

1 (?) مسلم الإيمان (91) ، الترمذي البر والصلة (1999) .

2 (?) سورة غافر آية : 56 .

فيجب على طالب العلم أن يعـزم عزما جازما على تقديم قول الله وقـول رسـوله على قـول كل أحـد، وأن يكون أصله الذي يرجع إليـه، وأساسه الـذي يبـني عليـه، الاهتـداء بهـدي النـبي والاجتهـاد في معرفة مراده، واتباعه في ذلك، ظاهرا وباطنا.

فمـتى وفق لهـذا الأمر الجليل فقد وفق للخـير، وصار خطؤه معفوا عنه؛ لأن قصده العام اتباع الشرع. فالخطأ معـذور فيه إذا فعل مسـتطاعه من الاسـتدلال والاجتهاد في معرفة الحق، وهذا هو المتواضع للحق.

وأما الكـبر على الخلق - وهو النـوع الثـاني -: فهو غمطهم واحتقـارهم وذلك ناشئ عن عجب الإنسـان بنفسـه، وتعاظمه عليهم. فـالعجب بـالنفس يحمل على التكـبر على الخلـق، واحتقـارهم والاسـتهزاء بهم، وتنقيصـهم بقوله وفعلـه. وقـال رسـول الله بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم [1] .

ولما قـال هـذا الرجـل: إن الرجل يحب أن يكـون ثوبه حسنا ونعله حسنا [2] وخشي أن يكـون هـذا من الكـبر الـذي جـاء فيه الوعيـد: بين له النـبي أن هـذا ليس من الكبر، إذا كان صاحبه منقادا للحق، متواضـعا للخلق، وأنه من الجمـال الـذي يحبه اللـه؛ فإنه تعـالى

---

1 (?) مسلم البر والصلة والآداب (2564) ، أحمد (2/277) .
2 (?) مسلم الإيمان (91) ، أحمد (1/399) .

جميل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، يحب الجمال الظاهري والجمال الباطني.

فالجمال الظاهر: كالنظافة في الجسد، والملبس، والمسكن، وتوابع ذلك.

والجمال الباطن: التجمل بمعاني الأخلاق ومحاسنها.

ولهذا كان من دعاء النبي اللهم اهدني لأحسن الأعمال والأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت. واصرف عني سيئ الأعمال والأخلاق، لا يصرف عني سيئها إلا أنت [1] .. والله أعلم.

حديث قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه

الحديث الثالث والسبعون

عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله قد أفلح من أسلم ورزق كفافا، وقنعه الله بما آتاه [2] . رواه مسلم.

حكم بالفلاح لمن جمع هذه الخلال الثلاث.

و " الفلاح " اسم جامع لحصول كل مطلوب محبوب، والسلامة من كل مخوف مرهوب.

وذلك أن هذه الثلاث جمعت خير الدين والدنيا، فإن العبد إذا هدي للإسلام الذي هو دين الله الذي لا يقبل دينا سواه، وهو مدار الفوز بالثواب والنجاة من

---

1 (?) النسائي الافتتاح (896) .

2 (?) مسلم الزكاة (1054) ، الترمذي الزهد (2348) ، ابن ماجه الزهد (4138) ، أحمد (2/173) .

العقاب، وحصل له الرزق الذي يكفيه ويكف وجهه عن سؤال الخلق، ثم تمم الله عليه النعمة، بأن قنعه بما آتاه، وحصل له الرضى بما أوتي من الرزق والكفاف، ولم تطمح نفسه لما وراء ذلك، فقد حصل له حسنة الدنيا والآخرة.

فإن النقص بفوات هذه الأمور الثلاثة أو أحدها: إما أن لا يهدى للإسلام: فهذا مهما كانت حاله، فإن عاقبته الشقاوة الأبدية. وإما بأن يهدى للإسلام، ولكنه يبتلى: إما بفقر ينسي، أو غنى يطغي، وكلاهما ضرر ونقص كبير. وإما بأن يحصل له الرزق الكافي موسعا أو مقدرا ولكنه لا يقنع برزق الله، ولا يطمئن قلبه بما آتاه الله، فهذا فقير القلب والنفس.

فإنه ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى القلب، فكم من صاحب ثروة وقلبه فقير متحسر، وكم من فقير ذات اليد، وقلبه غني راض، قانع برزق الله.

فالحازم إذا ضاقت عليه الدنيا لم يجمع على نفسه بين ضيقها وفقرها، وبين فقر القلب وحسرته وحزنه، بل كما يسعى لتحصيل الرزق، فليسع لراحة القلب، وسكونه وطمأنينته. والله أعلم.

حديث إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع...

الحديث الرابع والسبعون

عن أبي أيوب الأنصاري قال: جاء رجل إلى النبي فقال: يا رسول الله، عظني وأوجز. فقال: إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع، ولا تكلم بكلام تعذر منه غدا، واجمع اليأس مما في أيدي الناس [1]. رواه أحمد.

هذه الوصايا الثلاث يا لها من وصايا، إذا أخذ بها العبد: تمت أموره وأفلح.

فالوصية الأولى: تتضمن تكميل الصلاة، والاجتهاد في إيقاعها على أحسن الأحوال. وذلك بأن يحاسب نفسه على كل صلاة يصليها وأنه سيتم جميع ما فيها من واجب، وفرض، وسنة، وأن يتحقق بمقام الإحسان الذي هو أعلى المقامات. وذلك بأن يقوم إليها مستحضرا وقوفه بين يدي ربه، وأنه يناجيه بما يقوله من قراءة وذكر ودعاء، ويخضع له في قيامه وركوعه، وسجوده وخفضه ورفعه.

ويعينه على هذا المقصد الجليل، توطين نفسه على ذلك من غير تردد ولا كسل قلبي، ويستحضر في كل صلاة أنها صلاة مودع، كأنه لا يصلي غيرها.

---

1 (?) ابن ماجه الزهد (4171) ، أحمد (5/412) .

ومعلــوم أن المــودع يجتهد اجتهــادا يبــذل فيه كل وسـعه. ولا يــزال مستصـحبا لهـذه المعـاني النافعـة، والأسباب القوية، حتى يسهل عليه الأمر، ويتعود ذلك.

والصلاة على هذا الوجه، تنهي صاحبها عن كل خلق رذيــل، وتحثه على كل خلق جميــل؛ لما تــؤثره في نفسه من زيادة الإيمان، ونور القلب وســروره، ورغبته التامة في الخير.

وأما الوصـية الثانيـة: فهي حفظ اللسـان ومراقبتـه، فإن حفظ اللسـان عليه المـدار، وهو ملاك أمر العبـد. فمــتى ملك العبد لســانه ملك جميع أعضــائه، ومــتى ملكه لسـانه فلم يصـنه عن الكلام الضـار، فـإن أمـره يختل في دينه ودنيــاه. فلا يتكلم بكلام، إلا قد عــرف نفعه في دينه أو دنياه وكل كلام يحتمل أن يكـون فيه انتقاد أو اعتذار فليدعـه، فإنه إذا تكلم به ملكه الكلام، وصار أسيرا له. وربما أحدث عليه ضــررا لا يتمكن من تلافيه.

وأما الوصية الثالثة: فهي توطين النفس على التعلق بالله وحـده، في أمـور معاشه ومعـاده، فلا يسـأل إلا اللـــه، ولا يطمع إلا في فضـــله، ويـــوطن نفسه على اليأس مما في أيدي الناس؛ فإن اليـأس عصـمة، ومن أيس من شيء استغنى عنه. فكما أنه لا يسأل بلسـانه إلا اللـــه، فلا يعلق قلبه إلا باللـــه. فيبقى عبـــدا لله حقيقة، سالما من عبودية الخلـق. قد تحـرر من رقهم،

واكتسب بـذلك العز والشـرف؛ فـإن المتعلق بـالخلق يكتسب الذل والسقوط بحسب تعلقه بهم. والله أعلم.

حديث هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم

الحديث الخامس والسبعون

عن مصعب بن سعد أن النبي قال: هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ [1] . رواه البخاري.

فهذا الحديث فيه: أنه لا ينبغي للأقوياء القـادرين أن يسـتهينوا بالضـعفاء العـاجزين، لا في أمـور الجهـاد والنصرة، ولا في أمور الرزق وعجزهم عن الكسب.

بين الرسـول أنه قد يحـدث النصر على الأعـداء وبسط الـرزق بأسـباب الضـعفاء، بتـوجههم ودعـائهم، واستنصارهم واسترزاقهم.

وذلك: أن الأسباب التي تحصل بها المقاصد نوعان.

نـوع يشـاهد بـالحس، وهو القـوة بالشـجاعة القولية والفعلية، وبحصول الغنى والقـدرة على الكسـب. وهـذا النوع هو الذي يغلب على قلوب أكثر الخلق، ويعلقـون به حصول النصر والرزق، حتى وصلت الحال بكثير من أهل الجاهلية أن يقتلوا أولادهم خشية الفقـر، ووصـلت بغيرهم إلى أن يتضجروا بعوائلهم الذين عـدم كسـبهم، وفقدت قـوتهم، وهـذا كله قصر نظـر، وضـعف إيمـان،

---

[1] (?) البخاري الجهاد والسير (2739) ، النسائي الجهاد (3178) ، أحمد (1/173) .

وقلة ثقة بوعد الله وكفايته، ونظر للأمور على غير حقيقتها.

النوع الثاني: أسباب معنوية، وهي قوة التوكل على الله في حصول المطالب الدينية والدنيوية، وكمال الثقة به، وقوة التوجه إليه والطلب منه.

وهذه الأمور تقوي جدا من الضعفاء العاجزين الذين ألجأتهم الضرورة إلى أن يعلموا حق العلم، أن كفايتهم ورزقهم ونصرهم من عند الله، وأنهم في غاية العجز. فانكسرت قلوبهم، وتوجهت إلى الله، فأنزل لهم من نصره ورزقه - من دفع المكاره، وجلب المنافع - ما لا يدركه القادرون. ويسر للقادرين بسببهم من الرزق ما لم يكن لهم في حساب؛ فإن الله جعل لكل أحد رزقا مقدرا.

وقد جعل أرزاق هؤلاء العاجزين على يد القادرين، وأعان القادرين على ذلك، وخصوصا من قويت ثقتهم بالله، واطمأنت نفوسهم لثوابه فإن الله يفتح لهؤلاء من أسباب النصر والرزق ما لم يكن لهم ببال، ولا دار لهم في خيال.

فكم من إنسان كان رزقه مقترا، فلما كثرت عائلته والمتعلقون به، وسع الله له الرزق من جهات وأسباب شرعية قدرية إلهية.

ومن جهة وعد الله الذي لا يخلف: ﴿[illegible]﴾ [1] [سبأ: 39] . ومن جهة: دعاء الملائكة كل صباح يوم: «اللهم أعط منفقا خلفا، وأعط ممسكا تلفا» .

ومن جهة أن أرزاق هؤلاء الضعفاء توجهت إلى من قام بهم، وكانت على يده.

ومن جهة أن يد المعطي هي العليا من جميع الوجوه.

ومن جهة أن المعونة من الله تأتي على قدر المؤنة، وأن البركة تشارك كل ما كان لوجهه، ومرادا به ثوابه. ولهذا نقول:

ومن جهة إخلاص العبد لله، وتقربه إليه بقلبه ولسانه ويده، كلما أنفق، توجه إلى الله وتقرب إليه. وما كان له فهو مبارك.

ومن جهة قوة التوكل، وثقة المنفق، وطمعه في فضل الله وبره. والطمع والرجاء من أكبر الأسباب لحصول المطلوب.

ومن جهة دعاء المستضعفين المنفق عليهم، فإنهم يدعون الله - إن قاموا وقعدوا، وفي كل أحوالهم - لمن قام بكفايتهم. والدعاء سبب قوي: ﴿[illegible]﴾ [2] [غافر: 60] .

---

1 (?) سورة سبأ آية : 39 .

2 (?) سورة غافر آية : 60 .

وكل هذا مجرب مشاهد، فتبا للمحـرومين، وما أجل ربح الموفقين، والله أعلم.

حديث يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة...

الحديث السادس والسبعون

عن أبي هريرة قال: قـال رسـول الله يضحك الله إلى رجلين يقتل أحـدهما الآخـر، يـدخلان الجنـة، يقاتل هذا في سبيل اللـه، فيقتـل، ثم يتـوب الله على القاتل فيسلم فيستشهد [1] متفق عليه.

هذا الحديث يدل على تنوع كرم الكـريم، وأن كرمه وفضله متنوع من وجـوه لا تعد ولا تحصـى، ولا يـدخل في عقول الخلق وخواطرهم.

فهذان الرجلان اللـذان قتل أحـدهما الآخر قيض الله لكل منهما من فضله وكرمه سببا أوصله إلى الجنة.

فالأول: قاتل في سبيله، وأكرمه الله على يد الرجل الآخر - الذي لم يسلم بعد - بالشـهادة الـتي هي أعلى المـــراتب، بعد مرتبة الصـــديقين، وغرضه في جهـــاده إعلاء كلمة الله، والتقـرب إلى ربه بـذلك. فـأجره على الله، وليس له على القاتل حق، فثبت أجره على الله.

وأما الآخر: فإن الله تعـالى جعل بـاب التوبة مفتوحا لكل من أراد التوبة بالإسلام وما دونه، ولم يجعل ذنبا

---

[1] (?) البخـاري الجهـاد والسـير (2671) ، مسـلم الإمـارة (1890) ، النسائي الجهاد (3166) ، ابن ماجه المقدمة (191) ، أحمد (2/464) ، مالك الجهاد (1000) .

من الذنوب مانعا من قبول التوبة، كما قال تعالى في حق التائبين: ﴿ [illegible] ﴾ [1] [الزمر: 53] .

فلما أسلم وتاب محا الله عنه الكفر وآثاره، ثم من عليه بالشهادة، فدخل الجنة، كأخيه الذي قتله وأكرمه على يده، ولم يهنه على يد أخيه بقتله، وهو كافر.

فهذا الضحك من الباري يدل على غاية كرمه وجوده، وتنوع بره. وهذا الضحك الوارد في هذا الحديث وفي غيره من النصوص كغيره من صفات الله. على المؤمن أن يعترف بذلك ويؤمن به، وأنه حق على حقيقته، وأن صفاته صفات كمال، ليس له فيها مثل، ولا شبه ولا ند.

فكما أن لله ذاتا لا تشبهها الذوات فله تعالى صفات لا تشبهها الصفات، وكلها صفات حمد ومجد وتعظيم وجلال وجمال وكمال. فنؤمن بما جاء به الكتاب والسنة من صفات ربنا، ونعلم أنه لا يتم الإيمان والتوحيد إلا بإثباتها على وجه يليق بعظمة الله وكبريائه ومجده.

وهذا الحديث من جملة الأحاديث المرغبة في الدخول في الإسلام وفتح أبواب التوبة بكل وسيلة، فإن الإسلام يجب ما قبله، وما عمله الإنسان في حال

---

[1] (?) سورة الزمر آية : 53 .

كفره، وقد أسلم على ما أسلف، حتى الرقاب التي قتلها نصرا لباطله، والأموال التي استولى عليها من أجل ذلك؛ كل ذلك معفو عنه بعد الإسلام.

وقولنا: " من أجل ذلك " احتراز عن الحقوق التي اقتضتها المعاملات بين المسلمين والكفار، فإن الكافر إذا أسلم وعليه حقوق وديون وأعيان أخذها وحصلت له بسبب المعاملة، فإن الإسلام لا يسقطها؛ لأنها معاملات مشتركة بين الناس، برهم وفاجرهم، مسلمهم وكافرهم، بخلاف القسم الأول، فإن كلا من الطرفين - المسلمين والكفار - إذا حصل الحرب، وترتب عليه قتل وأخذ مال، لا يرد إلا طوعا، وتبرعا ممن وصل إليه، والله أعلم.

ويشبه هذا من بعض الوجوه، قتال أهل البغي لأهل العدل، حيث لم يضمنهم العلماء ما أتلفوه حال الحرب من نفوس وأموال للتأويل، كما أجمع على ذلك الصحابة رضي الله عنهم حين وقعت الفتنة، فأجمعوا على أن ما تلف من نفوس، وأتلف من أموال، ليس فيه ضمان من الطرفين.

وفي قوله: ثم يتوب الله على الآخر فيسلم [(1)] دليل على أن توبة الله على من أسلم أو تاب من ذنوبه متقدمة على توبة العبد، فإنه تعالى إذن بتوبته

[1] (?) البخاري الجهاد والسير (2671) ، مسلم الإمارة (1890) ، النسائي الجهاد (3166) ، ابن ماجه المقدمة (191) ، أحمد (2/318) ، مالك الجهاد (1000) .

وقدرها ولطف به، إذ قيض له الأسباب الموجبة لتوبته، فتاب العبد، ثم تاب الله عليه بعد ذلـك، بـأن محا عنه ما سـبق من الجـرائم - الكفر فما دونه - فتوبة العبد محفوفة بتوبـتين، تفضل بهما عليه ربـه، إذنه له وتقـديره وتيسـيره للتوبة حـتى تـاب، ثم قبـول توبته ومحو زلته، فهو تعالى التواب الرحيم.

والتوبة من أجل الطاعـات وأعظمهـا، فهـذا الحكم ثـابت في جميع الطاعـات كلهـا، يوفق الله لها العبد أولا، وييسر له أسـبابها، ويسـهل له طرقهـا، ثم إذا فعلها المطيع قبلها، وكتب له بها رضـوانه وثوابـه، فما أوسع فضل الكـريم، وما أغـزر كرمه المتنـوع العميم.. والله أعلم.

حديث لا يتمنين أحدكم الموت لضرر أصابه

الحديث السابع والسبعون

عن أنس قـال: قـال رسـول الله لا يتمـنين أحـدكم المـوت لضـرر أصـابه، فـإن كـان لا بد فـاعلا، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خـيرا لي، وتوفـني إذا كانت الوفاة خيرا لي [1] متفق عليه.

هذا نهي عن تمني الموت للضر الذي يـنزل بالعبـد، من مـرض أو فقر أو خـوف، أو وقـوع في شـدة

---

[1] (?) البخـاري المرضـى (5347) ، مسـلم الـذكر والـدعاء والتوبـة والاسـتغفار (2680) ، الترمـذي الجنـائز (971) ، النسـائي الجنـائز (1820) ، أبو داود الجنائز (3108) ، ابن ماجه الزهد (4265) ، أحمـد (3/247) .

ومهلكة، أو نحوها من الأشياء، فـإن في تمـني المـوت لذلك مفاسد.

منها: أنه يـؤذن بالتسـخط والتضـجر من الحالة الـتي أصيب بها، وهو مأمور بالصبر والقيام بوظيفته. ومعلوم أن تمني الموت ينافي ذلك.

ومنها: أنه يضـعف النفس، ويحـدث الخـور والكسـل، ويوقع في اليـأس. والمطلـوب من العبد مقاومة هـذه الأمور، والسعي في إضعافها وتخفيفها بحسب اقتداره، وأن يكون معه من قوة القلب وقـوة الطمع في زوال ما نـزل بـه. وذلك مـوجب لأمـرين: اللطف الإلهي لمن أتى بالأسباب المأمور بها، والسعي النـافع الـذي يوجبه قوة القلب ورجاؤه.

ومنها: أن تمـني المـوت جهل وحمـق، فإنه لا يـدري ما يكون بعد الموت، فربما كـان كالمسـتجير من الضر إلى ما هو أفظع منه، من عذاب البرزخ وأهواله.

ومنها: أن الموت يقطع على العبد الأعمال الصـالحة التي هو بصدد فعلها والقيام بها، وبقية عمر المؤمن لا قيمة لـه، فكيف يتمـنى انقطـاع عمل الـذرة منه خـير من الدنيا وما عليها.

وأخص من هـذا العمـوم: قيامه بالصـبر على الضر الـذي أصـابه، فـإن الله يـوفي الصـابرين أجـرهم بغـير حساب.

ولهذا قال في آخر الحديث: فإن كان لا بد فاعلا فليقل: اللهم أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي [1] فيجعل العبد الأمر مفوضا إلى ربه الذي يعلم ما فيه الخير والصلاح له، الذي يعلم من مصالح عبده ما لا يعلم العبد، ويريد له من الخير ما لا يريده، ويلطف به في بلائه كما يلطف به في نعمائه.

والفرق بين هذا وبين قوله لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ولكن ليعزم المسألة؛ فإن الله لا مكره له [2] ، أن المذكور في الحديث الذي فيه التعليق بعلم الله وإرادته، هو في الأمور المعينة التي لا يدري العبد من عاقبتها ومصلحتها.

وأما المذكور في الحديث الآخر: فهي الأمور التي يعلم مصلحتها بل ضرورتها وحاجة كل عبد إليها، وهي مغفرة الله ورحمته ونحوها. فإن العبد يسألها ويطلبها من ربه طلبا جازما، لا معلق بالمشيئة وغيرها. لأنه مأمور ومحتم عليه السعي فيها، وفي جميع ما يتوسل به إليها.

---

1 (?) البخاري المرضى (5347) ، مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (2680) ، النسائي الجنائز (1821) ، ابن ماجه الزهد (4265) ، أحمد (3/281) .

2 (?) البخاري الدعوات (5980) ، مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (2679) ، الترمذي الدعوات (3497) ، أبو داود الصلاة (1483) ، ابن ماجه الدعاء (3854) ، أحمد (2/463) ، مالك النداء للصلاة (494) .

وهذا كالفرق بين فعل الواجبات والمستحبات الثابت الأمر بها؛ فإن العبد يؤمر بفعلها أمر إيجاب أو استحباب، وبعض الأمور المعينة التي لا يدري العبد من حقيقتها ومصلحتها، فإنه يتوقف حتى يتضح له الأمر فيها.

واستثنى كثير من أهل العلم من هذا، جواز تمني الموت خوفا من الفتنة، وجعلوا من هذا قول مريم رضي الله عنها: ﴿ [illegible] ﴾[1] [مريم: 23]. كما استثنى بعضهم تمني الموت شوقا إلى الله. وجعلوا منه قول يوسف ﴿ [illegible] ﴾[2] [يوسف: 101].

وفي هذا نظر؛ فإن يوسف لم يتمن الموت، وإنما سأل الله الثبات على الإسلام، حتى يتوفاه مسلما، كما يسأل العبد ربه حسن الخاتمة.. والله أعلم.

حديث إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها...

الحديث الثامن والسبعون

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن

---

1 (?) سورة مريم آية : 23 .

2 (?) سورة يوسف آية : 101 .

أول فتنة بـني إسـرائيل كـانت في النسـاء [1] . رواه مسلم.

أخبر في هـذا الحـديث بحـال الـدنيا وما هي عليه من الوصف الذي يـروق النـاظرين والـذائقين. ثم أخـبر أن الله جعلها الـدنيا محنة وابتلاء للعبـاد، ثم أمر بفعل الأسباب، التي تقي من الوقوع في فتنتها.

فإخبـاره بأنها حلـوة خضـرة يعم أوصـافها الـتي هي عليهــا، فهي حلــوة في مــذاقها وطعمهــا، ولــذاتها وشهواتها، خضرة في رونقها وحسنها الظاهر، كما قال تعــــالى: [2] [آل عمران: 14]. وقـال تعـالى: [3] . [الكهف: 7] .

فهذه اللذات المنوعة فيها، والمناظر البهيجـة، جعلها الله ابتلاء منه وامتحانــا، واســتخلف فيها العبــاد لينظر كيف يعملون.

فمن تناولها من حلها، ووضـعها في حقهـا، واسـتعان بها على ما خلق له من القيام بعبودية الله، كانت زادا

---

1 (?) مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (2742) ، الترمذي الفتن (2191) ، ابن ماجه الفتن (4000) ، أحمد (3/61) .

2 (?) سورة آل عمران آية : 14 .

3 (?) سورة الكهف آية : 7 .

له وراحلة إلى دار أشـــــــرف منها وأبقى، وتمت له السعادة الدنيوية والأخروية.

ومن جعلها أكبر همه، وغاية علمه ومراده، لم يـؤت منها إلا ما كتب له، وكـان مآله بعد ذلك إلى الشـقاء، ولم يهنأ بلـذاتها ولا شـهواتها إلا مـدة قليلـة، فكـانت لذاته قليلة، وأحزانه طويلة.

وكل نوع من لذاتها فيه هذه الفتنة والاختبـار، ولكن أبلغ ما يكون وأشد فتنة النساء، فـإن فتنتهن عظيمـة، والوقـوع فيها خطـير وضـررها كبـير، فـإنهن مصـائد الشـيطان وحبائلـه، كم صـاد بهن من معـافى فأصـبح أسير شهوته، رهين ذنبه، قد عز عليه الخلاص، والذنب ذنبـه، فإنه الـذي لم يحـترز من هـذه البليـة، وإلا فلو تحرز منها، ولم يدخل مـداخل التهم، ولا تعـرض للبلاء، واسـتعان باعتصـامه بـالمولى، لنجا من هـذه الفتنـة، وخلص من هذه المحنة.

ولهـذا حـذر النـبي في هـذا الحـديث منها على الخصـوص. وأخـبر بما جـرت على من قبلنا من الأمم؛ فإن في ذلك عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتقين. والله أعلم.

حديث الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله...

الحديث التاسع والسبعون

عن أبي هريرة قال: قـال رسـول الله الإيمـان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شـعبة، أعلاهـا: قـول: لا إله إلا اللـــه، وأدناهـــا: إماطة الأذى عن الطريـــق، والحياء شعبة من الإيمان [1] . متفق عليه.

هـــذا الحـــديث من جملة النصـــوص الدالة على أن الإيمـان اسم يشـمل عقائد القلب وأعمالـه، وأعمـال الجوارح، وأقوال اللسان، فكل ما يقرب إلى الله، وما يحبه ويرضـــاه، من واجب ومســـتحب، فإنه داخل في الإيمـــان، وذكر هنا أعلاه وأدنـــاه، وما بين ذلك وهو الحيـاء. والحيـاء شـعبة من الإيمـان [2] ولعل ذكر الحياء؛ لأنه السبب الأقوى للقيام بجميع شعب الإيمان. فإن من استحيا من الله لتواتر نعمـه، وسـوابغ كرمـه، وتجليه عليه بأسـمائه الحسـنى، والعبد - مع هـذا كثـير التقصـير مع هـذا الـرب الجليل الكبـير يظلم نفسه ويجـنى عليها - أوجب له هـذا الحيـاء التـوقي من الجرائم، والقيام بالواجبات والمستحبات.

---

1 (?) البخـاري الإيمـان (9) ، مسـلم الإيمـان (35) ، النسـائي الإيمـان وشـرائعه (5005) ، أبـو داود السـنة (4676) ، ابن ماجـه المقدمـة (57) ، أحمد (2/414) .

2 (?) البخـاري الإيمـان (9) ، مسـلم الإيمـان (35) ، النسـائي الإيمـان وشـرائعه (5005) ، أبـو داود السـنة (4676) ، ابن ماجـه المقدمـة (57) ، أحمد (2/414) .

فأعلى هذه الشعب شعب الإيمان وأصلها وأساسها، قول: " لا إله إلا الله " صادقا من قلبه، بحيث يعلم ويوقن أنه لا يستحق هذا الوصف العظيم، وهو الألوهية إلا الله وحده؛ فإنه هو ربه الذي يربيه ويربي جميع العالمين بفضله وإحسانه، والكل فقير وهو الغني، والكل عاجز وهو القوي، ثم يقوم في كل أحواله بعبوديته لربه، مخلصا له الدين، فإن جميع شعب الإيمان فروع وثمرات لهذا الأصل.

ودل على أن شعب الإيمان بعضها يرجع إلى الإخلاص للمعبود الحق، وبعضها يرجع إلى الإحسان إلى الخلق.

ونبه بإماطة الأذى على جميع أنواع الإحسان القولي والفعلي. الإحسان الذي فيه وصول المنافع، والإحسان الذي فيه دفع المضار عن الخلق.

وإذا علمنا أن شعب الإيمان كلها ترجع إلى هذه الأمور، علمنا أن كل خصلة من خصال الخير فهي من الشعب، وقد تكلم العلماء على تعيينها.

فمنهم: من وصل إلى هذا المبلغ المقدر في الحديث.

ومنهم: من قارب ذلك، ولكن إذا فهم المعنى تمكن الإنسان أن يعتد بكل خصلة وردت عن الشارع - قولية أو فعلية، ظاهرة أو باطنة - من الشعب، ونصيب العبد من الإيمان بقدر نصيبه من هذه الخصال، قلة وكثرة،

وقوة وضعفا، وتكميلا وضده، وهي ترجع إلى تصديق خبر الله وخبر رسوله، وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما.

وقد وصف الله الإيمان بالشجرة الطيبة في أصلها وثمراتها التي أصلها ثابت، وفروعها باسقة في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. والله أعلم.

حديث ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان...

الحديث الثمانون

عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة [1] . متفق عليه.

هذا حديث عظيم تضمن من عظمة الباري ما لا تحيط به العقول ولا تعبر عنه الألسن.

أخبر فيه: أن جميع الخلق سيكلمهم الله مباشرة من دون ترجمان ولا واسطة، ويسألهم عن جميع أعمالهم، خيرها وشرها، دقيقها وجليلها، سابقها

---

1 (?) البخاري التوحيد (7074) ، مسلم الزكاة (1016) ، الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (2415) ، ابن ماجه المقدمة (185) ، أحمد (4/256) .

ولاحقهـا، ما علمه العبـاد وما نسـوه منهـا، وذلك أنه لعظمته وكبريائه كما يخلقهم ويـــرزقهم في ســـاعة واحـــدة، ويبعثهم في ســـاعة واحـــدة فإنه يحاســـبهم جميعهم في ســـاعة واحـــدة، فتبـــارك من له العظمة والمجد، والملك العظيم والجلال.

وفي هذه الحالة الـتي يحاسـبهم فيها ليس مع العبد أنصـار ولا أعـوان ولا أولاد ولا أمـوال، قد جـاءه فـردا كما خلقه أول مـــرة، قد أحـــاطت به أعماله تطلب الجـزاء بـالخير أو الشـر، عن يمينه وشـماله، وأمامه النار لابد له من ورودها، فهل إلى صدوره منها سـبيل ؟ لا سبيل إلى ذلك إلا برحمة الله، وبما قـدمت يـداه من الأعمال المنجية منها.

ولهذا حث النبي ﷺ أمته على اتقاء النار ولو بالشيء اليسير، كشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة.

وفي هذا الحديث: أن من أعظم المنجيات من النار، الإحســان إلى الخلق بالمـــال والأقـــوال، وأن العبد لا ينبغي له أن يحتقر من المعـــروف ولو شـــيئا قليلا، والكلمة الطيبة تشـــمل النصـــيحة للخلق بتعليمهم ما يجهلون، وإرشادهم إلى مصالحهم الدينية والدنيوية.

وتشـمل الكلام المسر للقلـوب، الشـارح للصـدور، المقـارن للبشاشة والبشـر، وتشـمل الـذكر لله والثنـاء عليه، وذكر أحكامه وشرائعه.

فكل كلام يقـــرب إلى الله ويحصل به النفع لعبـــاد الله، فهو داخل في الكلمة الطيبة، قال تعالى: ﴿ ﴾ [1] [فــاطر: 10]، وقال تعالى: ﴿ ﴾ [2] [وهي كل عمل وقول يقرب إلى اللــه، ويحصل به النفع لخلقه [﴿ ﴾ [3] . [الكهف: 46] والله أعلم.

حديث دعوني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم...

الحديث الحادي والثمانون

عن أبي هريــرة عن النــبي قــال: ﴿دعــوني ما تــركتكم، فإنما أهلك من كــان قبلكم كــثرة ســؤالهم، واختلافهم على أنبيـــائهم، فـــإذا نهيتكم عن شـــيء فاجتنبوه، وإذا أمـرتكم بـأمر فـائتوا منه ما اسـتطعتم﴾ [4] . متفق عليه.

هذه الأسئلة التي نهى النبي عنهــا: هي الــتي نهى الله عنها في قولــه: ﴿ ﴾ [5] . [المائدة: 101] .

---

1 (?) سورة فاطر آية : 10 .
2 (?) سورة الكهف آية : 46 .
3 (?) سورة الكهف آية : 46 .
4 (?) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة (6858) ، مسلم الحج (1337) ، الترمذي العلم (2679) ، النسائي مناسـك الحج (2619) ، ابن ماجـه المقدمة (2) ، أحمد (2/508) .
5 (?) سورة المائدة آية : 101 .

وهي الأسئلة عن أشياء من أمور الغيب، أو من الأمور التي عفا الله عنها، فلم يحرمها ولم يوجبها، فيسأل السائل عنها وقت نزول الوحي والتشريع، فربما وجبت بسبب السؤال، وربما حرمت كذلك، فيدخل السائل في قوله ﷺ أعظم المسلمين جرما: من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته (1) .

وكذلك ينهى العبد عن سؤال التعنت والأغلوطات، وينهى أيضا عن أن يسأل عن الأمور الطفيفة غير المهمة، ويدع السؤال عن الأمور المهمة، فهذه الأسئلة وما أشبهها هي التي نهى الشارع عنها.

وأما السؤال على وجه الاسترشاد عن المسائل الدينية من أصول وفروع، عبادات أو معاملات، فهي مما أمر الله بها ورسوله، ومما حث عليها، وهي الوسيلة لتعلم العلوم، وإدراك الحقائق، قال تعالى: [illegible] (2) [الأنبياء: 7]، وقال: [illegible] (3) [الزخرف: 45] .. إلى غيرها من الآيات. وقال ﷺ من يرد الله به خيرا

---

[1] (?) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة (6859) ، مسلم الفضائل (2358) ، أبو داود السنة (4610) ، أحمد (1/176) .

[2] (?) سورة الأنبياء آية : 7 .

[3] (?) سورة الزخرف آية : 45 .

يفقهه في الـدين□ [1] وذلك بسـلوك طريق التفقه في الـدين دراسة وتعلما وسـؤالا، وقـال: □ألا سـألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العي السؤال□ [2] .

وقد أمر الله بـالرفق بالسـائل، وإعطائه مطلوبـه، وعدم التضجر منـه. وقـال في سـورة الضحـى: □ □□□□□□□ □□□□ □□□□□□□□ □□□□ □□□□□□□□□□□□□ [3] [الضحـى: 10]. فهـذا يشـمل السـائل عن العلـوم النافعة والسـائل لما يحتاجه من أمور الدنيا، من مال وغيره.

ومما يـدخل في هـذا الحـديث: السـؤال عن كيفية صفات البـاري، فـإن الأمر في الصـفات كلها كما قـال الإمـــام مالك لمن ســـأله عن كيفية الاســـتواء على العـرش ؟ فقـال: " الاسـتواء معلـوم، والكيف مجهـول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة ".

فمن ســـأل عن كيفية علم اللـــــه، أو كيفية خلقه وتـدبيره، قيل لـه: فكما أن ذات الله تعـالى لا تشـبهها الذوات، فصفاته لا تشـبهها الصـفات، فـالخلق يعرفـون الله، ويعرفـون ما تعـرف لهم به من صـفاته وأفعالـه، وأما كيفية ذلك، فلا يعلم تأويله إلا الله.

ثم ذكر □ في هذا الحديث أصلين عظيمين:

---

1 (?) البخاري العلم (71) ، مسلم الإمارة (1037) ، ابن ماجه المقدمة (221) ، أحمد (4/93) ، الدارمي المقدمة (226) .

2 (?) أبو داود الطهارة (336) .

3 (?) سورة الضحى آية : 10 .

أحدهما: قوله ﴿فإذا نهيتكم عنه فاجتنبوه﴾ [4] فكل ما نهى عنه النبي من الأقوال والأفعال، الظاهرة والباطنة، وجب تركه، والكف عنه، امتثالا وطاعة لله ورسوله.

ولم يقل في النهي: " ما استطعتم " لأن النهي طلب كف النفس، وهو مقدور لكل أحد، فكل أحد يقدر على ترك جميع ما نهى الله عنه ورسوله، ولم يضطر العباد إلى شيء من المحرمات المطلقة، فإن الحلال واسع، يسع جميع الخلق في عباداتهم ومعاملاتهم، وجميع تصرفاتهم.

وأما إباحة الميتة والدم ولحم الخنزير للمضطر، فإنه في هذه الحالة الملجئة إليه قد صار من جنس الحلال؛ فإن الضرورات تبيح المحظورات، فتصيرها الضرورة مباحة؛ لأنه تعالى إنما حرم المحرمات حفظا لعباده، وصيانة لهم عن الشرور والمفاسد، ومصلحة لهم، فإذا قاوم ذلك مصلحة أعظم - وهو بقاء النفس - قدمت هذه على تلك رحمة من الله وإحسانا.

وليست الأدوية من هذا الباب، فإن الدواء لا يدخل في باب الضرورات، فإن الله تعالى يشفي المبتلى بأسباب متنوعة، لا تتعين في الدواء. وإن كان الدواء يغلب على الظن الشفاء به، فإنه لا يحل التداوي

---

4 (?) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة (6858) ، مسلم الفضائل (1337) ، الترمذي العلم (2679) ، النسائي مناسك الحج (2619) ، ابن ماجه المقدمة (2) ، أحمد (2/467) .

بالمحرمات، كالخمر وألبان الحمر الأهلية، وأصناف المحرمات، بخلاف المضطر إلى أكل الميتة، فإنه يتيقن أنه إذا لم يأكل منها يموت.

الأصل الثاني: قوله وإذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم [1] وهذا أصل كبير، دل عليه أيضا قوله تعالى: [2] [التغابن: 16] .

فأوامر الشريعة كلها معلقة بقدرة العبد واستطاعته. فإذا لم يقدر على واجب من الواجبات بالكلية، سقط عنه وجوبه. وإذا قدر على بعضه - وذلك البعض عبادة - وجب ما يقدر عليه منه، وسقط عنه ما يعجز عنه.

ويدخل في هذا من مسائل الفقه والأحكام ما لا يعد ولا يحصى. فيصلي المريض قائما، فإن لم يستطع صلى قاعدا، فإن لم يستطع صلى على جنبه، فإن لم يستطع الإيماء برأسه، أومأ بطرفه. ويصوم العبد ما دام قادرا عليه. فإن أعجزه مرض لا يرجى زواله، أطعم عنه كل يوم مسكينا، وإن كان مرضا يرجى زواله، أفطر، وقضى عدته من أيام أخر.

ومن ذلك من عجز عن سترة الصلاة الواجبة، أو عن الاستقبال أو توقي النجاسة: سقط عنه ما عجز عنه. وكذلك بقية شروط الصلاة وأركانها، وشروط

---

1 (?) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة (6858) ، مسلم الحج (1337) ، النسائي مناسك الحج (2619) ، ابن ماجه المقدمة (2) ، أحمد (2/508) .

2 (?) سورة التغابن آية : 16 .

الطهارة، ومن تعذرت عليه الطهـارة بالمـاء للعـدم، أو للضرر في جميع الطهارة، أو بعضها، عدل إلى طهـارة التيمم.

والمعضـــوب في الحج، عليه أن يســـتنيب من يحج عنه، إذا كان قادرا على ذلك بماله.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يجب على من قدر عليه باليد، ثم باللسان ثم بالقلب.

وليس على الأعمى والأعــرج والمــريض حــرج في تــرك العبــادات الــتي يعجــزون عنهــا، أو تشق عليهم مشقة غير محتملة.

ومن عليه نفقة واجبـــة، وعجز عن جميعهـــا، بـــدأ بزوجتـــه، فرقيقـــه، فالولـــد، فالوالـــدين، فـــالأقرب ثم الأقرب. و##كذلك الفطرة.

وهكـــــــذا جميع ما أمر به العبد أمر إيجـــــــاب أو استحباب، إذا قدر على بعضه، وعجز عن باقيـه، وجب عليه ما يقـدر عليـه، وسـقط عنه ما عجز عنـه. وكلها داخلة في هذا الحديث.

ومســائل القرعة لها دخــول في هــذا الأصــل؛ لأن الأمـور إذا اشـتبهت: لمن هي ؟ ومن أحق بها ؟ رجعنا إلى المرجحات. فإن تعذر الترجيح من كل وجه، سقط هذا الواجب للعجز عنـه، وعـدل إلى القرعة الـتي هي غاية ما يمكن. وهي مســائل كثــيرة معروفة في كتب الفقه.

والولايات كلها - صغارها وكبارها - تدخل تحت هذا الأصل، فإن كل ولاية يجب فيها تولية المتصف بالأوصاف التي يحصل بها مقصود الولاية. فإن تعذرت كلها، وجب فيها تولية الأمثل فالأمثل.

وكما يستدل على هذا الأصل بتلك الآية وذلك الحديث، فإنه يستدل عليها بالآيات والأحاديث التي نفى الله ورسوله فيها الحرج عن الأمة، كقوله تعالى: [illegible] [1] [البقرة: 286] ، [illegible] [2] [الطلاق: 7]، [illegible] [3] [الحج: 78]، [illegible] [4] [المائدة: 6]، [illegible] [5] [البقرة: 185]، [illegible] [6] [النساء: 28] .

فالتخفيفات الشرعية في العبادات وغيرها بجميع أنواعها داخلة في هذا الأصل، مع ما يستدل على هذا بما لله تعالى من الأسماء والصفات المقتضية لذلك، كالحمد والحكمة، والرحمة الواسعة، واللطف والكرم والامتنان. فإن آثار هذه الأسماء الجليلة الجميلة كما

1 (?) سورة البقرة آية : 286 .
2 (?) سورة الطلاق آية : 7 .
3 (?) سورة الحج آية : 78 .
4 (?) سورة المائدة آية : 6 .
5 (?) سورة البقرة آية : 185 .
6 (?) سورة النساء آية : 28 .

هي سابغة وافرة واسعة في المخلوقات والتدبيرات، فهي كذلك في الشرائع، بل أعظم لأنها هي الغاية في الخلق. وهي الوسيلة العظمى للسعادة الأبدية.

فالله تعالى خلق المكلفين ليقوموا بعبوديته. وجعل عبوديته والقيام بشرعه طريقا إلى نيل رضاه وكرامته. كما قال تعالى - بعد ما شرع الطهارة بأنواعها - ﴿ ﴾ [1] [المائدة: 6] .

فظهرت آثار رحمته ونعمته في الشرعيات والمباحات، كما ظهرت في الموجودات. فله تعالى أتم الحمد وأعلاه، وأوفر الشكر والثناء وأعلاه، وغاية الحب والتعظيم ومنتهاه. وبالله التوفيق.

حديث من لا يرحم الناس لا يرحمه الله

الحديث الثاني والثمانون

عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﴿من لا يرحم الناس لا يرحمه الله﴾ . متفق عليه.

يدل هذا الحديث بمنطوقه على أن من لا يرحم الناس لا يرحمه الله، وبمفهومه على أن من يرحم الناس يرحمه الله، كما قال في الحديث الآخر:

1 (?) سورة المائدة آية : 6 .

الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء [1] .

فرحمة العبد للخلق من أكبر الأسباب التي تنال بها رحمة الله، التي من آثارها خيرات الدنيا، وخيرات الآخرة، وفقدها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله، والعبد في غاية الضرورة والافتقار إلى رحمة الله، لا يستغني عنها طرفة عين، وكل ما هو فيه من النعم واندفاع النقم، من رحمة الله.

فمتى أراد أن يستبقيها ويستزيد منها، فليعمل جميع الأسباب التي تنال بها رحمته، وتجتمع كلها في قوله تعالى: [illegible] [2] [الأعراف: 56]

وهم المحسنون في عبادة الله، المحسنون إلى عباد الله. والإحسان إلى الخلق أثر من آثار رحمة العبد بهم.

والرحمة التي يتصف بها العبد نوعان:

النوع الأول: رحمة غريزية، قد جبل الله بعض العباد عليها، وجعل في قلوبهم الرأفة والرحمة والحنان على الخلق، ففعلوا بمقتضى هذه الرحمة جميع ما يقدرون عليه من نفعهم، بحسب استطاعتهم. فهم محمودون مثابون على ما قاموا به، معذورون على ما عجزوا

---

1 (?) الترمذي البر والصلة (1924) ، أبو داود الأدب (4941) .

2 (?) سورة الأعراف آية : 56 .

عنه، وربما كتب الله لهم بنياتهم الصادقة ما عجزت عنه قواهم.

والنوع الثاني: رحمة يكتسبها العبد بسلوكه كل طريق ووسيلة، تجعل قلبه على هذا الوصف، فيعلم العبد أن هذا الوصف من أجل مكارم الأخلاق وأكملها، فيجاهد نفسه على الاتصاف به، ويعلم ما رتب الله عليه من الثواب، وما في فواته من حرمان الثواب؛ فيرغب في فضل ربه، ويسعى بالسبب الذي ينال به ذلك. ويعلم أن الجزاء من جنس العمل. ويعلم أن الأخوة الدينية والمحبة الإيمانية، قد عقدها الله وربطها بين المؤمنين، وأمرهم أن يكونوا إخوانا متحابين، وأن ينبذوا كل ما ينافي ذلك من البغضاء، والعداوات، والتدابر.

فلا يزال العبد يتعرف الأسباب التي يدرك بها هذا الوصف الجليل، ويجتهد في التحقق به، حتى يمتلئ قلبه من الرحمة، والحنان على الخلق. ويا حبذا هذا الخلق الفاضل، والوصف الجليل الكامل.

وهذه الرحمة التي في القلوب، تظهر آثارها على الجوارح واللسان، في السعي في إيصال البر والخير والمنافع إلى الناس، وإزالة الأضرار والمكاره عنهم.

وعلامة الرحمة الموجودة في قلب العبد، أن يكون محبا لوصول الخير لكافة الخلق عموما، وللمؤمنين

خصوصـا، كارها حصـول الشر والضــرر عليهم. فبقـدر هذه المحبة والكراهة تكون رحمته.

ومن أصيب حبيبه بموت أو غيره من المصائب، فإن كان حزنه عليه لرحمة، فهو محمود، ولا ينـافي الصـبر والرضـى، لأنه ﷺ لما بكى لمـوت ولد ابنتـه، قـال له سـعد: " ما هـذا يا رسـول الله ؟ " فـأتبع ذلك بعـبرة أخـرى، وقـال: ﴿هـذه رحمة يجعلها الله في قلـوب عباده، وإنما يـرحم الله من عبـاده الرحمـاء﴾ [1] وقـال عند مـوت ابنه إبـراهيم: ﴿القلب يحـزن، والعين تـدمع، ولا نقـول إلا ما يرضي ربنـا، وإنا لفراقك يا إبـراهيم لمحزونون﴾ [2] .

وكذلك رحمة الأطفال الصغار والرقة عليهم، وإدخال السـرور عليهم من الرحمـة، وأما عـدم المبـالاة بهم، وعـدم الرقة عليهم، فمن الجفـاء والغلظة والقسـوة، كما قـال بعض جفـاة الأعـراب حين رأى النـبي ﷺ وأصحابه يقبلون أولادهم الصغار، فقـال ذلك الأعـرابي: إن لي عشـرة من الولد ما قبلت واحـدا منهم، فقـال النـبي ﷺ ﴿أوأملك لك شـيئا أن نـزع الله من قلبك الرحمة ؟﴾ [3] .

---

1 (?) البخاري الجنائز (1224) ، مسلم الجنائز (923) ، النسائي الجنائز (1868) ، أبو داود الجنائز (3125) ، أحمد (5/204) .

2 (?) البخـاري الجنـائز (1241) ، مسـلم الفضـائل (2315) ، أبـو داود الجنائز (3126) ، أحمد (3/194) .

3 (?) البخـاري الأدب (5652) ، مسـلم الفضـائل (2317) ، ابن ماجـه الأدب (3665) ، أحمد (6/56) .

ومن الرحمـــة: رحمة المـــرأة البغي حين ســقت الكلب، الـذي كـاد يأكل الـثرى من العطش، فغفر الله لها بسبب تلك الرحمة.

وضـدها: تعـذيب المـرأة الـتي ربطت الهـرة، لا هي أطعمتها وســقتها، ولا هي تركتها تأكل من خشــاش الأرض [1] حتى ماتت.

ومن ذلك ما هو مشاهد مجرب، أن من أحسن إلى بهائمه بالإطعـام والسـقي والملاحظة النافعـة، أن الله يبارك له فيها. ومن أساء إليها، عـوقب في الـدنيا قبل الآخـــرة، وقـــال تعـــالى: [illegible] [2] [المائدة: 32] .

وذلك لما في قلب الأول من القســـــــوة والغلظة والشــــــــــر، وما في قلب الآخر من الرحمة والرقة والرأفــة، إذ هو بصــدد إحيــاء كل من له قــدرة على إحيائه من النــــــاس، كما أن ما في قلب الأول من القسوة، مستعد لقتل النفوس كلها.

فنســأل الله أن يجعل في قلوبنا رحمة تــوجب لنا سلوك كل باب من أبـواب رحمة اللـه، ونحنو بها على

---

1 (?) حشراتها وهوامها .

2 (?) سورة المائدة آية : 32 .

جميع خلق اللـــه، وأن يجعلها موصـــلة لنا إلى رحمته وكرامته، إنه جواد كريم.

حديث من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه

الحديث الثالث والثمانون

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله   من أحب أن يبسط له في رزقـــه، وينسأ له في أثـــره، فليصل رحمه [1] . متفق عليه.

هذا الحديث فيه: الحث على صلة الرحم، وبيان أنها كما أنها موجبة لرضى الله وثوابه في الآخـــــرة، فإنها موجبة للثـواب العاجـل، بحصـول أحب الأمـور للعبـد، وأنها سـبب لبسط الـرزق وتوسـيعه، وسـبب لطـول العمر. وذلك حق على حقيقتـه؛ فإنه تعـالى هو الخـالق للأسباب ومسبباتها.

وقد جعل الله لكل مطلوب سـببا وطريقا ينـال بـه، وهذا جار على الأصل الكبـير، وأنه من حكمته وحمـده جعل الجزاء من جنس العمل، فكما وصل رحمه بـالبر والإحسان المتنوع، وأدخل على قلوبهم السـرور، وصل الله عمـره، ووصل رزقـه، وفتح له من أبـواب الـرزق وبركاته، ما لا يحصل له بدون هذا السبب الجليل.

---

[1] (?) البخاري الأدب (5640) ، مسلم البر والصلة والآداب (2557) ، أبو داود الزكاة (1693) ، أحمد (3/247) .

وكما أن الصحة وطيب الهواء وطيب الغذاء، واستعمال الأمور المقوية للأبدان والقلوب، من أسباب طول العمر، فكذلك صلة الرحم جعلها الله سببا ربانيا.

فإن الأسباب التي تحصل بها المحبوبات الدنيوية قسمان: أمور محسوسة، تدخل في إدراك الحواس، ومدارك العقول. وأمور ربانية إلهية قدرها من هو على كل شيء قدير، ومن جميع الأسباب وأمور العالم منقادة لمشيئته، ومن تكفل بالكفاية للمتوكلين، ووعد بالرزق والخروج من المضايق للمتقين. قال تعالى: [illegible]

[illegible] [1] [الطلاق: 2، 3] .

وإذا كان النبي [illegible] يقول: [illegible]ما نقصت صدقة من مال[illegible] [2] بل تزيده، فكيف بالصدقة والهدية على أقاربه وأرحامه ؟

وفي هذا الحديث دليل: على أن قصد العامل، ما يترتب على عمله من ثواب الدنيا لا يضره إذا كان القصد من العمل وجه الله والدار الآخرة. فإن الله بحكمته ورحمته رتب الثواب العاجل والآجل، ووعد بذلك العاملين؛ لأن الأمل واستثمار ذلك ينشط العاملين، ويبعث هممهم على الخير، كما أن الوعيد

---

1 (?) سورة الطلاق آية : 2 ، 3 .

2 (?) مسلم البر والصلة والآداب (2588) ، الترمذي البر والصلة (2029) ، أحمد (2/386) ، مالك الجامع (1885) ، الدارمي الزكاة (1676) .

على الجرائم، وذكر عقوباتها مما يخوف الله به عبـاده ويبعثهم على ترك الذنوب والجرائم.

فالمؤمن الصادق يكون في فعله وتركه مخلصا للـه، مستعينا بما في الأعمـال من المرغبـات المتنوعة على هذا المقصد الأعلى، والله الموفق.

حديث المرء مع من أحب

الحديث الرابع والثمانون

عن أبي موسى الأشعري □ قال: قال رســول الله □ □المرء مع من أحب□ [1] . متفق عليه.

□المــرء مع من أحب□ [2] هــذا الحــديث فيه الحث على قــوة محبة الرســل، واتبــاعهم بحسب مــراتبهم، والتحذير من محبة ضدهم، فإن المحبة دليل على قوة اتصـال المحب بمن يحبـه، ومناسـبته لأخلاقـه، واقتدائه به، فهي دليل على وجــود ذلـك، وهي أيضا باعثة على ذلك.

وأيضا من أحب الله تعــالى، فــإن نفس محبته من أعظم ما يقربه إلى اللــه، فــإن الله تعــالى شــكور، يعطي المتقرب أعظم - بأضعاف مضـاعفة - مما بـذل، ومن شـــكره تعـــالى: أن يلحقه بمن أحب، وإن قصر عملــه، قــال تعــالى: □ [illegible]

[1] (?) البخاري الأدب (5816) ، مسلم البر والصـلة والآداب (2641) ، أحمد (4/405) .

[2] (?) البخاري الأدب (5816) ، مسلم البر والصـلة والآداب (2641) ، أحمد (4/405) .

[illegible] [1] [النساء: 69] .

ولهـذا قـال أنس: " ما فرحنا بشـيء فرحنا بقوله ﷺ ﴿المرء مع من أحب﴾ [2] قـال: فأنا أحب رسـول اللـه، وأبا بكر، وعمر، فأرجو أن أكون معهم ".

وقال تعالى: ﴿ [illegible] ﴾ [3] [الرعد: 23]. وقال سـبحانه: ﴿ [illegible] [4] [illegible] ﴾ [5] . [الطور: 21].

وهذا مشاهد مجرب إذا أحب العبد أهل الخـير رأيته منضـما إليهم، حريصا على أن يكـون مثلهم، وإذا أحب أهل الشر انضم إليهم، وعمل بأعمالهم.

وقال ﷺ ﴿المرء على دين خليله، فلينظر أحـدكم من يخالل﴾ [6] ، و ﴿مثل الجليس الصالح، كحامل المسـك: إما أن يحذيك، وإما أن يبيعك، وإما أن تجد منه رائحة

---

1 (?) سورة النساء آية : 69 .

2 (?) البخاري الأدب (5816) ، مسلم البر والصـلة والآداب (2641) ، أحمد (4/405) .

3 (?) سورة الرعد آية : 23 .

4 (?) نقصناهم .

5 (?) سورة الطور آية : 21 .

6 (?) الترمذي الزهد (2378) ، أبو داود الأدب (4833) ، أحمـد (2/303) .

طيبة، ومثل الجليس السوء كنافخ الكير: إما أن يحـرق ثيابك، وإما أن تجد معه رائحة خبيثة [1] .

وإذا كـان هـذا في محبة الخلق فيما بينهم، فكيف بمن أحب الله، وقدم محبته وخشيته على كل شيء ؟ فإنه مع اللـه، وقد حصل له القـرب الكامل منـه، وهو قـرب المحـبين، وكـان الله معـه. ف [2] [النحل: 128].

وأعلى أنواع الإحسان محبة الرحيم الكريم الـرحمن، محبة مقرونة بمعرفتـه. فنسـألـ الله أن يرزقنا حبـه، وحب من يحبه، وحب العمل الذي يقرب إلى حبه، إنه جواد كريم، وبالله التوفيق.

حديث أن رسول الله كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر كبر ثلاثا...

الحديث الخامس والثمانون

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسـول الله كـان إذا اسـتوى على بعـيره خارجا إلى سـفر: كبر ثلاثا، ثم قال: سبحان الـذي سـخر لنا هـذا وما كنا له مقـرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبـون. اللهم إنا نسـألك في سفرنا هـذا الـبر والتقـوى، ومن العمل ما ترضـى، اللهم هـون علينا سـفرنا هـذا، وأطو عنا بعـده، اللهم أنت الصـاحب في السـفر، والخليفة في الأهـل، اللهم

---

[1] (?) البخاري الذبائح والصيد (5214) ، مسـلم الـبر والصـلة والآداب (2628) .

[2] (?) سورة النحل آية : 128 .

إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب، في المال والأهل والولد وإذا رجع قالهن وزاد فيهن: آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون [1] . رواه مسلم.

هذا الحديث فيه فوائد عظيمة تتعلق بالسفر.

وقد اشتملت هذه الأدعية على طلب مصالح الدين - التي هي أهم الأمور - ومصالح الدنيا، وعلى حصول المحاب، ودفع المكاره والمضار وعلى شكر نعم الله، والتذكر لآلائه وكرمه، واشتمال السفر على طاعة الله، وما يقرب إليه.

فقوله: كان إذا استوى على راحلته خارجا إلى سفر، كبر ثلاثا [2] هو افتتاح لسفره بتكبير الله، والثناء عليه، كما كان يختم بذلك.

وقوله سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين [3] وإنا إلى ربنا لمنقلبون [4] فيه الثناء على الله بتسخيره للمركوبات، التي تحمل الأثقال والنفوس إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة، واعتراف بنعمة الله بالمركوبات.

1 (?) مسلم الحج (1342) ، الترمذي الدعوات (3447) ، أبو داود الجهاد (2599) ، أحمد (2/150) ، الدارمي الاستئذان (2673) .

2 (?) مسلم الحج (1342) ، الترمذي الدعوات (3447) ، أبو داود الجهاد (2599) ، أحمد (2/150) ، الدارمي الاستئذان (2673) .

3 (?) مطيقين تذليله وتسخيره .

4 (?) راجعون يوم القيامة .

وهذا يدخل فيه المركوبات: من الإبل، ومن السفن البحرية، والبرية، والهوائية، فكلها تدخل في هذا.

ولهذا قال نوح ﷺ للراكبين معه في السفينة: ﴿[illegible]﴾ [1] [هود: 41] .

فهذه المراكب، كلها وأسبابها، وما به تتم وتكمل، كله من نعم الله وتسخيره يجب على العباد الاعتراف لله بنعمته فيها، وخصوصا وقت مباشرتها.

وفيه تذكر الحالة التي لولا الباري لما حصلت وذللت في قوله: ﴿وما كنا له مقرنين﴾ [2] أي مطيقين، لو رد الأمر إلى حولنا وقوتنا، لكنا أضعف شيء علما وقدرة وإرادة، ولكنه تعالى سخر الحيوانات وعلم الإنسان صنعة المركوبات، كما امتن الله في تيسير صناعة الدروع الواقية في قوله: ﴿[illegible] [4] [illegible] [3]﴾ [5] .

فعلى الخلق أن يشكروا الله، إذ علمهم صناعة اللباس الساتر للعورات، ولباس الرياش، ولباس الحرب وآلات الحرب، وعلمهم صنعة الفلك البحرية والبرية والهوائية، وصنعة كل ما يحتاجون إلى الانتفاع به، وأنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس

---

1 (?) سورة هود آية : 41 .

2 (?) مسلم الحج (1342) ، الترمذي الدعوات (3447) ، أبو داود الجهاد (2599) ، أحمد (2/150) ، الدارمي الاستئذان (2673) .

3 (?) دروع تلبسونها وقت الحرب .

4 (?) حربكم وشدتكم وقوتكم .

5 (?) سورة الأنبياء آية : 80 .

متنوعة. ولكن أكثر الخلق في غفلة عن شكر الله، بل في عتو واستكبار على الله، وتجبر بهذه النعم على العباد.

وفي هذا الحديث التذكر بسفر الدنيا الحسي لسفر الآخرة المعنوي، لقوله: ﴿وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ [1] فكما بدأ الخلق فهو يعيدهم ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

وقوله: ﴿اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى﴾ [2] .

سأل الله أن يكون السفر موصوفا بهذا الوصف الجليل، محتويا على أعمال البر كلها المتعلقة بحق الله والمتعلقة بحقوق الخلق، وعلى التقوى التي هي اتقاء سخط الله، بترك جميع ما يكرهه الله من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، كما سأله العمل بما يرضاه الله.

وهذا يشمل جميع الطاعات والقربات، ومتى كان السفر على هذا الوصف، فهو السفر الرابح، وهو السفر المبارك.

وقد كانت أسفاره ﷺ كلها محتوية لهذه المعاني الجليلة.

---

[1] (?) مسلم الحج (1342) ، الترمذي الدعوات (3447) ، أبو داود الجهاد (2599) ، أحمد (2/150) .

[2] (?) مسلم الحج (1342) ، الترمذي الدعوات (3447) ، أبو داود الجهاد (2599) ، أحمد (2/150) .

ثم سأل الله الإعانة، وتهوين مشاق السفر، فقال: ﴿اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده﴾ [(1)] لأن السفر قطعة من العذاب، فسأل تهوينه، وطي بعيده، وذلك بتخفيف الهموم والمشاق، وبالبركة في السير، حتى يقطع المسافات البعيدة، وهو غير مكترث، ويقيض له من الأسباب المريحة في السفر أمورا كثيرة، مثل راحة القلب، ومناسبة الرفقة، وتيسير السير، وأمن الطريق من المخاوف، وغير ذلك من الأسباب.

فكم من سفر امتد أياما كثيرة، لكن الله هونه، ويسره على أهله، وكم من سفر قصير صار أصعب من كل صعب، فما ثم إلا تيسير الله ولطفه ومعونته.

ولهذا قال في تحقيق تهوين السفر: ﴿اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر﴾ [(2)] أي مشقته وصعوبته ﴿وكآبة المنظر﴾ [(3)] أي الحزن الملازم والهم الدائم ﴿وسوء المنقلب في المال والأهل والولد﴾ [(4)] أي: يا رب نسألك أن تحفظ علينا كل ما خلفناه وراءنا، وفارقناه بسفرنا من أهل وولد ومال، وأن ننقلب

---

1 (?) مسلم الحج (1342) ، الترمذي الدعوات (3447) ، أبو داود الجهاد (2599) ، أحمد (2/150) .

2 (?) مسلم الحج (1342) ، الترمذي الدعوات (3447) ، أبو داود الجهاد (2599) ، أحمد (2/150) .

3 (?) مسلم الحج (1342) ، الترمذي الدعوات (3447) ، أبو داود الجهاد (2599) ، أحمد (2/150) .

4 (?) مسلم الحج (1342) ، الترمذي الدعوات (3447) ، أبو داود الجهاد (2599) ، أحمد (2/150) .

إليهم مســـرورين بالســـلامة، والنعم المتـــواترة علينا وعليهم: فبذلك تتم النعمة، ويكمل السرور.

وكذلك يقـول هـذا في رجوعـه، وعـوده من سـفره، ويزيـد: ﴿آيبـون تـائبون عابـدون، لربنا حامـدون﴾ [1] أي نســـــألك اللهم أن تجعلنا في إيابنا ورجوعنا ملازمين للتوبة لـــك، وعبادتك وحمـــدك، وأن تختم ســـفرنا بطاعتك، كما ابتدأته بالتوفيق لها.

ولهذا قال تعالى: ﴿[illegible]﴾ [2] [الإسراء: 80] .

ومـدخل الصـدق ومخرجـه، أن تكـون أسـفار العبـد، ومداخله ومخارجه كلها تحتـوي على الصـدق والحـق، والاشـتغال بما يحبه اللـه، مقرونة بالتوكل على اللـه، ومصحوبة بمعونته.

وفيه الاعـتراف بنعمته آخـرا، كما اعـترف بها أولا، في قوله: ﴿لربنا حامدون﴾ [3] .

فكما أن على العبد أن يحمد الله على التوفيق لفعل العبـادة والشـروع في الحاجـة، فعليه أن يحمد الله على تكميلها وتمامها، والفـراغ منهـا، فـإن الفضل فضله، والخير خيره، والأسباب أسبابه. والله ذو الفضل العظيم.

---

1 (?) أبو داود الجهاد (2770) ، أحمد (2/150) .
2 (?) سورة الإسراء آية : 80 .
3 (?) الترمذي الحج (950) ، أبو داود الجهاد (2770) ، أحمد (2/150) .

حديث خذوا عني مناسككم

الحديث السادس والثمانون

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن النبي قال: خذوا عني مناسككم [1] . رواه أحمد ومسلم والنسائي.

هذا كلام جامع استدل به أهل العلم على مشروعية جميع ما فعله النبي وما قاله في حجه وجوبا في الواجبات، ومستحبا في المستحبات، وهو نظير قوله في الصلاة: صلوا كما رأيتموني أصلي [2] فكما أن ذلك يشمل جزئيات الصلاة كلها، فهذا يشمل جزئيات المناسك كلها.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام حسن جدا في خلاصة حج النبي ذكره في " القواعد النورانية "، فقال قدس الله روحه ورضي عنه:

وقد ثبت بالنقل المتواتر عند الخاصة من علماء الحديث من وجوه كثيرة في " الصحيحين " وغيرهما: أنه لما حج حجة الوداع أحرم هو والمسلمون من ذي الحليفة. فقال: من شاء أن يهل [3] بعمرة فليفعل، ومن شاء أن يهل بحجة فليفعل، ومن شاء أن يهل بعمرة وحجة فليفعل فلما قدموا وطافوا

---

1 (?) النسائي مناسك الحج (3062) .

2 (?) البخاري الأذان (605) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (674) ، النسائي الأذان (635) ، الدارمي الصلاة (1253) .

3 (?) هو رفع الصوت بالتلبية ، والمراد هنا مع النية .

بـالبيت وبين الصـفا والمـروة، أمر جميع المسـلمين الـذين حجـوا معه أن يحلـوا من إحـرامهم ويجعلوها عمـرة، إلا من سـاق الهـدي، فإنه لا يحل حـتى يبلغ الهدي محله [1] فراجعه بعضه في ذلك. فغضب، وقـال: انظروا ما أمرتكم به فافعلوه . وكان هو قد ساق الهدي، فلم يحل من إحرامه، ولما رأى كراهة بعضـهم للإحلال قال: لو استقبلت من أمري ما اسـتدبرت لما سـقت الهـدي، ولجعلتها عمـرة، ولـولا أن معي الهـدي لأحللت [2] . وقـال أيضـا: إني لبـدت رأسي وقلـدت هـديي، فلا أحل حـتى أنحر [3] . فحل المسـلمون جميعهم إلا النفر الـذين سـاقوا الهـدي؛ منهم: رسـول الله وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله.

فلما كـان يـوم التروية أحـرم المحلـون بـالحج، وهم ذاهبون إلى مـنى، فبـات بهم تلك الليلة بمـنى وصـلى بهم فيها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجـر، ثم سار بهم إلى نمـرة، على طريق ضـب، ونمـرة خارجة عن عرفة، من يمانيها وغربيهـا، ليست من الحـرم، ولا من عرفة. فنصـبت له القبة بنمـرة. وهنـاك كـان يـنزل

---

1 (?) مكان ذبحه في الحرم .

2 (?) البخاري الحج (1568) ، النسائي مناسك الحج (2805) ، أحمد (3/366) .

3 (?) البخاري الحج (1491) ، مسلم الحج (1229) ، النسائي مناسك الحج (2682) ، أبـو داود المناسـك (1806) ، ابن ماجـه المناسـك (3046) ، أحمد (6/285) ، مالك الحج (897) .

خلفاؤه الراشدون بعده، وبها الأسواق، وقضاء الحاجــة، والأكل، ونحو ذلك.

فلما زالت الشمس ركب هو ومن ركب معه، وسار المســلمون إلى المصــلى ببطن عرنــة، حيث قد بــني المسجد وليس هو من الحرم، ولا من عرفـة. وإنما هو برزخ بين المشعرين: الحلال والحـرام هنـاك، بينه وبين الموقف نحو ميـــــــل، فخطب فيهم خطبة الحج على راحلته، وكان يوم الجمعة، ثم نــزل فصــلى بهم الظهر والعصر مقصورتين مجموعـتين. ثم سـار - والمسـلمون معه - إلى الموقف بعرفة عند الجبل المعـــروف بجبل الرحمــة. واســمه " إلال " على وزن هلال، وهو الــذي تســميه العامة عرفــة، فلم يــزل هو والمســلمون في الذكر والدعاء إلى أن غربت الشــمس، فـدفع بهم إلى مزدلفـة، فصـلى المغـرب والعشـاء بعد مغيب الشـفق قبل حط الرحال، حين نزلوا بمزدلفـة، وبـات بها حـتى طلع الفجر، فصـلى بالمسـلمين الفجر في أول وقتهـا، مغلسا بها زيــادة على كل يــوم، ثم وقف عند قــزح، وهو جبل مزدلفة الــذي يســمى المشـعر الحـرام، فلم يزل واقفا بالمسلمين إلى أن أسفر جــدا، ثم دفع بهم حتى قـدم مـنى، فاسـتفتحها بـرمي جمـرة العقبـة، ثم رجع إلى منزله بمـــــــــنى، ثم أتى المنحر ونحر ثلاثا وسـتين بدنة من الهـدي الـذي سـاقه، وأمر عليا فنحر الباقي وكان مائة بدنة، ثم حلق رأسه.

ثم أفاض إلى مكة، فطاف طواف الإفاضة، وكان قد عجل ضعفة أهله من مزدلفة قبل طلوع الفجر، فرموا الجمرة بليل. ثم أقام بالمسلمين أيام منى الثلاث، يصلي بهم الصلوات الخمس مقصورة غير مجموعة، يرمي كل يوم الجمرات الثلاث بعد زوال الشمس، يستفتح بالجمرة الأولى - وهي الصغرى، وهي الدنيا إلى منى - والقصوى من مكة. ويختتم بجمرة العقبة، ويقف بين الجمرتين: الأولى والثانية، وبين الثانية والثالثة وقوفا طويلا بقدر سورة البقرة، يذكر الله ويدعو؛ فإن المواقف ثلاث: عرفة، ومزدلفة، ومنى. ثم أفاض آخر أيام التشريق بعد رمي الجمرات هو والمسلمون، فنزل بالمحصب، عند خيف بني كنانة، فبات هو والمسلمون ليلة الأربعاء، وبعث تلك الليلة عائشة مع أخيها عبد الرحمن؛ لتعتمر من التنعيم، وهو أقرب أطراف الحرم إلى مكة، من طريق أهل المدينة. وقد بني بعده هناك مسجد سماه الناس مسجد عائشة؛ لأنه لم يعتمر بعد الحج مع النبي من أصحابه أحد قط إلا عائشة، لأجل أنها كانت قد حاضت لما قدمت وكانت معتمرة. فلم تطف قبل الوقوف بالبيت، ولا بين الصفا والمروة، وقال لها النبي اقضي ما يقضي الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت،

ولا بين الصفا والمروة [1] ثم ودع البيت هو والمسلمون ورجعوا إلى المدينة. ولم يقم بعد أيام التشريق، ولا اعتمر أحد قط على عهده عمرة يخرج فيها من الحرم إلى الحل إلا عائشة - رضي الله عنها - وحدها فأخذ فقهاء الحديث - كأحمد وغيره - بسنته

الحديث السابع والثمانون

في ذلك كله، إلى آخر ما قال رحمه الله ورضي عنه. والله أعلم.

حديث قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تعدل ثلث القرآن

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تعدل ثلث القرآن [2] . رواه مسلم.

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تعدل ثلث القرآن [3] تكلم أهل العلم على معنى هذه المعادلة وتوجيهها.

وأحسن ما قيل فيها: أن معادلتها لثلث القرآن، لما تضمنته من المعاني العظيمة: معاني التوحيد، وأصول الإيمان. فإن المواضيع الجليلة التي اشتمل القرآن عليها:

1 - إما أحكام شرعية: ظاهرة أو باطنة، عبادات أو معاملات.

---

[1] (?) النسائي الطهارة (290) ، أبو داود المناسك (1782) ، ابن ماجه المناسك (2963) ، أحمد (6/273) .

[2] (?) مسلم صلاة المسافرين وقصرها (811) ، الدارمي فضائل القرآن (3431) .

[3] (?) مسلم صلاة المسافرين وقصرها (811) ، الدارمي فضائل القرآن (3431) .

2 - وإما قصص وأخبـــار عن المخلوقـــات الســـابقة واللاحقة، وأحوال المكلفين في الجزاء على الأعمال.

3 - وإما توحيد ومعارف، تتعلق بأسماء الله وصفاته، وتفـــــرده بالوحدانية والكمـــــال، وتنزهه عن كل عيب، ومماثلة أحد من المخلوقات.

فسورة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ مشتملة على هذا، وشاملة لكل ما يجب اعتقاده من هـذا الأصـل، الـذي هو أصل الأصول كلها.

ولهذا أمرنا الله أن نقولها بألسنتنا، ونعرفها بقلوبنـا، ونعترف بها ونَدين لله باعتقادها، والتعبد لله بها. فقال: [illegible] [1] .

فاللـه: هو المـألوه المسـتحق لمعـاني الألوهية كلهـا، الـتي تـوجب أن يكـون هو المعبـود وحـده، المحمـود وحـده، المشـكور وحـده، المعظم المقـدس، ذو الجلال والإكرام.

و " الأحد " يعــني: الــذي تفــرد بكل كمــال، ومجد وجلال، وجمـــال وحمـــد، وحكمة ورحمـــة، وغيرها من صفات الكمال.

فليس له فيها مثيل ولا نظير، ولا مناسب بوجه من الوجوه. فهو الأحد في حياته وقيوميته، وعلمه وقدرتــه، وعظمته وجلالــه، وجماله وحمـــده، وحكمته ورحمتـــه،

---

1 (?) سورة الإخلاص آية : 1 .

وغيرها من صفاته، موصوف بغاية الكمال ونهايتـه، من كل صفة من هذه الصفات.

ومن تحقيق أحديته وتفـــرده بها أنه [illegible] [1] أي: الرب الكامل، والسيد العظيم، الـذي لم يبق صـفة كمـال إلا اتصف بهـا. ووصف بغايتها وكمالهـا، بحيث لا تحيط الخلائق ببعض تلك الصـفات بقلـوبهم، ولا تعـبر عنها ألسنتهم. وهو المصـمود إليـه، المقصـود في جميع الحـــوائج والنـــوائب: [illegible] [2] [الرحمن: 29] .

فهو الغني بذاته، وجميع الكائنات فقيرة إليه بذاتهم، في إيجـــــادهم وإعـــــدادهم، وإمـــــدادهم بكل ما هم محتاجون إليه من جميع الوجـوه، ليس لأحد منها غـنى عنه مثقال ذرة، في كل حالة من أحوالها.

فالصمد: هو المصمود إليه، المقصود في كل شـيء، لكماله وكرمه وجـوده وإحسـانه. ولـذلك [illegible] [3] فـــإن المخلوقـــات كلها متولد بعضـــها من بعض، وبعضها والد بعض، وبعضها مولـود. وكل مخلـوق فإنه مخلوق من مادة. وأما الرب جل جلاله، فإنه منزه عن مماثلتها في هـــذا الوصـــف، كما هو مـــنزه عن مماثلتها في كل صفة نقص.

---

1 (?) سورة الإخلاص آية : 2 .

2 (?) سورة الرحمن آية : 29 .

3 (?) سورة الإخلاص آية : 3 .

ولهذا حقق ذلك التنزيه، وتمم ذلك الكمال بقوله: ﴿ ﴾ [1] أي: ليس له نظـــــير ولا مكـافئ ولا مثيـل، لا في أسـمائه، ولا في صـفاته، ولا في أفعاله، ولا في جميع حقوقه التي اختص بها.

فحقه الخاص أمـران: التفـرد بالكمـال كله من جميع الوجوه، والعبودية الخالصة من جميع الخلق.

فحق لسورة تتضمن هذه الجمل العظيمة: أن تعادل ثلث القـرآن، فـإن جميع ما في القـرآن من الأسـماء الحسـنى، ومن الصـفات العظيمة العليـا، ومن أفعـال الله وأحكام صفاته، تفاصيل لهذه الأسماء التي ذكـرت في هذه السورة، بل كل ما في القرآن من العبوديات الظـاهرة والباطنـة، وأصـنافها وتفاصـيلها، تفصـيل لمضمون هذه السورة. والله أعلم.

حديث لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق

الحديث الثامن والثمانون

عن عبد الله بن مسعود قال: قـال رسـول الله ﴿لا حسد إلا في اثنـتين: رجل آتـاه الله مـالا، فسـلطه على هلكته في الحـق. ورجل آتـاه الله الحكمـة، فهو يقضي بها ويعلمها﴾ [2] . متفق عليه.

---

1 (?) سورة الإخلاص آية : 4 .

2 (?) البخاري العلم (73) ، مسلم صلاة المسافرين وقصرها (816) ، ابن ماجه الزهد (4208) ، أحمد (1/385) .

الحسد نوعـان: نـوع محـرم مـذموم على كل حـال، وهو أن يتمـــــنى زوال نعمة الله عن العبد - دينية أو دنيوية - وســواء أحب ذلك محبة اســتقرت في قلبــه، ولم يجاهد نفسه عنهــا، أو ســعى مع ذلك في إزالتها وإخفائها، وهذا أقبح، فإنه ظلم متكرر.

وهذا النوع هو الـذي يأكل الحسـنات كما تأكل النـار الحطب.

والنـــوع الثـــاني أن لا يتمـــنى زوال نعمة الله عن الغير، ولكن يتمنى حصول مثلها له، أو فوقها أو دونها.

وهذا نوعان محمود، وغير محمود.

فالمحمود من ذلـك: أن يـرى نعمة الله الدينية على عبده، فيتمنى أن يكون له مثلها، فهذا من بـاب تمـني الخير، فإن قارن ذلك سعي وعمل لتحصيل ذلـك، فهو نور على نور.

وأعظم من يغبط: من كان عنـده مـال قد حصل له من حلـة، ثم سـلط ووفق على إنفاقه في الحـق، في الحقـــوق الواجبة والمســتحبة، فـــإن هـــذا من أعظم البرهان على الإيمان، ومن أعظم أنواع الإحسان.

ومن كان عنده علم وحكمة علمه الله إياهــا، فوفق لبذلها في التعليم والحكم بين النـاس، فهـذان النوعـان من الإحسان لا يعادلهما شيء.

الأول: ينفع الخلق بماله، ويدفع حاجـاتهم، وينفق في المشـاريع الخيريــة، فتقــوم ويتسلسل نفعهــا، ويعظم وقعها.

والثــاني: ينفع النــاس بعلمــه، وينشر بينهم الــدين والعلم الــذي يهتـدي به العبـاد في جميع أمـورهم، من عبادات ومعاملات وغيرها.

ثم بعد هــذين الاثــنين: تكــون الغبطة على الخــير، بحسب حاله ودرجاته عند اللــه. ولهـذا أمر الله تعـالى بـالفرح والاستبشـار بحصـول هـذا الخـير، وإنه لا يوفق لذلك إلا أهل الحظوظ العظيمة العالية. قال تعالى: [illegible] [1] [يــونس: 58]، وقــال: [illegible] [2] [فصـــلت: 34، 35].

وقد يكـون من تمـنى شـيئا من هـذه الخـيرات، له مثل أجر الفاعل إذا صـدقت نيتـه، وصـمم من عزيمته أن لو قــدر على ذلك العمــل، لعمل مثلــه، كما ثبت بذلك الحديث. وخصوصا إذا شرع وسعى بعض السعي.

---

1 (?) سورة يونس آية : 58 .

2 (?) سورة فصلت آية : 34 ، 35 .

وأما الغبطة التي هي غير محمودة، فهي تمني حصول مطالب الدنيا لأجل اللذات، وتناول الشهوات، كما قال الله تعالى حكاية عن قوم قارون: ﴿ ﴾ [1] [القصص: 79]، فإن تمني مثل حالة من يعمل السيئات فهو بنيته، ووزرهما سواء.

فبهذا التفصيل يتضح الحسد المذموم في كل حال. والحسد الذي هو الغبطة، الذي يحمد في حال، ويذم في حال. والله أعلم.

حديث اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى

الحديث التاسع والثمانون

عن عبد الله بن مسعود أن النبي كان يدعو، فيقول: اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى [2] رواه مسلم.

هذا الدعاء اللهم إني أسألك الهدى والتقى [3] من أجمع الأدعية وأنفعها. وهو يتضمن سؤال خير الدين وخير الدنيا، فإن " الهدى " هو العلم النافع. " والتقى " العمل الصالح، وترك ما نهى الله ورسوله عنه. وبذلك يصلح الدين، فإن الدين علوم نافعة،

---

1 (?) سورة القصص آية : 79 .

2 (?) مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (2721) ، الترمذي الدعوات (3489) ، ابن ماجه الدعاء (3832) ، أحمد (1/416) .

3 (?) مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (2721) ، الترمذي الدعوات (3489) ، ابن ماجه الدعاء (3832) ، أحمد (1/416) .

ومعـــارف صـــادقة، فهي الهـــدى، وقيـــام بطاعة الله ورسوله، فهو التقى.

و ﴿العفـاف والغـنى﴾ يتضـمن العفـاف عن الخلـق، وعدم تعليق القلب بهم. والغنى بالله وبرزقـه، والقناعة بما فيــه، وحصــول ما يطمئن به القلب من الكفايــة. وبذلك تتم سعادة الحيـاة الـدنيا، والراحة القلبيـة، وهي الحياة الطيبة.

فمن رزق الهــدى والتقى، والعفــاف والغــنى، نــال الســـــعادتين، وحصل له كل مطلــــوب، ونجا من كل مرهوب. والله أعلم.

حديث من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر

الحديث التسعون

عن عبد الله بن عمـرو رضي الله عنهما قـال: قـال رسول الله ﷺ ﴿من أحب أن يزحزح عن النـار، ويـدخل الجنــة، فلتأته منيته وهو يــؤمن بالله واليــوم الآخــر، وليأت إلى الناس الـذي يحب أن يـؤتى إليه﴾ [1] . رواه مسلم.

لا شك أن من زحــزح عن النـــار وأدخل الجنة فقد فاز، وأن هذه غاية يسعى إليها جميع المؤمـنين، فـذكر

[1] (?) مسلم الإمارة (1844) ، النسائي البيعة (4191) ، أحمد (2/191) .

النبي في هذا الحديث لها سببين، ترجع إليهما جميع الشعب والفروع، الإيمان بالله واليوم الآخر، المتضمن للإيمان بالأصول التي ذكرها الله بقوله:

 [1] [البقرة: 136]. ومتضمن للعمل للآخرة والاستعداد لها؛ لأن الإيمان الصحيح يقتضي ذلك ويستلزمه، والإحسان إلى الناس، وأن يصل إليهم من القول والفعل والمال والمعاملة ما يحب أن يعاملوه به.

فهذا هو الميزان الصحيح للإحسان وللنصح، فكل أمر أشكل عليك مما تعامل به الناس، فانظر، هل تحب أن يعاملوك بتلك المعاملة أم لا ؟ فإن كنت تحب ذلك، كنت محبا لهم ما تحب لنفسك، وإن كنت لا تحب أن يعاملوك بتلك المعاملة، فقد ضيعت هذا الواجب العظيم [2] .

حديث إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا...

الحديث الحادي والتسعون

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويكره لكم ثلاثا، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله

---

1 (?) سورة البقرة آية : 136 .

2 (?) فالجملة الأولى فيها القيام بحق الله ، والجملة الثانية فيها القيام بحق الخلق . والله أعلم .

جميعا، ولا تفرقوا، ويكره لكم، قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال [1] رواه مسلم.

فيه إثبات الرضى لله، وذكر متعلقاته، وإثبات الكراهة منه، وذكر متعلقاتها؛ فإن الله جل جلاله من كرمه على عباده، يرضى لهم ما فيه مصلحتهم، وسعادتهم في العاجل والآجل.

وذلك بالقيام بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين له بأن يقوم الناس بعقائد الإيمان وأصوله، وشرائع الإسلام الظاهرة والباطنة، وبالأعمال الصالحة، والأخلاق الزاكية، كل ذلك خالصا لله موافقا لمرضاته، على سنة نبيه، ويعتصموا بحبل الله، وهو دينه الذي هو الوصلة بينه وبين عباده، فيقوموا به مجتمعين متعاونين على البر والتقوى المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يكذبه، ولا يحقره [2] ، بل يكون محبا له مصافيا، وأخا معاونا.

وبهذا الأصل والذي قبله يكمل الدين، وتتم النعمة على المسلمين، ويعزهم الله بذلك وينصرهم، لقيامهم بجميع الوسائل التي أمرهم الله بها والتي تكفل لمن أقام بها بالنصر والتمكين، وبالفلاح والنجاح العاجل والآجل.

---

1 (?) مسلم الأقضية (1715) ، أحمد (2/360) ، مالك الجامع (1863) .

2 (?) مسلم البر والصلة والآداب (2564) ، أحمد (2/277) .

ثم ذكر ما كـره الله لعبـاده، (القيل والقـال) مما ينـافي هـذه الأمـور الـتي يحبها وينقضـها فمنهـا: كـثرة القيل والقــال، فــإن ذلك من دواعي الكــذب، وعــدم التثبت، واعتقاد غـير الحـق. ومن أسـباب وقـوع الفتن، وتنـافر القلـوب، ومن الاشـتغال بـالأمور الضـارة عن الأمور النافعة. وقل أن يسلم أحد من شيء من ذلـك، إذا كانت رغبته في القيل والقال.

وأما قولـه: وكـثرة السـؤال [1] فهـذا هو السـؤال المــذموم، كســؤال الــدنيا من غــير حاجة وضــرورة، والسؤال على وجه التعنت والإعنات، وعن الأمور الـتي يخشى من ضــررها، أو عن الأمــور الـتي لا نفع فيهـا، الداخلة في قوله تعـــــــالى: [illegible] [2] [المائـــــــدة: 101] .

وأما الســــــؤال عن العلــــــوم النافعة على وجه الاسترشاد أو الإرشاد، فهذا محمود مأمور به.

وقولـه: وإضـاعة المـال [3] وذلك إما بـترك حفظه حـتى يضـيع، أو يكـون عرضة للسـراق والضـياع، وإما بإهمـال عمـارة عقـاره، أو الإنفـاق على حيوانـه، وإما بإنفاق المال في الأمور الضـارة، أو غـير النافعـة. فكل

---

[1] (?) البخاري الزكاة (1407) ، مسلم الأقضية (593) ، النسائي السهو (1341) ، أحمد (4/249) .

[2] (?) سورة المائدة آية : 101 .

[3] (?) البخاري الزكاة (1407) ، مسلم الأقضـية (593) ، أحمـد (4/249) ، الدارمي الرقاق (2751) .

هذا داخل في إضاعة المال. وإما بتولي ناقصي العقول لهـا، كالصـغار والسـفهاء والمجـانين ونحـوهم؛ لأن الله تعالى جعل الأمـوال قياما للنـاس، بها تقـوم مصـالحهم الدينية والدنيويـة، فتمـام النعمة فيها أن تصـرف فيما خلقت لـه: من المنـافع والأمـور الشـرعية، والمنـافع الدنيوية.

وما كرهه الله لعبـاده، فهو يحب منهم ضـدها، يحب منهم أن يكونـوا متثبـتين في جميع ما يقولونـه، وأن لا ينقلـوا كل ما سـمعوه، وأن يكونـوا متحـرين للصـدق، وأن لا يسـألوا إلا عما ينفـع، وأن يحفظـوا أمـوالهم ويدبروها، ويتصرفوا فيها التصرفات النافعة، ويصـرفوها في المصـارف النافعـة. ولهـذا قـال تعـالى: ﴿ [illegible] ﴾[1] . [النسـاء: 5]. والحمد لله أولا وآخرا. والله أعلم.

حديث...خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك

الحديث الثاني والتسعون

عن عائشة رضي الله عنها قـالت: دخلت هند بنت عتبة امرأة أبي سـفيان على رسـول الله ﷺ فقـالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يعطيـني من النفقة ما يكفيـني ويكفي بـني، إلا ما أخذته من ماله بغـير علمـه، فهل علي في ذلك من جنـاح ؟ فقـال

1 (?) سورة النساء آية : 5 .

رسـول الله ﷺ خـذي من ماله بـالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك﴿ [1] . متفق عليه.

أخذ العلمـاء من هـذا الحـديث فقها كثـيرا، سأشـير إلى ما يحضرني منه.

أن المسـتفتي والمتظلم حكم الغيبة يجـوز أن يتكلم بالصـدق فيمن تعلق به الاسـتفتاء والتظلم، وليس من الغيبة المحرمـة، وهو أحد المواضع المسـتثنيات من الغيبـة، ويجمع الجميع الحاجة إلى التكلم في الغـير، فإن الغيبة المحرمة في ذكـرك أخـاك بما يكـره، فـإن احتيج إلى ذلك - كما ذكرنا وكما في النصيحة الخاصة، أو العامة، أو لا يعـرف إلا بلقبه - جـاز ذلك بمقـدار ما يحصل به المقصود.

ومنـه: أن نفقة الأولاد واجبة على الأب، وأنه يختص بها، لا تشاركه الأم فيها ولا غيره.

وكـذلك فيـه: وجـوب نفقة الزوجـة، وأن مقـدار ذلك الكفاية، لقوله ﷺ ﴿خـذي من ماله بـالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك﴿ [2] وأن الكفاية معتـبرة بـالعرف، بحسب أحوال الناس: في زمانهم ومكانهم، ويسرهم وعسرهم، وأن المنفق إذا امتنع أو شح عن النفقة أصلا أو

---

[1] (?) البخاري النفقـات (5049) ، مسـلم الأقضـية (1714) ، النسـائي آداب القضاة (5420) ، أبو داود البيوع (3532) ، ابن ماجه التجـارات (2293) ، أحمد (6/206) ، الدارمي النكاح (2259) .

[2] (?) البخاري البيوع (2097) ، مسلم الأقضية (1714) ، النسائي آداب القضـاة (5420) ، ابن ماجـه التجـارات (2293) ، الـدارمي النكـاح (2259) .

تكميلا، فلمن له النفقة أو يباشر الإنفـــاق أن يأخذ من مالــه، ولو بغــير علمــه، وذلك لأن الســبب ظــاهر، ولا ينسب في هذه الحالة إلى خيانــة، فلا يــدخل في قوله ﴿لا تخن من خانك﴾ [1] .

وهــذا هو القــول الوسط الصــحيح في مســألة الأخذ من مال من له حق عليه بغير علمه بمقدار حقه، وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد أنه لا يجوز ذلــك، إلا إذا كــان الســبب ظــاهرا، كالنفقة على الزوجة والأولاد والمماليك ونحوهم، وكحق الضيف.

ومنه أن المتــولي أمــرا من الأمــور يحتــاج فيه إلى تقــدير مــالي يقبل قوله في التقــدير؛ لأنه مــؤتمن، له الولاية على ذلك الشيء.

ومنه أن المستفتي فتــوى لها تعلق بــالغير، إذا غلب على ظن المســؤول صــدقه لا يحتــاج إلى إحضــار ذلك الغــير، وخصوصا إذا كــان في ذلك مفســدة، كما في هذه القضية، فإنه لو أحضر أبا سفيان لهــذه الشــكاية، لم يؤمن أن يقع بينه وبين زوجه ما لا ينبغي.

وليس في هــذا دلالة على الغــائب، فــإن هــذا ليس بحكم، وإنما هو استفتاء. والله أعلم.

[1] (?) الترمــذي الــبيوع (1264) ، أبــو داود الــبيوع (3535) ، الــدارمي البيوع (2597) .

حديث لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان

الحديث الثالث والتسعون

عن أبي بكرة قال: سمعت رسول الله يقول: لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان [1] . متفق عليه.

لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان [2] هذا الحديث يدل على أمور:

أحدها: نهي الحاكم بين الناس أن يحكم في كل قضية معينة بين اثنين وهو غضبان، سواء كان ذلك في القضايا الدينية أو الدنيوية. وذلك لما في الغضب من تغير الفكر وانحرافه. وهذا الانحراف للفكر يضر في استحضاره للحق، ويضر أيضا في قصد الحق، والفرض الأصلي للحاكم وغيره: قصد الحق علما وعملا.

الثاني: يدل على أنه ينبغي أن يجتهد في الأخذ بالأسباب التي تصرف الغضب، أو تخففه: من التخلق بالحلم والصبر، وتوطين النفس على ما يصيبه، وما يسمعه من الخصوم: فإن هذا عون كبير على دفع الغضب، أو تخفيفه.

---

1 (?) البخاري الأحكام (6739) ، مسلم الأقضية (1717) ، الترمذي الأحكام (1334) ، النسائي آداب القضاة (5406) ، أبو داود الأقضية (3589) ، ابن ماجه الأحكام (2316) ، أحمد (5/46) .

2 (?) البخاري الأحكام (6739) ، مسلم الأقضية (1717) ، الترمذي الأحكام (1334) ، النسائي آداب القضاة (5406) ، أبو داود الأقضية (3589) ، ابن ماجه الأحكام (2316) ، أحمد (5/46) .

الثـــالث: يؤخذ من هـــذا التعليـــل: أن كل ما منع الإنســـان من معرفة الحق أو قصـــده، فحكمه حكم الغضب. وذلك كالهم الشديد، والجــوع والعطش، وكونه حاقنا أو حاقبا أو نحوهـــا، مما يشـــغل الفكر مثل أو أكثر من الغضب.

الرابع: أن النهي عن الحكم في حال الغضب ونحوه مقصود لغيره. وهو أنه ينبغي للحاكم أن لا يحكم حـتى يحيط علما بالحكم الشـرعي الكلي، وبالقضـية الجزئية من جميع أطرافهـــا، ويحسن كيف يطبقها على الحكم الشرعي، فإن الحاكم محتاج إلى هذه الأمور الثلاثة:

الأول: العلم بالطرق الشرعية، التي وضـعها الشـارع لفصل الخصومات والحكم بين الناس.

الثــاني: أن يفهم ما بين الخصــمين من الخصــومة، ويتصــورها تصــورا تامــا، ويــدع كل واحد منهما يــدلي بحجته، ويشـرح قضـيته شـرحا تامـا. ثم إذا تحقق ذلك وأحاط به علما، احتاج إلى الأمر الثالث:

وهو صــفة تطبيقها وإدخالها في الأحكـام الشــرعية، فمتى وفق لهذه الأمور الثلاثة، وقصد العدل، وفق لـه، وهدي إليه. ومتى فاته واحد منها، حصل الغلـط، واختل الحكم. والله أعلم.

حديث كل واشرب والبس وتصدق من غير سرف ولا مخيلة

الحديث الرابع والتسعون

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله كل واشرب، والبس وتصدق، من غير سرف ولا مخيلة [1] . رواه أحمد وأبو داود، وعلقه البخاري.

هذا الحديث مشتمل على استعمال المال في الأمور النافعة في الدين والدنيا، وتجنب الأمور الضارة. وذلك أن الله تعالى جعل المال قواما للعباد، به تقوم أحوالهم الخاصة والعامة، الدينية والدنيوية. وقد أرشد الله ورسوله فيه - استخراجا واستعمالا، وتدبيرا وتصريفا - إلى أحسن الطرق وأنفعها، وأحسنها عاقبة: حالا ومآلا.

أرشد فيه إلى السعي في تحصيله بالأسباب المباحة والنافعة، وأن يكون الطلب جميلا، ولا كسل معه ولا فتور، ولا انهماك في تحصيله انهماكا يخل بحالة الإنسان، وأن يتجنب من المكاسب المحرمة والرديئة، ثم إذا تحصل سعى الإنسان في حفظه واستعماله بالمعروف، بالأكل والشرب واللباس، والأمور المحتاج

---

[1] (?) النسائي الزكاة (2559) ، ابن ماجه اللباس (3605) ، أحمد (2/1 82) .

إليها، هو ومن يتصل به من زوجة وأولاد وغـيرهم، من غير تقتير ولا تبذير.

وكـذلك إذا أخرجه للغير فيخرجه في الطـرق الـتي تنفعه، ويبقى له ثوابها وخيرها، كالصدقة على المحتـاج من الأقـارب والجـيران ونحـوهم، وكالإهـداء والـدعوات التي جرى العرف بها.

وكل ذلك معلق بعـــــدم الإســـــراف، وقصد الفخر والخيلاء، كما قيــده في هــذا الحــديث، وكما في قوله تعـــالى: ﴿ [illegible] ﴾ [1] . [الفرقان: 67] .

فهذا هو العدل في تدبير المـال: أن يكـون قواما [2] بين رتبـتي البخل والتبـذير، وبـذلك تقـوم الأمـور وتتم. وما سوى هذا، فإثم وضرر، ونقص في العقل والحـال. والله أعلم.

حديث...أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده أو يحبه الناس عليه...

الحديث الخامس والتسعون

عن أبي ذر قــال: قيــل: يا رســول اللــه، أرأيت الرجل يعمل العمل من الخـــير، ويحمـــده - أو يحبه -

1 (?) سورة الفرقان آية : 67 .

2 (?) وسطا .

الناس عليه ؟ قال: تلك عاجل بشرى المؤمن [3] .

رواه مسلم

. أخبر في هذا الحديث: أن آثار الأعمال المحمودة المعجلة أنها من البشرى؛ فإن الله وعد أولياءه - وهم المؤمنون المتقون - بالبشرى في هذه الحياة وفي الآخرة.

و " البشارة " الخبر أو الأمر السار الذي يعرف به العبد حسن عاقبته، وأنه من أهل السعادة، وأن عمله مقبول.

أما في الآخرة فهي البشارة برضى الله وثوابه، والنجاة من غضبه وعقابه، عند الموت، وفي القبر، وعند القيام إلى البعث، يبعث الله لعبده المؤمن في تلك المواضع بالبشرى على يدي الملائكة، كما تكاثرت بذلك نصوص الكتاب والسنة، وهى معروفة.

وأما البشارة في الدنيا التي يجعلها الله للمؤمنين؛ نموذجا وتعجيلا لفضله، وتعرفا لهم بذلك، وتنشيطا لهم على الأعمال فأعمها توفيقه لهم للخير، وعصمته لهم من الشر، كما قال أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة [1]

---

3 (?) مسلم البر والصلة والآداب (2642) ، ابن ماجه الزهد (4225) ، أحمد (5/156) .

1 (?) البخاري الجنائز (1296) ، مسلم القدر (2647) ، أبو داود السنة (4694) .

فإذا كان العبد يجد أعمال الخير ميسرة له، مسهلة عليه، ويجد نفسه محفوظا بحفظ الله عن الأعمال التي تضره، كان هذا من البشرى التي يستدل بها المؤمن على عاقبة أمره، فإن الله أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين. وإذا ابتدأ عبده بالإحسان أتمه.

فأعظم منة وإحسان يمن به عليه إحسانه الديني، فيسر المؤمن بذلك أكمل سرور: سرور بمنة الله عليه بأعمال الخير، وتيسيرها؛ لأن أعظم علامات الإيمان محبة الخير، والرغبة فيه، والسرور بفعله. وسرور ثان بطمعه الشديد في إتمام الله نعمته عليه، ودوام فضله.

ومن ذلك ما ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث: إذا عمل العبد عملا من أعمال الخير - وخصوصا الآثار الصالحة والمشاريع الخيرية العامة النفع، وترتب على ذلك محبة الناس له، وثناؤهم عليه، ودعاؤهم له - كان هذا من البشرى أن هذا العمل من الأعمال المقبولة، التي جعل الله فيها خيرا وبركة.

ومن البشرى في الحياة الدنيا، محبة المؤمنين للعبد لقوله تعالى: ﴿[illegible]﴾ [1] . [مريم: 96]، أي محبة منه لهم، وتحبيبا لهم في قلوب العباد.

---

1 (?) سورة مريم آية : 96 .

ومن ذلك الثناء الحسن، فإن كثرة ثناء المؤمنين على العبد شهادة منهم له. والمؤمنون شهداء الله في أرضه.

ومن ذلك الرؤيا الصالحة يراها المؤمن، أو ترى له، فإن الرؤيا الصالحة من المبشرات.

ومن البشرى أن يقدر الله على العبد تقديرا يحبه أو يكرهه. ويجعل ذلك التقدير وسيلة إلى إصلاح دينه، وسلامته من الشر.

وأنواع ألطاف الباري سبحانه لا تعد ولا تحصى، ولا تخطر بالبال، ولا تدور في الخيال. والله أعلم.

حديث رضى الله في رضى الوالدين وسخط الله في سخط الوالدين

الحديث السادس والتسعون

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رضى الله في رضى الوالدين، وسخط الله في سخط الوالدين» [1] . أخرجه الترمذي وصححه ابن حبان والحاكم.

هذا الحديث دليل على فضل بر الوالدين ووجوبه، وأنه سبب لرضى الله تعالى. وعلى التحذير عن عقوق الوالدين وتحريمه، وأنه سبب لسخط الله.

ولا شك أن هذا من رحمة الله بالوالدين والأولاد؛ إذ بين الوالدين وأولادهم من الاتصال ما لا يشبهه شيء

---

[1] (?) الترمذي البر والصلة (1899) .

من الصلات والارتباط الوثيق والإحسان من الوالدين الذي لا يساويه إحسان أحد من الخلق. والتربية المتنوعة وحاجة الأولاد الدينية والدنيوية إلى القيام بهذا الحق المتأكد، وفاء بالحق، واكتسابا للثواب، وتعليما لذريتهم أن يعاملوهم بما عاملوا به والديهم.

هذه الأسباب وما يتفرع عنها موجب لجعل رضاهما مقرونا برضى الله. وضده بضده.

وإذا قيل: فما هو البر الذي أمر الله به ورسوله ؟

قيل: قد حده الله ورسوله بحد معروف، وتفسير يفهمه كل أحد. فالله تعالى أطلق الأمر بالإحسان إليهما. وذكر بعض الأمثلة التي هي أنموذج من الإحسان. فكل إحسان قولي أو فعلي أو بدني، بحسب أحوال الوالدين والأولاد والوقت والمكان، فإن هذا هو البر.

وفي هذا الحديث: ذكر غاية البر ونهايته التي هي رضى الوالدين: فالإحسان موجب وسبب، والرضى أثر ومسبب. فكل ما أرضى الوالدين من جميع أنواع المعاملات العرفية، وسلوك كل طريق ووسيلة ترضيهما، فإنه داخل في البر، كما أن العقوق: كل ما يسخطهما من قول أو فعل. ولكن ذلك مقيد بالطاعة لا بالمعصية. فمتى تعذر على الولد إرضاء والديه إلا بإسخاط الله، وجب تقديم محبة الله على محبة

الوالدين، وكان اللوم والجناية من الوالدين، فلا يلومان إلا أنفسهما.

وفي هذا الحديث: إثبات صفة الرضى والسخط لله، وأن ذلك متعلق بمحابه ومراضيه. فالله تعالى يحب أوليائه وأصفياءه ويحب من قام بطاعته وطاعة رسوله، وهذا من كماله وحكمته وحمده، ورحمته. ورضاه وسخطه، من صفاته المتعلقة بمشيئته وقدرته.

والعصمة في ذلك: أنه يجب على المؤمن أن يثبت ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله من صفات الكمال الذاتية والفعلية، على وجه يليق بعظمة الله وكبريائه ومجده ويعلم أن الله ليس له ند، ولا كفو، ولا مثيل في ذاته وأسمائه، وصفاته وأفعاله. والله أعلم.

حديث ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمور ولزوم جماعة المسلمين...

الحديث السابع والتسعون

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم [1]. رواه الترمذي والشافعي وغيرهما.

[1] (?) الترمذي العلم (2658) .

قال الشيخ شمس الدين ابن القيم: أي لا يبقى في القلب غل ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غله، وتنقيه منه، وتخرجه منه، فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل. وكذلك يغل على الغش، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلال. فهذه الثلاثة تملؤه غلا ودغلا. ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه، بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة. انتهى.

أي فمن أخلص أعماله كلها لله، ونصح في أموره كلها لعباد الله، ولزم الجماعة بالائتلاف، وعدم الاختلاف، وصار قلبه صافيا نقيا، صار لله وليا، ومن كان بخلاف ذلك، امتلأ قلبه من كل آفة وشر، والله أعلم.

حديث إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة

الحديث الثامن والتسعون

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله إنما الناس كالإبل المائة، لا تكاد تجد فيها راحلة [1] . متفق عليه.

هذا الحديث مشتمل على خبر صادق، وإرشاد نافع.

---

[1] (?) البخاري الرقاق (6133) ، مسلم فضائل الصحابة (2547) ، الترمذي الأمثال (2872) ، ابن ماجه الفتن (3990) ، أحمد (2/122) .

أما الخبر، فإنه أخبر أن النص شامل لأكثر الناس، وأن الكامل - أو مقارب الكمال - فيهم قليل، كالإبل المائة، تستكثرها، فإذا أردت منها راحلة تصلح للحمل والركوب، والذهاب والإياب، لم تكد تجدها، وهكذا الناس كثير، فإذا أردت أن تنتخب منهم من يصلح للتعليم أو الفتوى أو الإمامة، أو الولايات الكبار أو الصغار، أو الوظائف المهمة، لم تكد تجد من يقوم بتلك الوظيفة قياما صالحا، وهذا هو الواقع، فإن الإنسان ظلوم جهول، والظلم والجهل سبب للنقائص، وهي مانعة من الكمال والتكميل.

وأما الإرشاد، فإن مضمون هذا الخبر إرشاد منه إلى أنه ينبغي لمجموع الأمة أن يسعوا، ويجتهدوا في تأهيل الرجال الذين يصلحون للقيام بالمهمات، والأمور الكلية العامة النفع.

وقد أرشد الله إلى هذا المعنى في قوله: [illegible] [1] [التوبة: 122].

فأمر بالجهاد، وأن يقوم به طائفة كافية، وأن يتصدى للعلم طائفة أخرى، ليعين هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، وأمره تعالى بالولايات والتولية أمر بها، وبما لا تتم إلا به من الشروط والمكملات.

---

1 (?) سورة التوبة آية : 122 .

فالوظائف الدينية والدنيوية، والأعمال الكلية، لا بد للناس منها ولا تتم مصلحتهم إلا بها، وهي لا تتم إلا بأن يتولاها الأكفاء والأمناء، وذلك يستدعي السعي في تحصيل هذه الأوصاف بحسب الاستطاعة. قال الله تعالى: ﴿[illegible]﴾ [1] [التغابن: 16]. والله أعلم.

حديث يأتي على الناس زمان القابض على دينه كالقابض على الجمر

الحديث التاسع والتسعون

عن أنس بن مالك ؓ قال: قال رسول الله ﷺ «يأتي على الناس زمان القابض على دينه كالقابض على الجمر» [2] رواه الترمذي.

وهذا الحديث أيضا يقتضي خبرا وإرشادا.

أما الخبر، فإنه ﷺ أخبر أنه في آخر الزمان يقل الخير وأسبابه، ويكثر الشر وأسبابه، وأنه عند ذلك يكون المتمسك بالدين من الناس أقل القليل، وهذا القليل في حالة شدة ومشقة عظيمة، كحالة القابض على الجمر، من قوة المعارضين، وكثرة الفتن المضلة، فتن الشبهات والشكوك والإلحاد، وفتن الشهوات وانصراف الخلق إلى الدنيا وانهماكهم فيها،

---

1 (?) سورة التغابن آية : 16 .

2 (?) الترمذي الفتن (2260) .

ظـاهرا وباطنـا، وضـعف الإيمـان، وشـدة التفـرد لقلة المعين والمساعد.

ولكن المتمسك بدينه، القائم بدفع هـذه المعارضـات والعوائق الـتي لا يصـمد لها إلا أهل البصـيرة واليقين، وأهل الإيمان المـتين، من أفضل الخلـق، وأرفعهم عند الله درجة، وأعظمهم عنده قدرا.

وأما الإرشاد، فإنه إرشاد لأمته، أن يوطنـوا أنفسـهم على هذه الحالة، وأن يعرفـوا أنه لا بد منهـا، وأن من اقتحم هذه العقبات، وصبر على دينه وإيمانه - مع هذه المعارضات - فإن له عند الله أعلى الدرجات، وسيعينه مـولاه على ما يحبه ويرضـاه، فـإن المعونة على قـدر المؤونة.

وما أشبه زماننا هذا بهذا الوصف الذي ذكره ﷺ فإنه ما بقي من الإسـلام إلا اسـمه، ولا من القـرآن إلا رسـمه، إيمـان ضـعيف، وقلـوب متفرقـة، وحكومـات متشـتتة، وعـداوات وبغضـاء باعـدت بين المسـلمين، وأعداء ظاهرون وباطنون، يعملـون سـرا وعلنا للقضـاء على الـدين، وإلحـاد وماديـات، جـرفت بخـبيث تيارها وأمواجها المتلاطمة الشـيوخ والشـبان، ودعايـات إلى فساد الأخلاق، والقضاء على بقية الرمق.

ثم إقبال الناس على زخارف الـدنيا، بحيث أصـبحت هي مبلغ علمهم، وأكبر همهم، ولها يرضون ويغضـبون، ودعاية خبيثة للتزهيد في الآخرة، والإقبـال بالكلية على

تعمير الدنيا، وتدمير الدين واحتقاره والاستهزاء بأهله، وبكل ما ينسب إليه، وفخر وفخفخة، واستكبار بالمدنيات المبنية على الإلحاد التي آثارها وشررها وشرورها قد شاهده العباد.

فمع هذه الشرور المتراكمة، والأمواج المتلاطمة، والمزعجات الملمة، والفتن الحاضرة والمستقبلة المدلهمة - مع هذه الأمور وغيرها - تجد مصداق هذا الحديث.

ولكن مع ذلك، فإن المؤمن لا يقنط من رحمة الله، ولا ييأس من روح الله، ولا يكون نظره مقصورا على الأسباب الظاهرة، بل يكون متلفتا في قلبه كل وقت إلى مسبب الأسباب، الكريم الوهاب، ويكون الفرج بين عينيه، ووعده الذي لا يخلفه، بأنه سيجعل له بعد عسر يسرا، وأن الفرج مع الكرب، وأن تفريج الكربات مع شدة الكربات وحلول المفظعات.

فالمؤمن من يقول في هذه الأحوال: " لا حول ولا قوة إلا بالله " و" حسبنا الله ونعم الوكيل. على الله توكلنا. اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى. وأنت المستعان. وبك المستغاث. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " ويقوم بما يقدر عليه من الإيمان والنصح والدعوة. ويقنع باليسير، إذا لم يمكن الكثير. وبزوال بعض الشر وتخفيفه، إذا تعذر غير ذلك:

[illegible] [1] ، [illegible] [2] ، [illegible] [3] [الطلاق: 2، 3، 4] .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين.

الخاتمة [4]

تمت هذه الرسالة المشتملة على شرح تسع وتسعين حديثا، من الأحاديث النبوية الجوامع، في أصناف العلوم، والمواضيع النافعة، والعقائد الصحيحة، والأخلاق الكريمة، والفقه والآداب، والإصلاحات الشاملة، والفوائد العامة.

قال ذلك معلقها: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي. غفر الله له ولوالديه ووالديهم، وجميع المسلمين.

وفرغ منه في العاشر من شعبان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة.

وقد وقع الفراغ من نقلها بعون الله تعالى وتيسيره من خط المؤلف في 27 رمضان سنة 1371 هـ بقلم الفقير إلى ربه المنان، عبد الله بن سليمان آلعبد الله

---

1 (?) سورة الطلاق آية : 2 .
2 (?) سورة الطلاق آية : 3 .
3 (?) سورة الطلاق آية : 4 .
4 (?) هذا العنوان من وضع الناشر .

السـلمان. غفر الله له ولوالديه ووالـديهم وجميع المسلمين.

هـذه جـوهرة نفيسـة، وروضة ممرعـة، هي بغية الراغـبين، ونزهة المسـتفيدين، وبهجة النـاظرين، لما ظهـرت به من مظهر أنيـق، وتحلت به من زهـور المعـارف والتحقيـق، ولما أودعته من فوائد جليلـة، سـهل اجتناؤهـا، وثمـرات دانية طـاب مـذاقها، ومناهل عذبـة، راق مشـربها حيث اشـتملت على بيـان العقائد النافعة، والأصول الجامعة، والأحكـام المتنوعـة، والآداب السامية، وغيرها من المواضيع المهمة، والعلوم الجمة، الـتي تكسب الإنسـان هـدى ورشـدا، وتزيـده بصـيرة ويقينا.

وحسبك منها أنها شرح لكلام هو أشرف الكلام، بعد كلام الله وأجمعه للخـير وأنفعـه، كلام أعلم الخلـق، وأفصحهم محمد ﷺ .

وتبـيين لمقاصـده الشـريفة، وكنـوزه النفيسـة، يقـدمها الشيخ الفاضل عبد الرحمن بن ناصر السعدي، جـزاه الله عن الإسـلام وأهله خـيرا، ولا زالت شـموس تحقيقه مشرقة، وبذور علومه نيرة.

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

الفهرس